

غواية إسرائيل

الصهيونية وانهيار الاتحاد السوفييتى

د. أشرف الصباغ

غواية إسرائيل

الصهيونية وانهيار الاتحاد السوفييتى

جماعة حور الثقافية
القاهرة تليفون: ٢٥٠٠٠٥٥ / موبيل: ٠١٠٥١١٣٣١٥
الكاتب: د. أشرف الصباغ
الكتاب: غواية إسرائيل (الصهيونية وانهيار الاتحاد السوفييتى)
الطبعة الأولى ٢٠٠٠

رقم الإيداع: ١٦٤٧٠ / ٢٠٠٠
الترقيم الدولى: I.S.B.N: 977-5969-06 - 8
غلاف وإخراج: سعد القرش
الجمع والتنفيذ: عصام عيسوى

د. أشــــرف الصبــــاغ

غواية إسرائيل

الصهيونية وانهيار الاتحاد السوفييتي



طبعة أولى ٢٠٠٠

المحتـــوى

الصفحة

مقدمة

لعل ما يسمى بـ«المسألة اليهودية» هو أحد أخطر القضايا التى عانت منها الشعوب قديماً وحديثاً، ولاتزال. وإذا كان قد تغيّر مفهوم «المسألة اليهودية» إلى مفهوم أكثر تحديداً وهو «المسألة الصهيونية» - على اعتبار أنه من قبيل الخطأ وضع جميع يهود العالم فى سلة واحدة ومحاكمة بسطاء اليهود بما يرتكبه أفراد اللوبى الصهيونى وممثلو الحركة الصهيونية العالمية - فإن القضية قد أخذت أبعاداً غاية فى الخطورة والاستفزاز بعد احتلال دولة فلسطين، واستمرر الصراع العربى الصهيونى الذى لا يزال مستمراً إلى الآن.

ربما كانت السياسة العالمية حتى منتصف الثمانينيات قد لعبت دوراً مهماً وخطيراً فى توجيه هذا الصراع بسبب وجود قطبين عالميين ممثلين بالولايات المتحدة الأمريكية ومعها دول حلف الأطلنطى، والاتحاد السوفييتى ومعه دول حلف وارسو. ولكن بمجرد انهيار الاتحاد السوفييتى قامت هيئة الأمم المتحدة بتعديل موقفها من دولة إسرائيل الصهيونية وأسقطت بعض البنود المهمة بخصوصها على اعتبار أنها لم تعد لا صهيونية ولا عنصرية (تم بالفعل إسقاط قرار الأمم المتحدة الصادر عام ١٩٧٥ والذى كان يعتبر الصهيونية أحد أوجه العنصرية) بصرف النظر عن تحقق ذلك فى الواقع العملى. ولكن سقوط الاتحاد السوفييتى (نظرياً بقيام البيريسترويكا عام ١٩٨٦، وعملياً بقرار حله فى شتاء عام ١٩٩١ ومن ثم قيام روسيا الاتحادية) تسبب فى مشكلات أخرى أهمها انفراد الولايات المتحدة بالتحكم فى مصائر العديد من دول العالم بما فى ذلك الكثير من الدول الأوربية، وبدا الأمر كما لو أنه - وهو بالفعل كذلك - إعادة تقسيم للخريطة الجيوبوليتيكية العالمية وعلى الأخص لدول العالم الثالث وروسيا وبعض بلدان آسيا الضخمة مثل الهند والصين، والسيطرة على مقدرات الاقتصاد العالمى وتوجيهه، وإثارة النعرات القومية والإثنية والدينية فى جميع بلدان العالم تقريباً الأمر الذى أدى فى النهاية إلى تعيين مندوب عن الرئيس الأمريكى فى البلدان التى توجد بها سفارات أمريكية من أجل مراقبة حكومات هذه الدول ودرجة التزامها بصيانة حقوق الأقليات الدينية والإثنية. والأخطر من كل ذلك هو تصاعد الحملة الموجهة لإلغاء التأمينات الاجتماعية للعمال والطبقات الفقيرة، وزيادة سن التقاعد، وتخفيض المعاشات لهؤلاء المتقاعدين... إلخ كل تلك الدعوات تظهر حالياً فى أمريكا وأوربا ودول العالم الثالث بعد سقوط «البعبع» الذى كان يسبب العديد من المشاكل بخصوص الحفاظ على حقوق العمال والطبقات والشرائح الفقيرة والمعدمة.

أما بخصوص «المسألة اليهودية» التى تفجرت فى روسيا تحديداً بعد سقوط الاتحاد السوفييتى، فهى تملك أسباباً ومسوغات تاريخية فى غاية الأهمية والخطورة لدرجة أنها لا تخص روسيا (القيصرية) أو روسيا (السوفييتية) أو روسيا (الاتحادية) فقط، وإنما هى مرتبطة بشكل وثيق بمجموعة من الدول الغربية وخاصة فرنسا وألمانيا فى القرن الماضى، والعديد من الدول الأوربية فى القرن الحالى. ولعل تلك «المسألة» تشكل إحدى أخطر

القضايا التي تواجه الشعب الروسي حالياً وتنعكس بشكل أو بآخر على مستقبل دولة مثل روسيا تملك سلاحاً نووياً جباراً في حين يمسك بمقاليد السلطة فيها مجموعة ضخمة من أفراد اللوبي الصهيوني(*) والطغمة المالية اليهودية التي عملت طوال أكثر من عشر سنوات على تخريب الاقتصاد الروسي وبيع ممتلكات الاتحاد السوفييتي مما أدى بشكل مباشر إلى إفقار الشعب الروسي وانهيار مستوى المعيشة لملايين العمال البسطاء وكبار السن، وزيادة عدد الوفاة بين الأطفال والنساء، وتفشي الجريمة والسلب والنهب، وتصاعد النعرات القومية والدينية، وانتشار المنظمات الفاشية... إلخ.

إن الحديث عن «المسألة اليهودية»(*) في روسيا خلال السنوات الأخيرة، بداية من انهيار الاتحاد السوفييتي وحتى انفجار الأزمة الاقتصادية في ١٧ أغسطس ١٩٩٨ وما ترتب على ذلك، ليس له قيمة حقيقية بدون سرد بعض الحقائق التاريخية الخاصة بقضية اليهود في روسيا منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وإذا اعتبرنا مقالة ديستويفسكي الشهيرة (المسألة اليهودية) مثالاً حياً على سطوة اليهود في روسيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فإنها إلى جانب ذلك تجسيد واقعي لفكرة الصهيونية على اعتبار أن مصطلح الصهيونية بأبعاده الحديثة لم يكن بعد قد ظهر آنذاك.

(*) انظر الملحق التفسيري.

١ - بروتوكولات حكماء صهيون

لعل الحديث عن بروتوكولات حكماء صهيون يكون متسقاً من الناحية المنهجية مع تطور الخطوط الرئيسة لمواد هذا الكتاب، وذلك لعدة أسباب منها:

١ - صدور البروتوكولات في شكلها الأول على هيئة كتاب في روسيا تحديداً.

٢ - الاتهامات الموجهة إلى البوليس القيصري الروسي بأنه مصدر هذه البروتوكولات وليس الحركة الصهيونية العالمية.

٣ - تشابك توقيت صدور البروتوكولات مع النشاط الحاد للحركة الصهيونية العالمية في نهاية التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ومع تصاعد حملات الاتهام للعديد من الشعوب الأوربية بمعاداة السامية وعلى الأخص الروس والفرنسيين.

٤ - استمرار النقاش والجدل حول البروتوكولات ووضعها دائماً في موضع الشك بالنسبة لمصدر كتابتها.

وقد ساهمت الدعاية الصهيونية في تشتيت الآراء وتعتيم الأمور لكي تتنصل من تلك النصوص التي تمثل أكبر جريمة أخلاقية في العصر الحديث، وواحدة من أبشع الجرائم الأخلاقية التي ارتكبها اليهود طوال فترة وجودهم بين شعوب العالم ومازلوا إلى الآن يعملون على تحقيق كل بنودها. إلا أن توصيات المؤتمرات الصهيونية وقراراتها منذ عام ١٨٩٧، وما حدث في الواقع العملي قد أثبتا بما لا يدع مجالاً للشك أن الحركة الصهيونية العالمية - التي ولدت إسرائيل - هي بالذات التي قامت بارتكاب هذه الجريمة الأخلاقية البشعة.

١- مدخل تاريخي

«في بداية القرن الثامن عشر، وعلى وجه التحديد في الربع الأخير من القرن السابع عشر، وبعد فترة طويلة من التدهور، ظهرت بين اليهود حركة ثقافية - اجتماعية، متأثرة إلى حد كبير بأفكار فلاسفة التنوير الأوربي. وتدعى هذه الحركة لدى اليهود باسم «حركة حسكلاه»(*). و«حسكلاه» كما تبناها أبوها الروحي موسى مندلسون، تعتبر حركة إحياء للثقافة اليهودية، ولكن سرعان ما نما فيها الجانب السياسي والاجتماعي، وتمثل ذلك في الرغبة في التحرر السياسي، والتي انتصرت على الرغبة في الإحياء الثقافي.

ولقد هدفت «حسكلاه» - كحركة سياسية - إلى إلغاء القوانين الخاصة باليهود، وتعاونت في ذلك مع المحاولات التي قام بها فريدريك الأكبر ويوسف الثاني لدمج اليهود في الحياة العامة في الدولة والعمل على خدمتها، كما شجعت اللقاءات الثقافية بين اليهود وغير اليهود، وحاولت من جهة أخرى أن تنشر آراءها بين الجماهير اليهودية المتحفظة وأن تقيم مجموعة من المدارس المتطورة.

وكان لنتائج حركة حسكلاه آثار بعيدة المدى، فقد مهدت الطريق - من ناحية - إلى حركة الإصلاح الديني، على الأخص في غرب أوربا. ومن ناحية أخرى، أثارت الثورة ضد نظام الحياة في الجيتو اليهودي، وكذلك الثورة التي وجهت فيما بعد ضد حسكلاه نفسها

(*) انظر الملحق التفسيري.

بعد الفشل الكبير الذى أصابها فى أعقاب الاضطراب فى روسيا عام ١٨٨١ ، عندما ضاع الأمل فى الاندماج والذوبان فى الشعب الروسى، وهذه الثورة كانت النبع الأساسى الذى انبثقت عنه الحركة الصهيونية فيما بعد»[١].

و«حين ننظر إلى الحلول الأخرى التى كان يمكن بها حل المشكلة اليهودية فى أوربا، والتى قابلها اليهود أنفسهم بكثير من المقاومة والرفض. وأهم هذه الحلول بغير شك هو ما يعرف باسم «حركة الانعتاق»، أى محاولة تحديث اليهود الأوربيين وإخراجهم من عزلتهم، وإدماجهم فى المجتمعات الأوربية التى يعيشون فيها، مع توفير كافة حقوق المواطنة بالنسبة لهم، وتشجيعهم على التوطن فى المناطق الريفية لممارسة الزراعة التى سوف تربطهم بالأرض وتعطيهم الشعور بالانتماء إلى الوطن، وإلزامهم إزاء ذلك بطبيعة الحال بكل الالتزامات ومسئوليات المواطن العادى، مثل أداء الخدمة العسكرية. ولم يكن المقصود بهذا الحل اليهود وحدهم بل كل الأقليات الأخرى. وقد ظهرت حركة الانعتاق فى القرن الثامن عشر الذى هو «عصر التنوير»، العصر الذى برزت فيه مشكلة اليهود فى أوربا بشكل قوى، نتيجة لتغير الأوضاع والظروف الاقتصادية فى المجتمع الغربى، وما ترتب على ذلك من تغيرات جوهرية فى بناء ذلك المجتمع. (...) ومع أن الدعوة إلى الانعتاق لقيت قبولاً من بعض اليهود فى أواسط القرن الثامن عشر، فيما يعرف باسم حركة التنوير اليهودية «حسكلاه» فإنه كان قبولاً محدوداً، لأن التمتع بالحقوق على حساب الانتماء إلى القومية اليهودية المجردة(*)، كما كان يستلزم الفصل بين اليهودية كدين واليهودية كقومية، وهو الأمر الذى يرفضه معظم اليهود ويقاومونه بشدة. (...) ومن هنا كنا نجد أنه فى الحالات التى تَقبّل فيها اليهود فكرة المواطنة، فإنهم ظلوا يعملون فى الوقت ذاته، وبمختلف الأساليب، على الاحتفاظ بشىء من الاستقلال عن المجتمع حتى يظهروا كعنصر متميز. فقد كانوا يتمسكون أشد التمسك بالسكنى والإقامة فى مناطقهم المنعزلة المغلقة ـ أو فى المعازل التى فرضوها على أنفسهم (الجيتو)(*)، كما كانوا يفضلون دفع بدل نقدى نظير إعفائهم من أداء الخدمة العسكرية (...) وكان هذا

---

(١) د.أحمد حماد: توظيف الشخصية الدينية فى الأدب لخدمة الفكرة الصهيونية، مجلة عالم الفكر، المجلد الرابع عشر، العدد الأول، أبريل ـ مايو يونيو ١٩٨٣، ص ١٦١.

(*) انظر الملحق التفسيرى.

أكثر وضوحاً بين يهود روسيا الذين أبدوا مقاومة عنيفة لفكرة الإدماج أو الدمج. (...) وعلى ذلك يمكن القول إن الصهيونية هي نوع من رد الفعل على حركة التنوير بكل ما كانت تؤدى إليه من انعتاق ودمج»(١).

ومنذ غادر اليهود فلسطين بعد انهيار مملكة سليمان وحتى القرن التاسع عشر، لم ترتفع الدعوة بين اليهود للهجرة إلى فلسطين. لقد ظهرت هذه الدعوة فقط مع ظهور «المسألة اليهودية» خلال القرن التاسع عشر، ووجدت الصياغة النظرية لها فى الصهيونية، فمع التطور السريع فى روسيا بعد إصلاحات عام ١٨٦٣(*)، بدأ النظام الإقطاعى يتداعى بسرعة مفسحاً الطريق للرأسمالية الناشئة. ومع تحلل النظام الإقطاعى فقد اليهود الروس قاعدتهم الاقتصادية (وكان معظمهم يعملون بالتجارة والحرف الحضرية)، وفشلوا فى الاندماج فى المجتمع الروسى. من هنا بدأ زحفهم بأعداد كبيرة، وبالذات بعد أحداث ١٨٨٢ فى روسيا(*)، إلى دول وسط وغرب أوربا»(٢).

«الفكرة الصهيونية(*) إذن حتى كأسطورة دينية / سياسية لا تعود بجذورها إلى تاريخ اليهود الوهمى، وإنما تعود إلى ديناميات التاريخ الأوربى الحقيقى، وحينما ظهر الفكر الصهيونى فى نهاية الأمر فى أواخر القرن التاسع عشر (بعد عام ١٨٨٢ على وجه التحديد وهو التاريخ الذى أنهى المحاولات الرامية لدمج يهود روسيا فى المجتمع الروسى) فإنه كان فكراً استعمارياً فى بنائه ومضمونه»(٣).

معنى ذلك أن كل المراجع التاريخية العلمية قد اتفقت على أن الصهيونية ـ اليهودية قد ظهرت فى أواخر القرن التاسع عشر، واتفقت فى مجملها ـ ليس كلها ـ على أن

---

(١) د. أحمد أبو زيد: الصهيونية: هل هى حركة إجيائية؟، مجلة عالم الفكر، المجلد الرابع عشر، العدد الأول، أبريل ـ مايو ـ يونيو ١٩٨٣، ص ٨.

(٢) د. جودة عبد الخالق: العرب والصهيونية: البعد الاقتصادى للمواجهة، مجلة عالم الفكر، المجلد الرابع عشر، العدد الأول، أبريل ـ مايو ـ يونيو ١٩٨٣، ص ٧٢.

(٣) د. عبد الوهاب المسيرى: الحركة الصهيوية: الخلفية التاريخية، مجلة عالم الفكر، المجلد الرابع عشر، العدد الأول، أبريل ـ مايو ـ يونيو ١٩٨٣، ص ٢١.

(*) انظر الملحق التفسيرى.

ظروف اليهود فى روسيا القيصرية هى التى دفعت بشكل أو بآخر فى هذا الاتجاه. وهناك بعض المصادر التى تنظر بشكل أشمل فتذكر الوضع العام فى أوربا وعلاقة اليهود آنذاك بالسكان الأصليين. غير أن المثير للشك (على المستوى العلمى الأكاديمى) أن معظم تلك المصادر أوربية، وليس هناك أى توضيح أو تفسير لأوضاع روسيا فى تلك المرحلة (بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر)، الأمر الذى يدعونا للدهشة عندما يبنى البعض آراءهم القاطعة على تلك المصادر، ومن ثم يتبنون وجهات النظر المناقضة، على الأقل للواقع آنذاك، وللأحداث التاريخية ذاتها. علماً بأننا لا نشكك إطلاقاً فى تلك المصادر (وإنما نكشف ببساطة وعلمية، كمية التلفيق الموجودة بها والتفسيرات أحادية الجانب التى تتعامل مع الحقائق بأكثر من وجه) ولكنها مجرد ملاحظة على عدم التعرض لتفاصيل الأحداث على الجانب الآخر، الروسى، وإن كانت هناك مصادر مهمة تناولت ذلك بالتفصيل وبوجهات نظر مختلفة، إلا أن البعض يتحاشاها أو يهملها نتيجة لعوامل كثيرة.

أما أحد المصادر الهامة أيضاً (تكمن الأهمية فى مدى التشويه والكذب والادعاء) فهو كتاب ج. ب. بل الأستاذ بمعهد دراسات الحرب والسلم التابع لجامعة كولومبيا (وكان يعمل أستاذاً فى جامعة هارفارد وفى معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا) بعنوان «الإرهاب يخرج من صهيون» (نيويورك ١٩٧٧)(١)، حيث يكتب: «أخذ كثير من الأشياء فى التغير بداية من القرن التاسع عشر، فقد دعا نابليون اليهود فى مارس ١٧٩٩ ليجتمعوا تحت لوائه ويستعيدوا القدس القديمة. ولكن لم تضرب دعوة نابليون هذه بأى جذور إلا بعد مرور نصف قرن تقريباً، إذ إن معظم يهود أوربا الغربية توقعوا أن يندمجوا فى الدول القومية الحديثة باعتبارهم ألمان أو إنجليز من أتباع العقيدة الموسوية، بينما حاولات الملايين التى وقعت فى شراك مناطق الاستيطان فى شرق أوربا البقاء وحسب. ولكن تيار القومية اليهودية المتردد بدأ يكتسب صلابة وانتشاراً كنتيجة لخيبة أمل اليهود ومخاوف يهود

---

(١) Bower Bell: Terror Out of Zion: The Violent and Deadly Shock Troops of Israeli Independence, 1929 - 1949 (New york: St. Martin s Press, 1977).

الشرق ووقعت تهم الدم في دمشق عام ١٨٤٠(*) حين تم القبض على سبعة يهود وتم تعذيبهم بتواطؤ واضح مع الرهبان الفرنسيسكان الفرنسيين - وفي هذا عودة بدائية للاضطهاد على نمط العصور الوسطى. وقد ساءت الأحوال في شرق أوربا، وخاصة في روسيا، فوقعت بوجروم (أي مذبحة منظمة ضد اليهود) في أوديسا عام ١٨٧١(*)، كما وقعت سلسلة أخرى من المذابح عبر روسيا بعد عشرة أعوام، بعد اغتيال قيصر روسيا الكسندر الثاني. ثم وقعت أخيراً حادثة دريفوس عام ١٨٩٤ و١٨٩٥(*) والتي كشفت عن وجود نزعة معادية للسامية راسخة في المجتمع الفرنسي الذي كان يُفترض فيه أنه مجتمع عقلاني، فقد تمت إدانة الكابتن دريفوس بناء على قرائن مختلفة، وكان بمثابة إدانة لفرنسا ذاتها بالنسبة من جانب كثير من اليهود. وهنا وجد البعض أن البديل للاندماج أو تحمل الاضطهاد هو دعوة نابليون(**) التي كاد يغطيها النسيان».

وبالطبع فمن الواضح أن الكتاب هو مجرد «تاريخ مصغر (مايكرو) للصهيونية يكاد يكون هو الصيغة الرسمية التي اعتمدتها الحركة الصهيونية لإضفاء الشرعية والمعقولية على البرنامج الصهيوني. وقد وجدت هذه الصيغة، التي تكاد تكون بديهية، طريقها إلى كثير من الكتب التي تؤرخ للصهيونية سواء في الغرب أم في الشرق (بما في ذلك الشرق العربي) وماذا يمكن أن يكون أكثر بديهية من هذه الصيغة البسيطة المنطقية (أقلية تقرر الاندماج أو التحمل، مجتمعات ترفض هذا السلوك الكريم من الأقلية، الأقلية تعود إلى شرنقتها بعد خيبة الأمل - ويخرج الأرنب الصهيوني من قبعة الاعتذاريات - كرد فعل حتمي، يخرج وقد أجاب على عدة أسئلة سطحية وترك مئات الأسئلة الأساسية الأخرى دون إجابة»[1].

بهذا الحس التاريخي السياسي المتيقظ يضعنا الدكتور عبد الوهاب المسيري على طريق البحث العلمي الصحيح عندما يستشف أن هذه هي «الصيغة الرسمية التي اعتمدتها الحركة الصهيونية لإضفاء الشرعية والمعقولية على البرنامج الصهيوني».

(١) د. عبد الوهاب المسيري: مرجع سابق، ص ١٤.

(*) انظر الملحق التفسيري.

(**) انظر نص نداء نابليون بالملحق رقم (٢).

٢ـ الحالة الروسية

فى «يوميات كاتب»[١] عن شهر مارس ١٨٧٧ كتب ديستويفسكى: «... ولكن من دون التغلغل فى جوهر الموضوع وعمقه، يمكن وصف ولو بعض ملامح هذا الجيتو، أو على الأقل ما يظهر منه. هذه الملامح: الإحساس بالاغتراب والعزلة على مستوى التحجر الدينى، وعدم القدرة على الاندماج، والإيمان بأنه لا يوجد فى العالم سوى شخصية قومية واحدة ألا وهى الشخصية اليهودية(*)، وحتى إن كان الآخرون موجودين، فالأمر سيان، يجب النظر إليهم وكأنهم غير موجودين». «اخرج من بين الشعوب، وشكّل ذاتك، واعلم أنك الوحيد حتى الآن لدى الإله، اسحق الآخرين أو خذهم عبيداً، أو استغلهم. ثق بانتصارك على العالم كله، وثق بأن كل شيء سيخضع لك. تجنب الجميع فى حسم، ولا تشترك مع أحد فى معاشك. وحتى عندما تُحرم من أرضك، ومن شخصيتك السياسية، حتى عندما تتشتت على وجه الأرض، بين كل الشعوب ـ سيان ـ ثق بأنك موعود بكل ذلك إلى الأبد، ثق بأن كل شيء سيكون، أما بعد فعشْ، وتجنب، واتحد، واستغل وانتظر... انتظر، هاهو جور فكرة الجيتو، وبعد ذلك طبعاً توجد قوانين داخلية، وربما سرية تحدد هذه الفكرة».

لقد أبصر ديستويفسكى أحد أهم وأضخم الأسرار المقدسة اليهودية: وجود القوانين السرية، والبرامج السرية، والخطط السرية لحروب ألف عام تشنها اليهودية ضد البشرية كلها. وهذا تحديداً ما يشير إليه الدكتور المسيرى بـ«البرنامج الصهيونى». ولكن ما الذى يمكنه أن يدفع ديستويفسكى لكتابة هذه الوثيقة المهمة، وفى ذلك الوقت بالتحديد؟

بعد إلغاء قانون الرق عام ١٨٦١ فى روسيا، تخلص الشعب الروسى بجميع أقلياته من العبودية (واليهود من ضمن هذه الأقليات). ولكن لم يكد يمر عام واحد حتى وقع الروس (ومعهم الأقليات الأخرى) فى قبضة اليهود. فبعد أن كان الأمراء والإقطاعيون

---

(٢) فيدور ديستويفسكى: المسألة اليهودية، الأعمال الكاملة، المجلد الحادى عشر، الفصل الثانى، سانت بطرسبورج ١٨٩٥، ص ٩٤

(*) انظر الملحق التفسيرى.

يستعبدون الروس واليهود والتتر . . وغيرهم، تحرر الجميع ليقعوا مباشرة تحت نير الاستغلال اليهودى. ولنر ماذا يقول ديستويفسكى فى هذا الأمر :

« . . عندما كان اليهود يعانون من قبضة الاختيار الحر لمكان الإقامة، كان هناك ثلاثة وعشرون مليوناً من الجماهير الروسية الكادحة تعانى من نظام الرق والعبودية الذى كان بطبيعة الحال أشد وطأة من اختيار مكان الإقامة. فهل أشفق عليهم اليهود آنذاك؟ لا أعتقد ذلك : فالوضع فى أطراف روسيا الغربية وفى جنوبها يمكنه الإجابة عن هذا. آنذاك كان اليهود كالعادة مطالبين بالحقوق التى لم تكن لدى الشعب الروسى نفسه، كانوا يصرخون ويشتكون بأنهم مقهورون ومعذبون، وبأنه عندما يمنحونهم حقوقاً أكثر عندئذ فقط : اطلبوا منا القيام بالتزاماتنا تجاه الدولة والسكان الأصليين. ثم أتى المحرر، محرر الشعب الأصلى، فانظر ماذا حدث، من كان أول المنقضين عليه كمن ينقض على فريسة، من فى الغالب استغل علله ومشاكله ومن أحاطه بالأكاذيب وخدعه بحرفته الذهبية الأبدية، ومن حل فى كل مكان، حيثما استطاع وأدرك، محل الإقطاعيين الذى ألغى نظامهم، مع فارق أن الإقطاعيين كانوا رغم استغلالهم الشديد للناس، حاولوا دائماً ألا يهلكوا فلاحيهم، على الأرجح من أجل مصالحهم لكى لا يستنزفوا القوى العاملة، أما اليهودى فلم يكن يعنيه استنفاد ونضوب القوى العاملة الروسية وحصل على ما يبغيه ورحل».

أما فاسيلى شولجين فيقول : «كان مسموحاً لهم بالعيش والتحرك فى فضاء جغرافى محدود يسمى «نطاق الإقامة»(*) إلا أنه كان يفوق بمساحته أية دولة أوربية فيمتد ليشمل بولندا وبيلاروسيا وليتوانيا وروسيا الصغرى كلها. وبفعل ظروف وملابسات تاريخية معينة اقتنع القيصر نيكولاى الأول بأن اليهودى المثقف أقل خطراً، وذلك انطلاقاً من تصور القيصر بأن صفات اليهود السلبية نابعة من غربتهم عن المحيط وانغلاقهم وعزلتهم فى الجيتو اجتماعياً ونفسياً. لذلك سمح لهم بارتداء الثياب المحلية وبحلق شعورهم وبتعليم أطفالهم فى المدارس الروسية العامة. وكان لخريجى الجامعات من اليهود حق التنقل عبر الإمبراطورية الروسية بأسرها، أى أنهم تحرروا عملياً من «نطاق الإقامة» وذلك

(*) انظر الملحق التفسيرى.

على افتراض أن المثقفين اليهود وطليعة التجار سينصهرون في المجتمع الروسي ويكفون عن أن يكونوا بؤرة خطر (...) إن تلك النظرة لدى نيكولاي الأول إلى المثقفين اليهود كانت مكمن الخطر الحقيقي، ذلك أن الطلاب اليهود كانوا مصدر الأذى حين اختلطوا بالشبيبة الروسية وسمموها بأفكارهم مستخدمين خبرة الجيتو التاريخية في التكتم والتخفي والتنظيم السري»[1].

لقد رفض اليهود رفضاً قاطعاً، بل قاموا فكرة الاندماج مع المجتمع الروسي، وفضلوا على ذلك استعباد كافة الأقليات ومعها أيضاً الشعب الروسي بعد تحررهم جميعاً من نظام الرق عام ١٨٦١. وإذا تتبعنا التواريخ التي تشير إلى بداية المشاكل بين اليهود والروس (في روسيا) فسنجد أنها بدأت عام ١٨٧١ كما يذكر ج. بل في أحداث أوديسا، وبعد ذلك عام ١٨٨١، ثم ١٨٨٢. أي أن الروس كانوا قد بدأوا يتذمرون من الاستعباد اليهودي الجديد لهم والذي حل محل الإقطاع، بعد عشر سنوات تقريباً من المعاناة ومحاولة التعايش مع الأقلية اليهودية بسلام. وبناء على ذلك، وكما تقدم، انصرف اليهود إلى عزلتهم المحببة (وكأن الشعب الروسي هو الذي كان يستغلهم أو يحاول عزلهم)، وأحاطوا أنفسهم بأسوار السرية في الجيتو التاريخي. إلا أن الأمر لم يتوقف عند ذلك الحد. فقد بدأت الدول الأوربية في ذلك الوقت (فرنسا وألمانيا على وجه الخصوص) بإعلان حالة التذمر ضد تغلغل نفوذ الأقلية اليهودية في جميع المجالات.

«في ألمانيا عام ١٨٩٣ حصلت الأحزاب المعادية للسامية على ١٦ مقعداً نيابياً في الرايخستاج (٢٥٠ ألف صوت)»[2]، وكان تيودور هرتزل والحركة الصهيونية قد بدءا نشاطهما منذ عام ١٨٦٩ برعاية كل من بسمارك وويلهلم الثاني، حتى إن هرتزل في وقت متأخر نسبياً (عام ١٨٩٨) قد قابل ويلهلم الثاني في القدس بترحاب شديد. فهل نستطيع أن نميز هنا كمية التناقضات التي تمارسها الحركة الصهيونية؟ هذا بالطبع إلى

---

(١) فاسيلي شولجين: ما لا يعجبنا فيهم، صدر في باريس عام ١٩٣٠، وأعيد نشره في موسكو عام ١٩٩٤، انظر أيضاً مجلة «سطور»، فبراير، القاهرة، ١٩٩٨، العدد ١٥، ص ٥٠.
(٢) كرولينكو ف. ج: المؤلفات المختارة، موسكو ١٩٤٨، ص ٦٠٤.

جانب قضية دريفوس التى تفجرت عام ١٨٩٤ واستمرت طوال التحضير للمؤتمر الصيهونى الأول فى ١٨٩٧ وحتى عام ١٨٩٩، واستخدمها اللوبى الصهيونى بمهارة شديدة إلى أن ذاع صيتها فى العالم كله، بل وأصبحت ورقة ضغط ليس فقط على الحكومة الفرنسية، ووصم الشعب الفرنسى بما يسمى بـ«معاداة السامية»، وإنما أيضاً كورقة ضغط ابتزازية ضد حكومات الدول الأوربية وشعوبها.

٣- المؤتمرات الصهيونية

بدأت المشاكل بين اليهود والروس عام ١٨٧١، ثم توقفت لمدة عشر سنوات لتبدأ من جديد فى عام ١٨٨١، وتتكرر فى عام ١٨٨٢. فى نفس الوقت تشير المصادر التاريخية إلى بدء نشاط هرتزل والجيوب الصهيونية عام ١٨٦٩ لإقامة علاقات مع بسمارك وويلهلم الثانى. وعلى محور آخر بدأ الهجوم على حركة التنوير «حسكلاه». فإذا افترضنا أنه بعد إلغاء قانون الرق فى ١٨٦١ وحتى عام ١٨٧١ كانت هناك محاولات رامية لدمج اليهود فى مجتمعهم الروسى، سنكتشف على الفور أن هذه المحاولات قد بدأت تعلن عن فشلها، خاصة وأن الحركة الصهيونية قد بدأت النشاط على محاور أخرى، ومن مصلحتها ألا يتم هذا الاندماج. وخلال عشر سنوات أخرى من عام ١٨٧١ إلى ١٨٨١ (وهنا تكمن أهمية مقالة ديستويفسكى «المسألة اليهودية» التى كتبها فى مارس ١٨٧٧).

كان من المفترض ضرب جميع المحاولات الرامية إلى تحسين حال اليهود فى روسيا أو اندماجهم مع إخوانهم الروس، وكذلك الإفشال التام لجهود حركة حسكلاه التى تعوق المشروع الصهيونى برمته. وهذا ما تم بالفعل حيث بدأ اليهود الروس، وغيرهم من يهود العالم، فى فقدان الثقة بتلك الحركة، ومن ثم الثورة عليها والتخص منها كحركة تنوير ظلت قوية وفعالة لما يقرب من نصف قرن تقريباً. فهل هناك شك الآن فى دور الحركة الصهيونية الوليدة فى إذكاء الفتن بين الروس ومواطنيهم من اليهود؟ هل هناك شك فى أن يهود روسيا (٣ ملايين نسمة) ذاتهم لهم دور فى هذه المشاكل؟ هناك بالطبع احتمالات كثيرة، ولكن الفاصل بين مجمل هذه الاحتمالات، وبين الاحتمال الأقرب إلى الصحة (من خبرتنا التاريخية بتركيبة المجتمعات والجمعيات والمنظمات اليهودية الصهيونية) هو

ما سوف يتحقق بعد عدة أعوام. وأشدد هنا على كلمة يتحقق حتى تصبح الأمور واضحة، وأن المسألة ليست مجرد افتراضات أو استنتاجات نظرية أو وهمية.

على مدى السنوات القليلة (١٨٨٢ - ١٨٩٤) التي مرت بعد مشاكل عام ١٨٨٢، نشطت الحركة الصهيونية فى أوربا حتى أن معظم الشعوب الأوربية قد بدأت تثور ضد سيطرة اليهود على مقدراتها. ولا يخفى على أحد مشاركة الكثير من حكومات هذه الدول فى إذكاء نار الفتنة من ناحية، وإجراء المفاوضات مع هرتزل والحركة الصهيونية من ناحية أخرى. والسبب بطبيعة الحال واضح ومعروف: التخلص قدر الإمكان - وبالضرورة - من اليهود الزائدين عن الحاجة. وكانت قضية دريفوس إحدى الشرارات التى تطايرت بشكل مثير للدهشة والشك معاً، وظلت الحركة الصهيونية مستمرة فى نشاطاتها على محورين:

١ - حشد الإمكانات اليهودية فى العالم وتنظيمها وتوجيهها لخدمة الأغراض الصهيونية.

٢ - التنسيق التام والمستمر مع القوى العظمى والدول الاستعمارية، وبخاصة تلك التى لها مصالح حيوية فى منطقة شرقى المتوسط.

ووسط كل تلك الفتن والمناوشات (حيث حدث أول اشتباك مسلح بين الروس واليهود فى عام ١٨٩٧) استطاع تيودور هرتزل عقد أول مؤتمر صهيونى عالمى فى مدينة بازل السويسرية (٢٩ - ٣١ أغسطس ١٨٩٧). وتأسست رسمياً المنظمة الصهيونية العالمية التى لعبت منذ ذلك الحين دور «الحكومة العالمية» للحركة الصهيونية، ولأغلب يهود العالم المتعاطفين مع هذه الحركة، كما شكلت الإطار العام الذى جهد فى استقطاب مختلف الاتجاهات والتيارات الصهيونية السائدة بين يهود العالم. فماذا جاء فى نص «برنامج بازل» الذى حدد أهداف الحركة الصهيونية؟ لنقرأ ونقارن مع نصوص ومفاهيم ومضامين (بروتوكولات حكماء صهيون):

«تسعى الصهيونية لإقامة وطن للشعب اليهودى فى فلسطين وبحماية القانون العام.

---

(١) الموسوعة اليهودية. المجلد الرابع، ص ٣٠٦.

ويستعين المؤتمر بالوسائل التالية من أجل تحقيق هذه الغاية:

١ ـ حث الفلاحين والمهنيين والمنتجين اليهود على استيطان فلسطين بالوسائل الملائمة.

٢ ـ تنظيم جميع اليهود وتوحيدهم، عبر المؤسسات المحلية والدولية الملائمة على حد سواء، طبقاً لقوانين كل بلد.

٣ ـ تقوية وتدعيم المشاعر القومية اليهودية والوعى القومى.

٤ ـ القيام بخطوات تمهيدية من أجل الحصول على موافقة الحكومات، حيث يكون ذلك ضرورياً، للتوصل إلى غاية الصهيونية»(١).

ولقد ضم المؤتمر الصهيونى الأول ممثلين عن جميع الجاليات اليهودية فى العالم بهدف «رص الصفوف اليهودية، والتوصل إلى تفاهم بين جميع الصهاينة وتوحيد جهودهم...»(١). ومع ذلك فقد كان نجاح الحركة الصهيونية العالمية فى هذا المجال محدوداً، إذ بقيت تجمعات يهودية وصهيونية بارزة خارج إطار المنظمة اليهودية العالمية.

المسألة إذن فى حاجة إلى صياغة مثل تلك التوصيات والقرارات فى شكل ملائم للحالة الروحية (الجيتوية) التى يتصرف بها اليهودى البسيط والمثقف على حد سواء. وما الذى يمنع صياغة مثل هذه القرارات أن تأخذ شكل بروتوكولات فيها الروح العدائية الدموية الموجودة فى كتاب التوارة(*)؟ وما الذى يمنع من تنفيذ ذلك فى خط متواز مع تنشيط المشاكل والاشتباكات بين اليهود ومواطنيهم من أصحاب الدول الأوربية الأخرى وخاصة روسيا (٣ ملايين يهودى)؟ وقعت ثلاثة اشتباكات بين اليهود والروس فى عام ١٨٩٨، بجانب استغلال نتائج محاكمة دريفوس فى فرنسا، ورسالة الكاتب إميل زولا المفتوحة إلى رئيس فرنسا آنذاك بخصوص هذه القضية. وعليه فقد تم عقد المؤتمر الصهيونى الثانى فى مدينة بازل أيضاً عام ١٨٩٨ بقيادة تيودور هرتزل الذى رفع شعار العمل فى أوساط الشتات لمواجهة أخطار الاندماج الذى يهدد أعداداً كبيرة من جماعات اليهود فى أوربا

---

(١) المصدر السابق، المجلد السادس عشر، ص ١١٦٤.

(*) انظر الملحق التفسيرى.

(وهاهى واحدة من النتائج التى افترضناها نظرياً فى بداية حديثنا).

وقرر هذا المؤتمر تأسيس «صندوق الاستيطان اليهوى». وفى عام ١٨٩٩ وقع اشتباكات بين اليهود والروس، وتم عقد المؤتمر الصهيونى الثالث فى بازل أيضاً حيث استمع المؤتمرون إلى تقرير هرتزل عن اتصالاته ولقاءاته مع إمبراطور ألمانيا ويلهلم الثانى، وذلك ضمن مخططه الهادف إلى الحصول على «الميثاق» الدولى الذى يضمن تحقيق أهداف الصهيونية. (نود الإشارة هنا إلى أننا عندما نربط تواريخ إقامة المؤتمرات الصهيونية بتواريخ اشتباكات أو اعتداءات اليهود على الروس، فهذا لا يعنى أبداً قصر الأسباب وارتباطها المباشر، وإنما يعنى بالدرجة الأولى أخذ ذلك فى الحسبان ولا سيما أن عدد اليهود فى روسيا آنذاك قد وصل إلى ما يقرب من ٣ ملايين نسمة).

وبشكل عام تم عقد المؤتمرين الرابع (فى لندن ١٩٠٠) والخامس (فى بازل ١٩٠١). بعد هذا الأخير تحديداً تم تأسيس الصندوق القومى اليهودى(*) الذى يُعد أهم الإنجازات الأساسية لهذا المؤتمر (حيث افتتح «مكتب فلسطين»(*) فى يافا عام ١٩٠٧م بعد المؤتمر الصهيونى الثامن فى لاهاى لمساعدة المهاجرين وشراء الأراضى وإنشاء مدينة كلها من اليهود تسمى تل أبيب عام ١٩٠٩. ثم إنشاء أول مستوطنة زراعية جماعية «كيبوتز» عام ١٩١٠). وفى عام ١٩٠٣ عقد المؤتمر الصهيونى السادس الذى مثّل التعبير الصاخب عن الخلافات الحادة داخل ا لحركة الصهيونية، ومطالبة البعض بالموافقة على «حلول مؤقتة» كمشروع العريش ثم مشروع أوغندا الذى نال موافقة المؤتمر بأغلبية ٢٩٥ صوتاً مقابل ١٧٨ صوتاً وامتناع ٩٨. وبعد مضى سنة تقريباً مات هرتزل.

لن نستمر فى سرد تواريخ وملابسات المؤتمرات الصهيونية وتسليط الضوء على توصياتها التى من السهل العودة إليها فى الكتب والمراجع. والموسوعة اليهودية نفسها. وبالتالى يمكن ببساطة مقارنة هذه التوصيات بما جاء فى بروتوكولات حكماء صهيون. وسوف نكتشف حجم الإنجازات التى تمت سواء من التوصيات (الصيغة السياسية للبروتوكولات)، أو من البروتوكولات (البرنامج الروحى-العقائدى)، الأمر الذى سوف

(*) انظر الملحق التفسيرى.

يضعنا أمام حقيقة خالصة: لمصلحة من بالفعل كتابة مثل هذه البروتوكولولات سوى اليهودية الصهيونية؟ ومن غيرهم كتبها - إذا افترضنا جدلاً - وقام بتنفيذ مجمل ما جاء بها؟ ومن تحديداً في اجتماعاته ومؤتمراته صاغ القرارات والتوصيات المطابقة لنصوص هذه البروتوكولات؟...

٤- بروتوكولات حكماء صهيون[١]

يقول ميخائيل جورتشاكوف في مقدمته لطبعة ١٩٩٦ الروسية من «بروتوكولات حكماء صهيون»: «انكشف هذا السر تماماً في بداية هذا القرن عندما قام أ. س. نيلوس بنشر بروتوكولات حكماء صهيون. في تلك البروتوكولات تمت صياغة البرنامج المنظم لاستيلاء اليهود على العالم».

وفي عام ١٩٠١ كتب نيلوس مقالة بهذا الخصوص قدَّم بها - مع بعض الإضافات - للطبعة الثانية من البروتوكولات التي صدرت عام ١٩١١ قال فيها: «... الشخص الذي نقل إليّ هذه المخطوطة يؤكد أنها تمثل نسخة الترجمة الدقيقة للأصل الذي استولت عليه سيدة من أوراق أحد أهم الشخصيات القيادية وأكثرها قداسة بين الماسونيين الفرنسيين(*) وذلك بعد أحد الاجتماعات السرية في فرنسا.. المخطوطة بعنوان «بروتوكولات حكماء صهيون».. ونشرت لأول مرة عام ١٩٠٥ بالطبعة الثانية لكتابي «ضخامة القلة ومعاداة المسيح كإمكانية سياسية وشيكة». وعندما اندلع الحريق الروسي الكبير[٢] المسمى «بحركة التحرير» إلى ذروته، فقد أكد ثقتنا القوية والواضحة في كون هذه البروتوكولات أصلية وغير مزورة. ويعلم الله كم أمضيت من سنوات وبذلت من جهود لتحقيق هذه

---

(١) نعتمد في هذا الجزء على طبعة «بروتوكولات حكماء صهيون» الصادرة بالروسية عام ١٩٩٦ عن دار نشر «فيتاز» بموسكو. قدم لها ميخائيل جوتشاكوف. أما كلمة النهاية في هذه الطبعة فهي عبارة عن مقال مهم لهنري فورد يتناول فيه البروتوكولات بالتحليل. وقد تمت الإشارة في نهاية المقدمة إلى أن نص البروتوكولات الوارد في هذه الطبعة مطابق تماماً للطبعة الثانية التي صدرت عام ١٩١١ عن مطبعة (سفيتو - ترويتسكايا) بمعرفة أ. س. نيلوس.

(*) انظر الملحق التفسيري.

(٢) الاعتداءات اليهودية المسلحة على الروس، وخاصة في أوديسا، أثناء ثورة ١٩٠٥، وكذلك استنفار اليهود في أوربا. (المترجم).

المخطوطة» (ص ٥٢ - ٥٣).

صدرت الطبعة الأولى بعد التحقيق عام ١٩٠٥، والثانية عام ١٩١١، أما الثالثة ففى عام ١٩١٧، ولكنها لم تر النور حيث قامت اللجان الثورية بمصادرتها من مطبعة «سفيتو - ترويتسكايا» لصاحبتها لافريا سيرجيفسكايا. (مصادرة اللجان الثورية للبروتوكولات موضوع غاية فى الأهمية، لأن السبب تحديداً عائد إلى برنامج الثورة بخصوص المسائل القومية، ولهذا السبب بالذات أخذ اليهود موقفاً فى غاية الدناءة من الثورة الاشتراكية فى روسيا).

وفى كتابه «اليهودية العالمية»، كتب الملياردير الأمريكى المعروف هنرى فورد (١٨٦٣ - ١٩٤٧) قبل وفاته: «بالمناسبة، فقد كتب هيرمان بيرنشتاين: (منذ عام تقريباً عرض علىّ موظف بوزارة العدل صورة مخطوط لواحد يدعى نيلوس بعنوان «الخطر اليهودى»، وطلب منى أن أدلى برأيى. وقال لى إن هذه المخطوطة تمثل ترجمة لكتاب روسى صدر عام ١٩٠٥. ومن الواضح أنها كانت «بروتوكولات حكماء صهيون» التى اطّلع عليها الدكتور هرتزل - كما يؤكدون - فى المؤتمر السرى للصهاينة فى بازل. وقال لى الموظف: إنه يرى أن الدكتور هرتزل نفسه هو كاتب هذه المخطوطة» (ص ٩٢).

وفى نفس الكتاب يقول هنرى فورد: «إن انتشار البروتوكولات فى الولايات المتحدة يمكن تفسيره بأنها تلقى الضوء وتعطى القيمة للحقائق المعروفة التى تم رصدها حتى فى الماضى. وهذا بالذات ما يعطى تلك الوثيقة أهميتها العظمى، وأصليتها على الرغم من عدم وجود توقيعات» (ص ٩٤)... «إن الكذب لا يعيش طويلاً. وبالطبع فقد كان من الممكن أن تمتلك هذه البروتوكولات أهمية قصوى فى حالة إذا ما كان عليها توقيع كاتبها. ومع ذلك فهى بدونه لا تقل أهمية أيضاً مثل أية لوحة غير موقعة من صاحبها» (ص ٩٥). خاصة وأن وضع توقيع الكاتب، أو الإعلان عن الجهة التى لها مصلحة فى إصدار مثل هذه الوثيقة، كان من شأنه أن يفسد الكثيرمن أهدافها، ويفسد العلاقات بين الحركة الصهيونية والعديد من الحكومات الأوربية التى كانت تساندها وتدعمها.

يقول هنرى فورد فى نفس الصفحة: «إنه حتى من الأفضل أن مصدر هذه

البروتوكولات غير معروف. وإذا كان من الممكن إثبات أن مجموعة من الأمميين اليهود قد قامت بكتابة هذا البرنامج عام ١٨٩٦ في فرنسا أو سويسرا بأحد مؤتمراتهم السرية، معنى ذلك أنه قد جاء الوقت لبرهنة أن هذا البرنامج صادر عنهم فعلاً لم يكن من قبيل المزاح وإنما بالفعل قد انطوى على رغبة حقيقية وإرادة تبريرية لتحقيقه على أرض الواقع. إن البروتوكولات ذاتها. والأهم بالنسبة لنا نحن الأمريكيين ليس من الذى صاغ هذه البروتوكولات: مجرم أم مجنون، فالمهم هو أنه عندما تمت صياغتها، وجدت مصادر التمويل والوسائل الأخرى التى مكنتها من التحقق فى الواقع العملى».

أما المدفعية اليهودية الموجهة لتدمير «البروتوكولات»، وإثبات تزويرها، فقد تمثلت فى كتاب يو. ديليفسكى الذى صدر عام ١٩٢٣ فى برلين بعنوان «بروتوكولات حكماء صهيون». وفى محاولة من ديليفسكى لإخفاء حقيقة مصدر البروتوكولات جعل رجل الدين الروسى، المسيحى، أنطون فلاديميروفيتش كارتاشوف يكتب مقدمة الكتاب ليدحض كون البروتوكولات مكتوبة بأيدى الصهيونية العالمية. وأنهى الأب أنطون مقدمته الجليلة بسعادة غامرة لنيل الكنيسة الروسية صك الغفران والإفلات من تهمة ما يسمى بـ«معاداة السامية»، ومطاردة قبيلة الرب المضطهدة.

إن كتاب ديليفسكى نفسه اعتمد برهاناً مدهشاً لنفى مصدر البروتوكولات، حيث قام المؤلف باقتباس مواضع معينة من الأدب اليهودى - الصهيونى الذى تنطوى على بعض المعانى والدلالات المتفقة مع البروتوكولات، وحتى التى تتوافق وتتطابق معها على مستوى النص. وفى نهاية الأمر اختار وثيقة بعنوان (ديالوجات) لموريس جولى. وبالفعل فهذا «المستند» يتضمن الكثير من المواضع المتطابقة حرفياً مع نصوص البروتوكولات، بل وبعض الفقرات الكاملة - الفارق جعل موريس جولى، ميكيافيللى يتحدث على لسان نابليون الثالث. من هذا التطابق الذى لا شك فيه لـ (ديالوجات) التى كتبت فى ستينيات القرن التاسع عشر مع البروتوكولات، أثبت ديليفسكى أن البروتوكولات مجرد سطو وانتحال للديالوجات، ولم يكتبها اليهود الصهاينة كبرنامج للاستيلاء على العالم.

فى واقع الأمر، لم يكن هناك أى سطو أو انتحال، أو حتى تزوير، كل ما فى الأمر هو التوقيت المختلف لاستخدام نفس المصدر أو الوثيقة - البروتوكولات، تلك الأسرار الإلهية

المقدسة التى خص الله بها اليهود. وعموماً فقد كان موريس جولى ينتمى إلى الحركة الماسونية الفرنسية السرية، وبالتالى فقد كان مُطّلعاً على جميع البرامج السرية لإنقاذ البشرية. وبشكل أو بآخر فقد كان معظم الكتاب اليهود الفرنسيين تحديداً مطلعين مسبقاً على هذا البرنامج الأمر الذى جعل كلاً منهم يستعين أو يستشهد ببعض فقراته، وليس العكس. بمعنى أن البروتوكولات سابقة على الاقتباسات التى جاءت بعد ذلك مطابقة لها. ومن ناحية أخرى فحتى لو كانت البروتوكولات تالية لتلك الاقتباسات، فلا شك أنها قد تأسست عليها، وهى - أى الاقتباسات - زبدة فكر هذه البروتوكولات من أجل تخليص العالم من رجسه وخطاياه بتعذيبه والانتقام منه. وهذا فى حد ذاته برهان أكيد (بصرف النظر عن أيهما أسبق) على الوجود الدائم لمثل تلك البرامج والبروتوكولات التى أثبت الواقع العملى - تاريخياً - صحة نسبها إلى اليهود تحديداً وليس إلى غيرهم. فهل هناك شك فى أن الـ (٢٤) بروتوكولاً تتحقق تباعاً؟ أم أن هناك مصادفات تلعب دورها فى تحقيقها عملياً على أرض الواقع؟!

يقول هنرى فورد: «ليس المهم من الذى حصل على البروتوكولات ونشرها، ولكن المهم أن البرنامج الصهيونى المنشور عام ١٩٠٥ قد تحققت الأجزاء الرئيسية منه خلال العشرين سنة التى تلت نشره لأول مرة».

إن الأسئلة السابقة تطرح نفسها تلقائياً بمجرد أن يظهر ولو رأى واحد يشكك فى كتابة الحركة الصهيونية لبروتوكولات حكماء صهيون. وبالطبع فالسؤال المتوقع من الباحثين الأكاديميين الجادين هو أن هناك فرقاً بين مخطوطة أو وثيقة تاريخية موقعة ومعلن عنها، وبين مجموعة من النصوص التى جمعت بطريقة ما وليست موقعة أو معلن عنها. وسيقولون أيضاً إننا نناقش فقط: هل كتب الصهاينة هذه الوثيقة أم لا، وليست لنا علاقة بالمسائل الأخرى. ولكننى أعتقد أن البحث الأكاديمى الدوجمائى قد ذهب عصره بلا رجعة، وحالياً توجد طرق ومناهج عديدة - أكاديمية - لإثبات هذه البديهيات.

٥- قاعدة النقيضين

نشرت البروتوكولات لأول مرة عام ١٩٠٥ فى روسيا (لا نقول هنا إنها كتبت فى

روسيا عام ١٩٠٥، لأن المصادر التاريخية المتعاطفة مع الحركة الصهيونية لم تستطع أن تثبت أنها كتبت تحديداً فى روسيا. ولكنها بناء على عملية النشر الأولى حاولت أن تثبت أن البوليس السرى القيصرى هو المصدر، وكان هدفه ضرب الحركة الاشتراكية وإحكام القبضة على اليهود المتآمرين سواء خارج أو داخل الحركة الاشتراكية، ولنترك جانباً الرأى الساذج القائل إنها تهدف إلى اضطهاد اليهود المساكين فى أنحاء العالم).

وفى عام ١٩٢١ حاول جريفس ومن بعده كوكس إثبات أن الذين كتبوا البروتوكولات قد استعانوا بفقرات من الأدبيات اليهودية لتلفيق هذه البروتوكولات واستنفار العالم ضد اليهود. وفى عام ١٩٢٣ قام ديليفسكى بنفس المحاولة (ولكن بذكاء شديد يعتمد على المنطق المعكوس والوقاحة المنقطعة النظير حين أطلق على كتابه عنوان «بروتوكولات حكماء صهيون» ساخراً بذلك من الجميع) مستعيناً بمخطوطة «ديالوجات» لموريس جولى، وهى نفس المخطوطة التى استعان بها كل من جريفس وكوكس.

ولكن إذا استخدمنا قاعدة النقيضين فلسوف يتأكد لدينا العكس،أى صدق كلام نيلوس وهنرى فورد، وتنبؤات ديستويفسكى، ويتأكد أن مصدر كتابة البروتوكولات، ليس إطلاقاً البوليس القيصرى الروسى أو أى أحد آخر سوى رموز الحركة الصهيونية العالمية.

أما فى حالة فشل قاعدة النقيضين فى زحزحة الحركة الصهيونية والمتعاطفين معها فى الرأى، فسوف يكون الحكم ببساطة للواقع العملى تاريخياً وسياسياً. وليس هناك أبسط من مواجهة توصيات وقرارات المؤتمرات الصهيونية بنصوص البروتوكولات من ناحية، وبالفقرات الكاملة من كتاب التوراة التى تشكل صلب البروتوكولات نفسها (وأعتقد أن البوليس السرى القيصرى أو حتى الفلسطينى لم يقوما بكتابتها) من ناحية ثانية، وبما تحقق من عام ١٩٠١ تحديداً - وإلى وقتنا هذا - فى الواقع العملى بالنسبة للحركة الصهيونية الإسرائيلية من ناحية ثالثة.

«المسألة اليهودية» لـ ديستويفسكى

لعل فصل «المسألة اليهودية» الذى كتبه فيدور ميخائيلوفيتش ديستويفسكى فى «يوميات كاتب» من أهم الوثائق التاريخية / الأدبية فى التركة العظيمة لهذا الكاتب العبقرى رغم الاختلافات الكثيرة حوله، وحول إبداعاته وتوجهاتها. وبالبحث فى المكتبة المركزية الروسية - مكتبة لينين سابقاً - عثرنا على نسخة من طبعة أ. ف. ماركس - سانت بطرسبورج - لعام ١٨٩٥ باللغة الروسية القديمة، ووجدنا «المسألة اليهودية» تمثل الفصل الثانى من «يوميات كاتب» عن شهر مارس ١٨٧٧، ويقع فى الجزء الأول من المجلد الحادى عشر بالأعمال الكاملة.

وقد نُشرت تلك اليوميات فى مقالات بملحق مجانى لمجلة «نيفا» عام ١٨٩٥ . أما الكتاب نفسه فقد أجازته رقابة سانت بطرسبورج فى ٢٣ يونيو ١٨٩٥ .

وإذا كان يبدو أننا هنا نتبع منهجاً رياضياً فى دقته بالنسبة لتحديد التواريخ والأسماء، فالسبب يعود إلى عوامل كثيرة مهمة وجدية وإن كانت غير جديدة بالنسبة لآثار العظماء بداية من وليم شكسبير حتى العديد من كتابنا ومؤرخينا الكبار، مروراً بعظماء آخرين من أمثال تورجينيف وشولجين وبلينسكى وجونتشاروف وحتى بوريس باسترناك الذى رفض جائزة نوبل عن قناعة شخصية، وأكد ذلك باعتناقه الديانة المسيحية «الأرثوذكسية» بمحض إرادته.

إن مقالة «المسألة اليهودية» تحديداً لم تظهر إلى النور بعد عام ١٨٩٥ فى أى من الطبعات التالية لطبعة أ. ف. ماركس المشار إليها. وقد ظهرت فقط بعد ٩٩ عاماً بالضبط، أى فى عام ١٩٩٤، فى كتيب صغير الحجم ضم مقالات أخرى وملخصات لكتب - كانت ممنوعة أو مهملة عمداً - من أهمها ملخص لكتاب فاسيلى شولجين «ما لا يعجبنا فيهم» عن دار نشر «فيتاز». وتكررت نفس الطبعة عام ١٩٩٥ (أى بعد مائة عام بالتمام والكمال) عن نفس الدار، وحتى الآن لم تظهر بعد ضمن الأعمال الكاملة بصورتها التى كتبها ديستويفسكى. ويمكننا أن ندرك ظروف وملابسات المنع وأسبابه من خلال قراءتها. مع العلم بأن الفترة التى كُتبت فيها كانت مليئة بأحداث تاريخية مهمة انعكست فى مجملها على بعض الأعمال الإبداعية عند تورجينيف على سبيل المثال فى قصة «اليهودى» (١٨٤٦)، وعند تشيخوف فى قصة «كمان روتشيلد»(*) (١٨٩٤)، وأدت على نحو ما - إلى جوار أسباب وأحداث أخرى كثيرة - إلى مشاكل بين الروس واليهود، فى روسيا، بداية من عام ١٨٩٧ حتى عام ١٩٠٦، قادت فى جزء منها إلى انعقاد المؤتمر الصهيونى الأول عام ١٨٩٧، ثم إلى ثورة ١٩٠٥ .

أما الأمر الذى لفت انتباهنا إلى هذه الوثيقة التاريخية / الأدبية المهمة، فهو تلك الموجة الجديدة - بعد انهيار الاتحاد السوفييتى - التى حملت معها تغيرات جذرية فى مجمل

(*) نص القصة ملحق (٣).

العلاقات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وتحديداً في العلاقات القومية والإثنية والدينية لشعوب روسيا الكثيرة. إننا هنا لسنا بصدد تحليل أو حتى إلقاء الضوء على ظروف وملابسات هذه الوثيقة، ولكن حركة القوميين الروس بعد انهيار الاتحاد السوفييتي هبت من رقدتها بشكل مثير للانتباه. وعلى الرغم من شراستها لا يمكن إطلاقاً اتهامها بذلك المصطلح الابتزازي المسمى بـ«معاداة السامية». لأنه مع سقوط وتحلل الاتحاد السوفييتي طفت على السطح نزاعات وصراعات دينية وقومية وإثنية، وجد الروس أنفسهم معها في وضع خطير. فهم فعلياً لا يملكون في هذه الصراعات والنزاعات ناقة ولا بعيراً، لأنهم بطبيعتهم شعب متسامح ليست لديه أية رواسب قومية أو دينية، وليست لديه أية تعصبات قبلية أو إثنية أو انفعالات متطرفة ضد أي من الأقليات الموجودة في روسيا. ولكن تدني الأحوال الاقتصادية والاجتماعية، وانهيار أحلام الرخاء والوعود البراقة بالازدهار والثراء قد ولّت مثل أشياء كثيرة أخرى، وظهرت على الساحة نزاعات قبلية وطائفية (كان البعض منها خاملاً وغير فعال حيث تمكنت السلطة السوفييتية من التعامل معه وإدارته بشكل يضمن القضاء عليه تدريجياً، والبعض الآخر كان مستتراً وهو الجزء الذي تم استغلاله بعد رفع شعارات البيريسترويكا ليحدث ما يحدث في السنوات الأخيرة، ونراه عبر وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة) من الأقليات، الشيء الذي دفع مجموعات ودوائر القوميين الروس - وهم قلة، ولكنها فعالة جداً، بل تمثل جزءاً لا يستهان به من الإنتلجنسيا الروسية عميقة الثقافة - إلى التعامل مع هذه المشاكل على طريقتها. ولما كان اليهود في روسيا، قبل قيام الاتحاد السوفييتي، قد استطاعوا أن يلعبوا لعبتهم الشهيرة ويسيطروا على مجمل المجالات الحيوية مثل الاقتصاد والإعلام (راجع كتاب فاسيلي شولجين «ما لا يعجبنا فيهم» الذي صدر في فرنسا عام ١٩٣٠، وفي روسيا لأول مرة عام ١٩٩٤) فقد جاءت ثورة ١٩١٧ لتزيح تماماً العامل القومي - القبلي، ونجحت بالفعل في ذلك، إلا أنه بمجيء سياسة البيريسترويكا، ثم انهيار الاتحاد السوفييتي وقيام روسيا الاتحادية - الجديدة، ظهر اللوبي الصهيوني(*) مرة أخرى أقوى

(*) انظر الملحق التفسيري.

وأمكر، فسيطر تماماً على البنوك ووسائل الإعلام، وبالتالي ـ بديهياً ـ على السلطة، ووجد الروس أنفسهم مرة أخرى في ذيل القائمة يتسولون على محطات المترو ويتجرعون الفودكا في الحوارى والأزقة المظلمة، مع إصرار وسائل الإعلام ـ التى يملكها جميعاً المليارديرات اليهود ـ على تصوير الروس الجدد بأنهم واجهة المجتمع الروسى، ولا يخفى على أحد أن معظم هذه الواجهة، إن لم يكن كلها من اليهود، أما الروس منهم فهم إما يعملون بأموال وتوجيهات اللوبى الصهيونى، أو يقومون بغسل أموال المافيا الروسية الشرسة.

نعود فنكرر إن هذه الهجمة الصهيونية الشرسة التى لا تتردد فى الإفصاح عن ذلك والمجاهرة به، والفخر أيضاً بكل إنجازاتها فى تخريب كل شىء بروسيا، قد كتلت ضدها تياراً لا يقل عنها سوءاً، وهو تيار القوميين الروس المتطرفين أيضاً. فقاموا منذ بداية التسعينيات بإصدار كتب ومطبوعات كثيرة عن الماسونية والصهيونية وبروتوكولات حكماء صهيون، وأحيوا النعرة القومية والقبلية. وما يهمنا فى كل ذلك هو قيام التيار القومى الروسى المتطرف بإصدار هذا الفصل من يوميات ديستويفسكى مشوهاً، وانتزعوا منه خمس صفحات كاملة (أشرنا إليها فى هوامش مع الترجمة الكاملة من النسخة الأصلية) بل وسمحوا لأنفسهم بإزالة أقواس ووضع أخرى فى أماكن مختلفة. ومع ذلك يبقى كل هذا مجرد رد فعل متطرف على توجهات وسلوكيات أكثر تطرفاً فى ظل ظروف اقتصادية واجتماعية متدنية، ويبقى أيضاً ديستويفسكى كما عرفناه بتناقضاته وإشكالياته الشخصية والفنية والتاريخية. والأهم من هذا وذاك هو إمكانية الحصول على الوثيقة فى آخر طبعاتها قبل المنع. ولتكن هذه الوثيقة إحدى زوايا النظر إلى عبقرية ديستويفسكى الفذة، رغم ما يتعرض له من حقد شديد وخاصة من جانب اليهود، واحتقارهم لأعماله. ولكن الحكم الأخير للتاريخ وللناس على ديستويفسكى وشكسبير وتورجينيف وباسترناك وجونتشاروف وبلينسكى وشولجين يبقى هو الأساس حيث لا محل هنا للأحقاد الشخصية أو القبلية، أو إطلاق ألفاظ ومصطلحات ابتزازية مثل «معادة السامية»!

وعلى الرغم من مرور أكثر من مائة عام على تلك الوثيقة، فهى تبدو بالفعل كما لو

كانت قد كُتبت منذ عهد قريب، وربما الآن، وكأن ديستويفسكي كان يرى كل شيء عبر الزمن، عبر مائة عام، عبر قيام إمبراطوريات وانهيار أخرى. إنها وثيقة ديستويفسكية أدبية، ربما تكون عاطفية نسبياً، ولكنها على كل حال تظل تمتلك قيمتها التاريخية / الإنسانية.

(١) المسألة اليهودية

لا تعتقدوا بأننى أغامر فعلياً بإثارة «المسألة اليهودية» ! لقد كتبت هذ ا العنوان على سبيل الدعابة، لأنه ليس فى طاقتى فتح قضية ضخمة مثل وضع اليهود فى روسيا التى تمتلك بين أبنائها ثلاثة ملايين يهودى. هذا الأمر ليس بمقدورى، إلا أننى مازلت أمتلك رأياً ما. ويبدو أن بعض اليهود قد أصبحوا فجأة مهتمين برأيى. منذ فترة وجيزة بدأت أتلقى منهم رسائل يوجهون إلىّ فيها اللوم بجدية ومرارة لأننى أهاجمهم[١]، وأننى «أكره اليهودى»[٢] ليس بسبب رذائله، «ليس كمستغل»، وإنما تحديداً كأصل، أى كما درج عليه القول إن: «يهوذا هو الذى خان المسيح». يكتب ذلك يهود «متعلمون»، أى من هؤلاء الذين (لاحظت ذلك، لكننى لا أود إطلاقاً تعميم ملاحظتى، مع التحفظ مسبقاً) يحاولون دائماً إعطاءنا تصوراً بأنهم مع تعليمهم قد أصبحوا منذ زمن بعيد لا يشاركون أمتهم «أباطيلها»، ولا يؤدون الطقوس الدينية مثل الآخرين من اليهود البسطاء، ويرون ذلك أدنى من مستوى ثقافتهم، علاوة على زعمهم بأنهم لا يؤمنون بالرب. وأشير هنا، بالمناسبة، بين قوسين إنه من الإثم على جميع هؤلاء السادة من «علية اليهود» الذين يناضلون هكذا من أجل أمتهم أن ينسوا ربهم يهوا ذا الأربعين قرناً ويتخلوا عنه. وذلك بعيد تماماً عن كونه إثماً يخص فقط المشاعر القومية، وإنما لأسباب أخرى ذات بعد عميق للغاية. إنه لأمر غريب: يهودى بدون رب شىء ما غير مفهوم. يهودى بدون رب أمر يستحيل تصوره. لكن ذلك من الموضوعات الواسعة، لذا سندعه مؤقتاً. إن كل ما يثير دهشتى أكثر من أى شىء هو: كيف، ومن أين، وقعت فى زمرة الكارهين لليهود كشعب، وكأمة؟ فنفس هؤلاء السادة يسمحون لى جزئياً بإدانة اليهودى كمستغل، واستنكار بعض عيوبه ورذائله، ولكن هذا مجرد كلام: ففى الواقع أنه من الصعب إيجاد من هو

(١) الأقواس موجودة فى طبعتى ١٩٩٤، ١٩٩٥ ولكنها غير موجودة فى طبعة ١٨٩٥.

(٢) لم يكتب ديستويفسكى هناك كلمة يهودى بالروسية، ولكنه استخدم كلمة «جيد» بتعطيش الجيم المأخوذة بدورها من الكلمة الإنجليزية "Judas" التى تقال عادة فى روسيا لتحقير اليهود.

أكثر تدقيقاً وتهيجاً وغضباً من اليهودى المثقف كيهودى. ومع ذلك، فمرة أخرى: متى وكيف صرّحت بالكره لليهودى كإنسان؟ إن قلبى لم يعرف قط ذلك الكره، ويعرف هذا البعض من أولئك اليهود الذين تعرّفوا إلىّ وكانوا معى فى علاقات، ومنذ البداية، وقبل أية كلمة، أبعد عن نفسى هذا الاتهام مرة واحدة وإلى الأبد كى لا أتذكر أى شىء عن ذلك بعد الآن. فهل حقاً يتهموننى بـ«الكراهية» لأننى أسمى اليهودى أحياناً «چيد»؟ لكننى، أولاً، لا أعتقد أن ذلك مهين، وثانياً فكلمة «چيد» على ما أذكر كنت أنوّه بها دائماً للإشارة إلى فكرة سائدة: «يهودى، يهودية، مملكة اليهود»[1] وخلافه. وهذا ما أطلق على ما هو معروف من مفاهيم واتجاهات وصفات فى هذا العصر. ويمكن مناقشة هذه الفكرة، بل وعدم الاتفاق معها، ولكن من غير الممكن أن تكون الكلمة سبباً للإهانة. وسأورد جزءاً من رسالة أحد المثقفين اليهود الذى كتب إلىّ رسالة طويلة ورائعة فى أشياء كثيرة تهمنى للغاية.. وهذا أحد أهم الاتهامات الخاصة لى بكراهية اليهودى كإنسان. وبديهى أن اسم السيد ن. ن.، الذى كتب إلىّ الرسالة سوف يظل طى الكتمان.

«... ولكننى نويت تناول أحد الموضوعات التى لا أستطيع تفسيرها لنفسى إطلاقاً، وهو كراهيتكم للـ«چيد» التى تظهر تقريباً فى كل فصل من «يومياتكم». وكم أود معرفة لماذا تقفون ضد الـ«چيد» وليس ضد المستغل بشكل عام. إننى لا أقل كراهية عنكم تجاه خرافات وأباطيل أمتى - فما عانيته منها لم يكن قليلاً - لكننى لن أوافق أبداً إنه فى دماء هذه الأمة يجرى استغلال بلا ضمير. هل حقاً لا يمكنكم التوصل إلى القانون الأساس لأية حياة اجتماعية حيث جميع مواطنى الدولة الواحدة دون استثناء، لو قاموا بجميع واجباتهم اللازمة لوجود الدولة، يجب أن يتمتعوا بجميع الحقوق والمنافع، كما يجب أن يكون هناك إجراء عقابى واحد وعام للجميع، لمن يخالفون القانون، ولأعضاء المجتمع المضرين؟.. إذن فلماذا يجب أن يكون جميع اليهود مُنتقصين فى حقوقهم، ولماذا يجب أن تُسن من أجلهم قوانين تأديبية خاصة؟ وما وجه الأفضلية فى استغلال الأجانب (إذ إن

---

(١) استخدم ديستويفسكى هنا التسمية الشعبية السائدة «چيد». وبهذه الفقرة تم اختتام الجزء الأول من المقال فى طبعتى ١٩٩٤، ١٩٩٥، وما سيأتى بعد ذلك موجود فعلياً فى النص الأصلى، وذلك حتى بداية الجزء الثانى

اليهود على كل حال من الرعايا الروس) : الألمان والإنجليز واليونانيين الموجودين بتلك الكثرة في روسيا عن الاستغلال اليهودي[1]؟ وما أفضلية مالك الأرض الأرثوذكسي الروسي والمستثمر والبائع أو جابي الإتاوات ومصاص الدماء الموجودين هكذا بكثرة في روسيا كلها عن أمثالهم من اليهود[2] الذين على كل حال يعملون في دائرة محدودة. ما أفضلية هذا عن ذاك.

(هنا يقارن صاحب الرسالة الموقر بعض ملاك الأرض الروس المعروفين بأمثالهم من اليهود، بمعنى أن الروس لا يقلون في ذلك. ولكن على أي شيء يدلل هذا؟ فنحن لا نتفاخر بملاكنا الروس، ولا نضعهم مثلاً للاقتداء، بل على العكس فنحن نتفق بدرجة عالية أن هؤلاء وأولئك سيئون).

«ويمكنني أن أطرح عليكم الآلاف من هذه الأسئلة.

إنكم عندما تتحدثون عن الـ«جيد» تسحبون هذا المفهوم على كل الجماهير الفقيرة بشكل فظيع للثلاثة ملايين يهودي من السكان في روسيا، والذين من بينهم ٢٩٠٠٠٠٠ على الأقل يخوضون نضالاً يائساً من أجل وجودهم الذليل، والذين هم أطهر أخلاقاً ليس فقط من القوميات الأخرى، وإنما أيضاً من الشعب الروسي الذي تؤلهونه. إنكم تُضمّنون في تلك التسمية ذلك العدد الموقر من اليهود الذين حصلوا على تعليم عال، والذين يتمايزون في جميع ميادين حياة الدول. خذوا ولو...

(يورد مرة أخرى هنا بعض الأسماء التي أرى أنه لا يحق لي ذكرها هنا باستثناء جولدشتاين، وذلك ربما يكون كريهاً للبعض منهم أن يقرأوا أنهم من أصول يهودية).

جولدشتاين (الذي مات ببطولة في الصرب من أجل الفكرة السلافية)، وعمل لصالح المجتمع والبشرية؟ إن كراهيتكم للـ«جيد» تمتد حتى إلى دزرائيلي(*) الذي ربما لا يعلم هو نفسه أن أجداده في زمن ما كانوا يهوداً إسبان، والذي لا يقود بالطبع الآن السياسة

---

(١) كاتب الرسالة يستخدم أيضاً الصفة من كلمة «جيد».

(٢) يستخدم أيضاً جمع كلمة «جيد».

(*) انظر الملحق التفسيري.

الإنجليزية المحافظة من وجهة نظر «چيد»؟... للأسف أنتم لا تعرفون الشعب اليهودى ولا حياته ولا روحه ولا تاريخه ذا الأربعين قرناً فى النهاية، للأسف، لأنكم على كل حال إنسان مخلص وشريف جداً، ولكنكم تلحقون الضرر دون وعى منكم بجماهير غفيرة من الشعب الفقير - أما الـ «چيد» الأقوياء باستقبالهم أقوياء هذا العالم فى صالوناتهم، فلا يخشون بالطبع لا الصحافة، ولا حتى الغضب العاجز للمستغلين. ويكفى الكلام حول هذا الموضوع! فمن المشكوك فيه أن أقنعكم بوجهة نظرى - وكم كنت أتمنى أن تقنعونى أنتم».

هذا هو الجزء المقتطف. وقبل أن أجيب بشىء ما (إذ إننى لا أود أن أتحمّل تبعة مثل هذا الاتهام الخطير) - أوجه الاهتمام إلى ضراوة الهجوم ودرجة الحساسية. فطوال عام من صدور الـ «يوميات» لم تكن لدى إطلاقاً مقالة بهذا الحجم من الضراوة والحساسية ضد الـ «چيد»، والتى كان يمكنها أن تستدعى قوة الهجوم هذه. وثانياً، من المستحيل إغفال أن المرسل الموقر الذى تناول الشعب الروسى فى سطوره القليلة تلك، لم يحتمل ولم يتماسك فأخذ يتعامل مع الشعب الروسى المسكين باستعلاء وغطرسة أكثر من اللازم. وفى الحقيقة، ففى روسيا ومن الروس لم يتبق مكان واحد لم يُلصق عليه (كلمة شيدرين)، أما لليهودى فكل شىء «مغفور». وعلى أية حال فهذه القسوة تفصح بوضوح عن كيف ينظر اليهود ذاتهم إلى الروس. لقد كتب هذا بالطبع إنسان متعلم وموهوب (فقط، لا أعتقد أنه بدون أباطيل وخرافات). فماذا ننتظر إذن بعد ذلك من اليهودى غير المتعلم، وما أكثرهم، وأية مشاعر لديه نحو الروس؟ إننى أقول ذلك ليس اتهاماً، فكل ذلك شىء طبيعى: أود فقط الإشارة إلى أن الشعب الروسى ليس وحده المذنب فى أسباب ودوافع فصلنا عن اليهود، وإنما قد تراكمت تلك الأسباب والدوافع، بالطبع، من الجانبين معاً، وليس من المعروف أى طرف قد ساهم بدرجة أكبر. وبعد أن نوّهت بذلك، سأقول بعض الكلمات لتبرئة نفسى، وكيف أنظر بشكل عام إلى هذه القضية على الرغم من أننى مازلت أكرر أن هذه المسألة ليست بقدر طاقتى، ولكننى على كل حال يمكننى أن أدلى برأى ما.

(٢) مع وضد[١]

لنفترض أنه من الصعب تماماً معرفة تاريخ الأربعين قرناً لهذا الشعب كيهود، إلا أننى للوهلة الأولى أعرف شيئاً واحداً وهو أنه ربما لا يوجد فى العالم ككل ذلك الشعب الآخر الذى فى كل دقيقة، وفى كل خطوة، وفى كل كلماته قد تشكّى وتظلّم من مصيره، ومن ذله وعذاباته وآلامه، حتى إنك لا تتصور أنهم هم الذين يسودون فى أوربا، وهم الذين يتحكمون فى البورصات هناك، الأمر الذى جعلهم يتحكمون فى سياسة الدول وشئونها الداخلية وقيمها. وليكن جولدشتاين النبيل قد مات من أجل الفكرة السلافية، لكن على أية حال لو لم تكن الفكرة اليهودية فى العالم بهذه القوة، لأمكن منذ زمن بعيد حل تلك القضية «السلافية» (فى العام الماضى) لصالح السلافيين وليس لصالح الأتراك. إننى مستعد للاقتناع بأن اللورد بيكونسفيلد نفسه ربما يكون قد نسى انحداره فى زمن ما من اليهود الإسبان (إلا إنه على الأرجح لم ينس). أما إنه قد «قاد السياسة الإنجليزية المحافظة» إلى حد ما من وجهة نظر يهودى[٢]، فهذا على حد اعتقادى لا يمكن الشك فيه. وبالطبع فالـ «إلى حد ما» هذه يجب ألا نسمح بها أبداً.

لكن لنعتبر أن كل ذلك من جانبى بلا حجة، نبرة جوفاء وكلام فارغ، وأسلّم لهم بذلك. إلا أننى على أية حال لا أستطيع أبداً تصديق صراخ اليهود وصياحهم بأنهم إلى هذا الحد مظلومون ومعذبون ومهانون. وفى رأيىَ أن الفلاح الروسى، بل الإنسان الروسى البسيط عموماً يتحمل أعباء أكثر من اليهودى. ويكتب إلىّ مراسلى فى رسالة أخرى: «قبل كل شىء يجب منحهم (اليهود) جميع الحقوق المدنية (ولتتصوروا أنهم حتى الآن محرومون من حقهم الأساسى ذاته: الاختيار الحر لمكان الإقامة، الأمر الذى نجم عنه

---

(١) فى طبعتى ١٩٩٤، ١٩٩٥، تم حذف هذا العنوان وبدا كما لو كان ديستويفسكى يواصل كلامه بفقرة جديدة. إلا أنه فى طبعة ١٨٩٥ يوجد هذا العنوان مع الكلمات اللاتينية حيث يفصلها حرف (N) الروسى بدلاً من (And) الإنجليزية. هكذا: Pro N contra.

(٢) لم يكتبها ديستويفسكى يهودى بالروسية، وإنما كتبها «جيد».

العديد من القيود والمضايقات لكل جماهير اليهود) الممنوحة لجميع الشعوب الغربية الأخرى في روسيا، وبعد ذلك فقط يمكن مطالبتهم بالقيام بالتزاماتهم نحو الدولة، والسكان الأصليين».

ولكن تخيلوا أيها السيد «المرسل» وأنتم تكتبون إلىّ في نفس الرسالة، على صفحة أخرى، إنكم «تحبون جماهير الشعب الروسي الكادحة، وتشفقون عليها أكثر بكثير من الجماهير اليهودية» - (وهذا أشد ما يمكن أن يقال لليهودي) - تصوروا فقط أنه عندما يكون اليهود «يعانون من الاختيار الحر لمكان الإقامة»، كان هناك ثلاثة وعشرون مليوناً من «الجماهير الكادحة الروسية» يعانون من نظام الرق والعبودية الذى كان بطبيعة الحال أشد وطأة من «الاختيار الحر لمكان الإقامة». فهل أشفق عليهم اليهود آنذاك؟ لا أعتقد ذلك: فالوضع في أطراف روسيا الغربية وفي جنوبها يمكنه الإجابة عن هذا. آنذاك كان اليهود كالعادة يصرخون مطالبين بالحقوق التي لم تكن لدى الشعب الروسي نفسه، كانوا يصرخون ويتشكون بأنهم مقهورون ومعذبون، وبأنه عندما يمنحونهم حقوقاً أكثر «عندئذ فقط اطلبوا منا القيام بالتزاماتنا تجاه الدولة والسكان الأصليين» ثم أتى المُحرر، محرر الشعب الأصلي، فانظر ماذا حدث، مَن كان أول المنقضين عليه كمن ينقض على فريسة، مَن في الغالب استغل علله ومشاكله، مَن أحاطه بالأكاذيب وخدعه بحرفته الذهبية الأبدية، ومَن حل في كل مكان، حيثما استطاع وأدرك، محل الإقطاعيين الذى أُلغى نظامهم، مع فارق أن الإقطاعيين كانوا رغم استغلالهم الشديد للناس، حاولوا دائماً ألا يهلكوا فلاحيهم، على الأرجح من أجل مصالحهم حتى لا يستنزفوا القوى العاملة، أما اليهودى فلم يكن يعنيه استنفاد ونضوب القوى العاملة الروسية، وحصل على ما يبغيه ورحل.

إننى أعرف أن اليهود بمجرد قراءتهم لهذا سوف يبدأون في الحال صراخهم بأن ذلك ليس صحيحاً، وبأنه افتراء ووشاية، وبأننى أكذب إذ أُصدّق جميع هذه الحماقات، وإننى «لا أعرف تاريخ الأربعين قرناً» لهؤلاء الملائكة الأطهار الذين دون مقارنة «أطهر أخلاقاً ليس فقط من القوميات الأخرى، وإنما من الشعب الروسي الذى أؤلهه» (حسب ما جاء في كلمات المرسل أعلاه). وليكن، ليكن أنهم أطهر أخلاقاً من جميع الشعوب في

العالم، ومن البديهي طبعاً الشعب الروسي، ومع ذلك فقد قرأت لتوى في عدد مارس من مجلة أخبار أوربا أن اليهود في أمريكا، في الولايات الجنوبية، قد انقضوا دفعة واحدة على ملايين الزنوج الذين تحرروا، وامتلكوهم على طريقتهم «بحرفتهم الذهبية» السرمدية مستغلين عدم خبرة هذه العشيرة المُستغلّة ومشاكلها. تصوروا أننى عندما قرأت ذلك، تذكرت في الحال إنه قد ورد على ذهنى منذ خمس سنوات مضت، وعلى وجه التحديد أن الزنوج برغم تحررهم من أصحاب العبيد لا مفر لهم، إذ إنه بطبيعة الحال سوف ينقض اليهود الكثيرون جداً في العالم على تلك الفريسة الصغيرة الطازجة. وأؤكد لكم أننى فكرت أكثر من مرة، ووردت خلال تلك الفترة على ذهنى فكرة: «لكن لماذا لم تُسمع أخبار عن اليهود، ولماذا لا تنشر الصحف، إذ إن هؤلاء الزنوج كنز لليهود، فهل من المعقول أن يغفلوا عنه؟» وفي النهاية حدث وكتبوا في الصحف، وقرأت. ومنذ عشرة أيام قرأت في جريدة «العصر الحديث» (رقم ٣٧١) خبراً وراداً من كوفنو[1]: «وصل الأمر إلى أن اليهود قد انقضوا على السكان الليتوانيين الأصليين وكادوا يقضون عليهم جميعاً بالفودكا، ولم ينقذ هؤلاء السكارى المساكين سوى القساوسة الكاثوليك حيث هددوهم بعذاب الجحيم وأقاموا بينهم جمعيات الامتناع عن تعاطى الخمور». وفي الحقيقة فقد أبدى المراسل الصحفي المثقف خجله بشدة من مواطنيه الذين يثقون حتى الآن بالقساوسة وبعذاب النار، ومع ذلك فقد ذكر أن الاقتصاديين المثقفين قد هبوا في أثر رجال الدين، وبدأوا في إقامة بنوك قروية لإنقاذ الشعب تحديداً من المرابي اليهودى، كما قاموا بإنشاء الأسواق الريفية حتى تتمكن «الجماهير الفقيرة الكادحة» من الحصول على متطلباتها الضرورية بالأسعار الحقيقية، وليس بالسعر الذى يحدده اليهودى. لقد قرأت كل ذلك، وأعرف أنهم سيبدأون بالصراخ في لحظة واحدة بأن كل هذا لا يعنى ولا يثبت أى شيء، وإنما هو بسبب أن اليهود أنفسهم مضطهدون ومساكين، وكل ذلك ما هو إلا «صراع من أجل الوجود»، وأن الأحمق فقط هو الذى لا يمكنه إدراك ذلك، وأنه لو لم يكن اليهود ذاتهم فقراء، وإنما على العكس أغنياء، لأظهروا أنفسهم في الحال من أكثر الجوانب إنسانية حتى ليصاب العالم كله بالدهشة والعجب. إلا أن جميع هؤلاء الزنوج

---

(١) مدينة فيلنوس حالياً ـ عاصمة جمهورية ليتوانيا.

والليتوانيين بالطبع هم أشد فقراً من اليهود الذين يبتزونهم، وبالرغم من ذلك (اقرأوا الخبر) فقد أعرضوا عن التجارة التى يمارسها اليهود. وثانياً فليس من الصعب أن يكون المرء إنسانياً وأخلاقياً حينما يحيا هو فقط حياة الرغد والسعادة، ولكن عندما يصل الأمر إلى «الصراع من أجل الوجود» فلا تمسه. واعتقد أن هذه الصفات ليست على الإطلاق هى الصفات الملائكية. وثالثاً فلن أطرح بالطبع هذين الخبرين من جريدتى أخبار أوربا والعصر الحديث كحقائق أساسية ودامغة. فلو تم البدء فى كتابة تاريخ هذه القبيلة العالمية، لأمكن العثور فى الحال على مائة ألف حقيقة مثل هذه، بل وأضخم منها، وبالتالى فحقيقة أو حقيقتان على سبيل الزيادة لا تضيفان أى شىء جديد، إذ إنه ومع ذلك هناك طرافة فى الأمر: الطريف أنك إذا احتجت لمعلومات عن اليهودى وأعماله خلال النقاش أو فى لحظة تقليبك الذاتى للأمور، لا تذهب إلى المكتبة من أجل القراءة، ولا تتعب نفسك فى تصفح الكتب القديمة أو مراجعة ملاحظاتك الخاصة، ولا تجهد نفسك ولا تبحث أو تتوتر، ولا تتحرك من مكانك، ولا تنهض حتى من مقعدك، ولكن مد يدك فقط إلى أول صحيفة بالقرب منك، ثم ابحث فى الصفحة الثانية أو الثالثة: ستجد فى الحال شيئاً ما عن اليهود، وفى الحال سيكون هو بالذات ما يهمك، وسيكون قطعاً مميزاً، وحتماً على نفس المنوال - أى نفس المآثر والحركات! معنى ذلك أنه يعنى شيئاً ما، يشير إلى شىء ما، ويكشف عن شىء ما حتى وإن كنت لا تفقه أى شىء فى تاريخ الأربعين قرناً لهذه القبيلة. من البديهى أنهم سيجيبوننى بأن كل ذلك من منطلق الحقد، ولذا فالكل يكذب. بالطبع، يمكن تماماً أن يحدث ويكذب الجميع دون استثناء، ولكن فى هذه الحالة يُطرح سؤال آخر: إذا كان الجميع يكذب دون استثناء، وأن كل ذلك من منطلق ذاك الحقد، إذن فمن أين جاء هذا الحقد. إذن فهذا الحقد الجماعى العام يعنى شيئاً ما، و«أن كلمة الجميع تعنى شيئاً ما!» كما هتف يوماً بلينسكى.

«الاختيار الحر لمكان الإقامة!» ولكن هل الإنسان الروسى «الأصلى» هكذا لديه الحرية المطلقة فى اختيار مكان الإقامة؟! أليست حتى الآن موجودة تلك القيود المرفوضة الباقية من مرحلة الرق على الحرية الكاملة لاختيار مكان الإقامة للمواطن الروسى، والتى استرعت اهتمام الحكومة منذ زمن؟ أما بشأن اليهود، فمن الواضح للجميع أن حقوقهم

فى اختيار مكان الإقامة قد توسعت بدرجة كبيرة خلال العشرين سنة الأخيرة، على الأقل أنهم قد ظهروا فى روسيا بالأماكن التى لم يرهم أحد فيها من قبل. ومع ذلك فاليهود طوال الوقت يتشكون من الحقد والقيود. ولنفترض أن معرفتى غير جيدة بالحياة اليهودية، إلا أننى أعرف تماماً شيئاً واحداً، ومن الممكن أن أجادل الجميع، وتحديداً هو: أنه لا يوجد لدى عامة شعبنا أى كره دينى متحامل وغبى وغير مبنى على التجربة تجاه اليهود من قبيل «يهوذا هو الذى خان المسيح». وإذا كان ذلك يُسمع من أفواه الأطفال والسكارى، فإننى أكرر أن شعبنا كله ينظر إلى اليهودى دون أى كره متحامل. وقد رأيت ذلك طوال خمسين عاماً، حتى لقد حدث وعشت مع الشعب، بين عامته وجماهيره، فى نفس العنابر، ونمت على نفس الأرضية الخشبية، وكان هناك بعض اليهود ـ لم يحتقرهم أحد، ولم يستثنهم أو يطردهم. وعندما كانوا يصلون (مع أن اليهود يقومون بالصلاة مع الصراخ مرتدين ملابس خاصة)، لم يجد أحد فى ذلك أية غرابة، ولم يضايقهم أحد أو يسخر منهم، وهو الشيء الذى كان بالضبط يمكن توقعه بالذات من شعب خشن، بمفهومنا نحن، مثل الشعب الروسى. ولكن على العكس، فعندما كنا ننظر إليهم، نقول: «هكذا هو دينهم، وهكذا يصلون»، ثم نمر بهم فى هدوء، بل وتقريباً باستحسان. ولكن انظر ماذا يحدث، اليهود كانوا يجتنبون الروس فى الكثير، يرفضون الأكل معهم، وينظرون إليهم باستعلاء (وأين كان ذلك ـ فى السجن!)، بل وكانوا يبدون تقززهم واشمئزازهم ونفورهم بشكل عام من كل ما هو روسى، ومن الشعب «الأصلى». ونفس الشيء فى معسكرات الجنود، وفى كل مكان فى أنحاء روسيا: اذهبوا بأنفسكم واسألوا، هل يهينون اليهودى فى المعسكرات كيهودى، كـ«چيد»، بسبب الديانة والعادات؟ لا يضايقونهم فى أى مكان، وهكذا الحال بين أفراد الشعب. على العكس، أؤكد لكم أنه فى المعسكرات كما فى أى مكان، الروسى البسيط يرى الكثير ويفهم جيداً (اليهود أنفسهم لايخفون ذلك) إن اليهودى يرفض الأكل معه، يشمئز منه، يتجنبه ويحتاط منه قدر المستطاع، ولكن بدلاً من أن يغضب الروسى ويتضايق من ذلك، يقول فى هدوء ووضوح: «هكذا هو دينه، وهو الذى يفرض عليه ألا يأكل معنا، وأن يتجنبنا» (أى لا لأنه شرير)، وحين يدرك الروسى هذا السبب السامى، يغفر لليهودى من أعماق روحه. ومع

ذلك فقد راودتني أحياناً فانتازيا:

ماذا لو لم يكن اليهود في روسيا هم الثلاثة ملايين، وإنما الروس، بينما كان اليهود هم الثمانين مليوناً؟ ففي أي شيء كان الروس سيلجأون إليهم فيه، وكيف كان اليهود سيستخفون بهم؟ هل كان من الممكن أن يمنحونهم حقوقاً متساوية مقارنة بأنفسهم؟[1] هل كان من الممكن أن يتيحوا لهم فرصة الصلاة بينهم في حرية؟ أم أنهم كانوا سيحولونهم إلى عبيد لديهم؟ والأسوأ من ذلك أن يسلخوا جلودهم تماماً؟ وربما ضربوهم ليصل الأمر إلى الجلد، إلى الإبادة التامة كما فعلوا مع الشعوب الأخرى قديماً، في تاريخهم القديم؟

لا، أنني أؤكد لكم أنه لا يوجد لدى الشعب الروسي أبداً كره متحامل تجاه اليهودي، ولكن من الجائز أن يكون هناك عدم تعاطف معه، وخاصة في بعض الأماكن المتفرقة، وحتى من الممكن أن يكون ذلك شديداً. لا شك في أن هذا موجود فعلاً ولا يمكن نفيه، ولكن يحدث عموماً ليس بسبب كون الإنسان يهودياً، وليس من منطلق كره ما قبلي أو ديني، ولكن لأسباب أخرى قد أذنب فيها ليس الشعب الأصلي، وإنما اليهودي نفسه.

(١) من البديهي أن ديستويفسكي أثناء كتابته لهذه المقال لم يكن يعرف إطلاقاً أن اليهود سوف يقومون بعد سبعين عاماً بتشريد شعب بأكمله واحتلال وطنه. ولكن في قضية «ألبرت ماكاشوف» في نهاية القرن العشرين، كانت تلك النقطة التي يتحدث عنها الآن ديستويفسكي هي أحد الأسباب التي فجرت الأزمة في روسيا حيث ضرب ماكاشوف مثلاً بدولة إسرائيل الحالية قائلاً: «إذا كانت السلطة في روسيا تتكون من ٩٥٪ من الأقلية اليهودية التي تعيش بين مائة وسبعين مليوناً من الروس في نفس الوقت الذي نرى فيه (دولة إسرائيل الديموقراطية المراعية لحقوق الإنسان!) لا تتضمن السلطة فيها ممثلين عن الشعب الفلسطيني على الرغم من عدد السكان الفلسطينيين الذين يفوقون أعداد اليهود في تلك الدولة.

(٣) أربعون قرناً من الوجود[1]
Status in Statu

الكره المبنى على الادعاءات والأباطيل، هذا ما يطلقه اليهود على السكان الأصليين من اتهامات. لكن إذا كان الحديث يتناول الادعاءات والأباطيل، فماذا تعتقدون؟ هل يناصب اليهود ادعاءات وأباطيل للروس أقل من التى يناصبها للروس اليهود؟ أليس أكثر؟ لقد قدمت لكم أمثلة عن مواقف الروس البسطاء تجاه اليهود. وأمامى الآن رسائل يهود ليسوا بسطاء، وإنما من اليهود المتعلمين - كم من الكراهية والحقد فى هذه الرسائل تجاه «السكان الأصليين»! والأهم أنهم يكتبون ولا يلاحظون ذلك بأنفسهم.

هل تتصورون، هذا الشعب الممتلىء بالحيوية، القوى النشيط بصورة غير عادية، والذى ليس له نظير فى العالم، يُضيع حدوده واستقلاله السياسى وقوانينه أكثر من مرة، وحتى دينه فقده، وفى كل مرة يعود فيتحد، ثم يُبعث من جديد بنفس الأفكار، وإن كان فى صورة أخرى، فيصنع لنفسه قوانين وديانة ثم يعود فيُضيع كل شىء. هذا الشعب لا يستطيع أن يحيا بدون الدولة داخل الدولة[2] والتى حافظ عليها دائماً فى كل مكان خلال سنواته الألفين من أفظع المطاردات والتشتتات، إننى حينما أتحدث عن الجيتو، لا أود إطلاقاً توجيه أى اتهام، إلا أن كل ما هنالك هو فيم يكمن مغزى الجيتو؟ وفيم تتمحور فكرته؟ وما جوهر هذه الفكرة؟

إن التعرض لهذا الموضوع كان على الدوام صعباً، ويستحيل ذلك فى مقالة قصيرة على وجه الخصوص. وأحد أسباب الاستحالة هنا هو إنه لم يحن بعد الوقت والموعد المناسبان، على الرغم من مرور الأربعين قرناً الماضية، وإن الحكم النهائى للبشرية على هذه القبيلة

---

(١) جاءت فى النص الأصلى بطبعة ١٨٩٥ باللاتينية دون ترجمة حيث استخدمها ديستويفسكى إلى جانب العنوان الروسى، وقد ترجمت إلى الروسية فى طبعتى ١٩٩٤، ١٩٩٥ بمعنى «دولة داخل الدولة» فى حين تم حذف العنوان «أربعون قرناً من الوجود» المكتوب بالروسية فى النص الأصلى لعام ١٨٩٥.

(١١) جاءت باللاتينية (Status in Statu)، وأقرب معنى لها فى النص هو «الجتيو».

العظيمة لم يزل بعد قيد المستقبل.. ولكن من دون التغلل فى جوهر الموضوع وعمقه، يمكن وصف ولو بعض ملامح هذا الجيتو، أو على الأقل ما يظهر منه. هذه الملامح: الإحساس بالاغتراب والعزلة على مستوى التحجر الدينى، وعدم القدرة على الاندماج، والإيمان بأنه لا يوجد فى العالم سوى شخصية قومية واحدة ألا وهى الشخصية اليهودية، وحتى إن كان الآخرون موجودين، فالأمر سيان، يجب النظر إليهم وكأنهم غير موجودين.

«أخرج من بين الشعوب، وشكّل ذاتك، واعلم أنك الوحيد حتى الآن لدى الإله، اسحق الآخرين أو أخذهم عبيداً، أو استغلهم. ثق بانتصارك على العالم كله، وثق بأن كل شىء سيخضع لك. تجنب الجميع فى حسم، ولا تشترك مع أحد فى معاشك. وحتى عندما تُحرم من أرضك، ومن شخصيتك السياسية، حتى عندما تتشتت على وجه الأرض، بين كل الشعوب - سيان - ثق بأنك موعود بكل ذلك إلى الأبد، ثق بأن كل شىء سيكون. أما بعد، فَعِش، وتجنب، واتحد، واعمل، واستغل، وانتظر، انتظر»..

هاهو جوهر فكرة الجيتو، وبعد ذلك طبعاً توجد قوانين داخلية، وربما سرية تحدد هذه الفكرة. إنكم أيها السادة اليهود والمدافعون المتعلمون تقولون إن كل هذا هراء، وإنه «لو كان يوجد جيتو (أى إنه كان، أما الآن فلم يتبق منه سوى آثار ضئيلة)، فالمطاردات الدينية وحدها منذ العصور الوسطى وقبلها هى التى قادت إليه، وهى فقط التى ولّدته. لقد ظهر هذا الجيتو فقط من إرادة البقاء، وإذا حدث واستمر ذلك، وخاصة فى روسيا، فإنه فقط بسبب أن اليهودحتى الآن غير متساوين فى الحقوق مع السكان الأصليين». ولكن يبدو لى أن اليهودى حتى لو كان متساوياً فى الحقوق، فلن يتخل بأى حال من الأحوال عن الجيتو. فضلاً عن ذلك فالتصميم على الإشارة بأن المطاردة وإرادة البقاء هما السبب فى وجود الجيتو شىء غير كاف أو مقنع، كما لو أن الإصرار على إرادة البقاء لم يكن كافياً طوال أربعين قرناً، فكم من مضجر ومُمِل ذلك الإصرار على الحفاظ على النفس طوال هذه الفترة. وكم من حضارة قوية فى العالم لم يصل عمرها حتى إلى نصف الأربعين قرناً وفقدت قوتها السياسية ومظاهرها القبلية. فليست إرادة البقاء وحدها إذن هى السبب الرئيسى، ولكنها فكرة أخرى متحركة ومسيطرة، شىء ما كونى ربما لا يكون

بوسع البشرية بعد إصدار حكمها النهائي عليه كما قلت آنفاً، حيث إن الطابع الديني في الغالب موجود ـ وهذا مما لا شك فيه. وإن خالقهم المدعو بالإله الأول يهوا بمثله الأعلى وبعهده لا يزال يقود شعبه نحو الهدف الأكيد، وهذا بالطبع واضح تماماً، إنني مازلت أكرر أنه من المستحيل حتى تصور يهودي بدون إله، فضلاً عن أنني لا أثق حتى في المثقفين اليهود الملحدين: إنهم جميعاً ليسوا إلا جوهراً واحداً، ولا يعلم إلا الله ماذا ينتظر العالم من اليهود المثقفين! لقد قرأت في طفولتي وسمعت أسطورة عن اليهود تحكي بأنهم ينتظرون في إصرار حتى الآن المسيح المنتظر، كلهم على حد سواء، بداية من أبسط جيد حتى أرفع العلماء والفلاسفة والحاخامات، وإنهم جميعاً مازلوا يؤمنون بأن المسيح المنتظر سوف يجمعهم ثانية في القدس، وسيلقي بسيفه جميع الشعوب تحت أقدامهم، الأمر الذي يجعل اليهود، أو في أبعد الأحوال غالبيتهم العظمى، لا يفضلون إلا مهنة واحدة: تجارة الذهب وصناعته بكثرة من أجل ألا يملكوا وطناً، وألا يكونوا مرتبطين بأرض غريبة، كل ما في الأمر أن يكون كل ما لديهم، وكل ممتلكاتهم مجرد ذهب ومجوهرات. وهذا كله لحين ظهور المسيح المنتظر حتى يسهل حمل ونقل كل شيء وقتئذ

حينما يتلألأ شعاع الفجر

ويضطرم، وتعزف المزامير

والآلات النحاسية والدفوف

سنحمل الفضة والخير،

والمقدسات إلى البيت القديم،

إلى فلسطين.

كل ذلك، أكرر، سمعته كأسطورة. إلا أنني واثق بأن جوهر الأمر موجود حتماً، وبالذات داخل مجمل جماهير اليهود على شكل ميل غريزي يستحيل مقاومته. ولكن من أجل الحفاظ على جوهر هذا الموضوع فلابد طبعاً من الحفاظ على أدق وأصرم أشكال الجيتو، وهذا ما تم الحفاظ عليه، ومن ثم فأسباب وجوده لم تكن أبداً المطاردات وحدها، وإنما فكرة أخرى كانت ومازالت...

أما إذا كان لدى اليهود، في الحقيقة، ذلك النظام الخاص الصارم الذى يربطهم ببعضهم البعض فى كتلة واحدة لها خصوصيتها، فمن الممكن إذن التفكير فى موضوع المساواة الكاملة فى جميع حقوقهم مع حقوق السكان الأصليين. وبطبيعة الحال فكل ما تتطلبه الإنسانية والعدالة، وكل ما تمليه القوانين الإنسانية والمسيحية يجب أن يقدم كله إلى اليهود. ولكن إذا كانوا يطالبون بالمساواة الكاملة فى كل الحقوق الممكنة مع السكان الأصليين، وفى نفس الوقت يظلون متسلحين بنظامهم وخصائصهم، وعزلتهم الدينية والقبلية، وقواعدهم ومبادئهم التى تتعارض تماماً مع تلك الفكرة التى طرحها، أو على الأقل تطور على أساسها العالم الأوربى بأكمله، ألا يحدث إذن أن يحصلوا حينئذ على شيء ما أزيد، شيء ما خاص وأعلى حتى من السكان الأصليين ذاتهم؟ وبالطبع فسوف يشيرون عندئذ إلى الأجانب الآخرين زاعمين: «إنهم متساوون، أو تقريباً متساوون فى الحقوق، أما اليهود فحقوقهم أقل من جميع الأجانب. وذلك لأنهم يخشوننا نحن اليهود كما لو أننا أكثر ضرراً من جميع الأجانب. ومع ذلك ففى أى شيء يعتبر اليهودى مضراً؟ لو كانت هناك صفة دنيئة فى الشعب اليهودى، فهذا يعود وبشكل محدد إلى أن الشعب الروسى نفسه هو المتسبب فيها بجهله وفظاظته وانحطاط ثقافته، وانعدام إمكانياته على الاستقلالية، وضعف تطوره الاقتصادى. إن الشعب الروسى نفسه بحاجة إلى السمسار والمدير، وولى الأمر لأحواله الاقتصادية، والمرابى، وهو نفسه الذى يدعوهم ويسلم لهم. فهاهى أوربا على العكس من ذلك: هناك شعوب قوية مستقلة روحياً ذات تطور وطنى شديد، معتادة منذ زمن بعيد على العمل مع القدرة على بذل الجهد. وبالتالى هم هناك لا يخشون منح اليهودى جميع الحقوق! فهل يذكر فى فرنسا أى شيءعن الضرر من جيتو اليهود المحليين؟»

هذا الكلام يبدو مقنعاً، ولكن قبل كل شيء تتجلى ملاحظة بين قوسين، وبالتحديد: «فاليهودية تزدهر فى تلك الأماكن التى يكون فيها الشعب جاهلاً فظاً أو غير حر، أو متخلف اقتصادياً ـ هناك فقط يصيرون سادة وأحراراً، وتصير أمورهم على ما يرام!، وبدلاً من أن يحدث العكس، بأن يرفعوا بنفوذهم مستوى التعليم، ويعملوا على زيادة المعرفة، وتوليد القدرة الاقتصادية لدى السكان الأصليين. بدلاً من كل ذلك نجد اليهودى أينما حل

وأقام، أذل الشعب وأفسد فيه أكثر فأكثر، وازدادت البشرية ذلاً وخنوعاً، وتدنى مستوى التعليم أكثر، بل وانتشر بشكل أفظع.. فقر محكم غير إنسانى ينمو معه اليأس ويترعرع. اسألوا السكان الأصليين فى أنحاء بلادنا، ماذا يحرك اليهود، وماذا حركهم طوال القرون الماضية؟ ستحصلون على إجابة واحدة: عدم الرحمة، «لقد حركهم طوال القرون الماضية شيء واحد فقط، هو عدم الرحمة تجاهنا، وفقط الارتواء بعرقنا ودمائنا». وبالفعل فمجمل نشاط اليهود فى جميع أرجاء بلادنا لا يتركز إلا فى وضع السكان الأصليين قدر المستطاع فى حالة تبعية مطلقة لهم وذلك باستغلال القوانين المحلية، حيث تحايلوا على الدوام لإيجاد الثغرات فى اللوائح والقوانين. وكانت لديهم دوماً القدرة على نسج العلاقات مع هؤلاء الذين بأيديهم مقدرات الشعب، حتى إنه لم يعد يحق لهم أن يتذمروا أو يهمهموا بأى شيء عن حقوقهم القليلة بالمقارنة بالسكان الأصليين. لقد حصلوا لدينا على حقوق كثيرة إذا ما قورنت بما لدى السكان الأصليين.

إن تاريخ أنحاء روسيا يشهد بما جرى للشعب الروسى خلال عشرات ومئات السنين حيثما حل اليهود. وماذا بعد، هل بوسعكم أن تتذكروا أية قبيلة أخرى من القبائل الغريبة فى روسيا يمكن أن تتساوى بهذا المفهوم فى نفوذها مع النفوذ الفظيع لليهود؟ لن تجدوها، فاليهود يتفردون بشذوذهم وأصالتهم فى هذا المجال أمام جميع القوميات الروسية، والسبب يعود بالطبع إلى الجيتو، وإلى روحه التى تبث فيهم عدم الرحمة تجاه كل ما هو غير يهودى، وعدم احترام أى شعب أو قومية، أو أى جوهر إنسانى آخر مالم يكن يهودياً. ولكن ما هذا التبرير الذى يقول إن شعوب أوربا الغربية لم تسلم نفسها لليهود، وأن ما حدث للروس هم أنفسهم المذنبون فيه؟ هل هذا لأن الشعب الروسى فى أنحاء روسيا كان أضعف من الشعوب الأوربية (ومن هنا فقط كان وضعه السياسى الصعب طوال قرون)، وبالتالى يجب سحقه تماماً والقضاء عليه بالاستغلال، وليس مساعدته؟ وإذا كانوا يشيرون إلى أوربا، إلى فرنسا على سبيل المثال، فمن المشكوك فيه أن الجيتو هناك لم يكن هكذا غير مضر. وبالطبع فتدنى وانهيار المسيحية وفكرتها هناك ليس بسبب اليهود، وإنما بذنبهم هم، غير أنه من المستحيل عدم الإشارة إلى الانتصار القوى لليهودية فى أوربا، والتى حلت محل الكثير من الأفكار السابقة فيها. علماً بأن

الإنسان كان دائماً وفى جميع العصور يمجد النزعة المادية. وكان ينزع لرؤية الحرية وفهمها على أنها مجرد تأمين حياته بالأموال التى يكدسها بكل ما أوتى من قوة، ويختزنها بكل الطرق والوسائل. ومع ذلك فلم ترتفع هذه الطموحات هكذا بشكل واضح وإرشادى إلى مستوى المبدأ البديهى إطلاقاً، كما ارتفعت وسمت فى قرننا التاسع عشر. «كلٌ إنسان من أجل نفسه، وفقط من أجل نفسه. كل العلاقات بين الناس من أجل المصلحة الخاصة فقط» ـ هذا هو المبدأ الأخلاقى لغالبية الناس الحاليين(*)، ليس فقط للسيئين، وإنما على العكس للكادحين أيضاً، الذين لا يقتلون ولا يسرقون. فعدم الرحمة تجاه الجماهير المعدمة، وتداعى روح الأخوة، واستغلال الأغنياء للفقراء كان كله موجوداً فى السابق وعلى الدوام، لكنه لم يرتفع قط إلى مستوى الحقيقة العليا والعلم، بل كانت المسيحية نفسها تدينه. أما الآن فعلى العكس، يعتبر كل هذا من أعمال الخير. ولم يكن عبثاً أن اليهود يسيطرون طوال الوقت وفى كل مكان على البورصات هناك، وليس عبثاً أنهم يحركون رءوس الأموال ويسيطرون على القروض. وليس عبثاً أنهم يتحكمون فى السياسة الدولية كلها.

وماذا بعد؟ بالطبع فمملكة اليهود تقترب... مملكتهم الكاملة! ستحل بانتصار كامل لتلك الأفكار التى ستنهار أمامها مشاعر حب الإنسانية، والتعطش للحقيقة، والمشاعر المسيحية، والكرامة القومية، بل وحتى الوطنية للشعوب الأوربية. ستقبل، على العكس، النزعة المادية والرغبة الشهوانية الحسية لتأمين الحياة المادية الخاصة، والتعطش الشخصى لتكديس الأموال بكل السبل والوسائل. هذا ما سوف يصبح الهدف الأسمى والذكاء والتعقل والحرية بدلاً من أفكار الخلاص المسيحية، الوسيلة الوحيدة للترابط الأخوى والأخلاقى الوثيق بين الناس. سوف يسخرون ويقولون إن كل هذا ليس بسبب اليهود أبداً. طبعاً ليس بسبب اليهود وحدهم، لكن إذا كان اليهود قد انتصروا وازدهروا بشكل حاد فى أوربا تحديداً عندما انتصرت تلك المبادئ الجديدة إلى ذلك الحد الذى جعلها فى مستوى المبادئ الأخلاقية، فمن المستحيل إغفال أن اليهود قد قاموا بممارسة تأثيرهم

(*) هى الفكرة الأساسية للبرجوازية التى حلت محل النظام العالمى السابق فى نهاية القرن الثامن عشر، والتى وضعت الأفكار الرئيسية لمجمل القرن التاسع عشر فى العالم الأوربى كله.

هناك، ولعل أصحابنا المدافعين يذكرون أن اليهود على العكس فقراء فى كل مكان وخاصة فى روسيا، وأن علية اليهود فقط هم الأغنياء، أصحاب البنوك وملوك البورصة، أما التسعة أعشار من اليهود الباقين فهم بكامل المعنى معدمون، يعانون ويقاسون من أجل الحصول على لقمة العيش، ويتوددن ويتملقون ويسمسرون ويبحثون من أين يمكنهم الحصول على كوبيك من أجل لقمة الخبز. نعم، هذا صحيح، ولكن على ماذا يدلل، ألا يعنى ذلك تحديداً أن هناك شيئاً ما فى ممارسات اليهود (أى الغالبية العظمى منهم على أسوأ الفروض)، وأن هناك شيئاً ما غير صحيح وشاذ فى استغلالهم، شيئاً ما غير طبيعى هو بالذات الذى يحمل لهم فى طياته العقاب؟ إن اليهود يمارسون التجارة والسمسرة بجهود الآخرين! ورأس مالهم هو الجهد المتراكم، إنهم يحبون المتاجرة بجهود الآخرين! ولكن على أية حال فهذا لا يغير فى الأمر شيئاً حتى الآن: على هذا الأساس فعلية اليهود تتعالى وتسود البشرية، تسعى بشكل أكثر قوة وصلابة لتفرض على العالم كله مظهرها وصفاتها وجوهرها. إلا أن اليهود مازالوا يصرخون بأن بينهم أناساً طيبين. يا إلهى، هل القضية فى ذلك؟ إننا لا نتحدث الآن إطلاقاً عن الناس الطيبين والخبثاء، أليس هناك بين أولئك الناس بشر طيبون أيضاً؟ وهل كان المرحوم جيمس روتشيلد فى باريس شريراً؟ إننا نتحدث عن المجموع، عن فكرته، نتحدث عن الروح اليهودية «الجيدية»، وعن الأفكار اليهودية «الجيدية التى سيطرت على العالم كله بدلاً من المسيحية» التى ساء حظها....

(٤) ولكن.. فلتحيا الأخوة!(١)

لكن ماذا أقول، ولماذا؟ أم أننى عدو لليهود؟ هل صحيح ـ كما تكتب إلى فتاة يهودية لا شك أنها (كما هو واضح من رسالتها، ومن مشاعرها الحارة المخلصة فى هذه الرسالة) متعلمة وشريفة ـ أننى عدو لهذه القبيلة «المنكوبة» والتى على حد قولها «انتهز أية فرصة مناسبة للهجوم القاسى عليها». «إن كرهكم، من البديهى، لمجموعة اليهود التى لا تفكر إلا فى نفسها». لا، أنا ضد هذه البديهية حيث إننى أناقش الأمر ذاته، وفى جوهره. على العكس، إننى تحديداً أتحدث وأكتب أنه «يجب العمل على منح اليهود كل ما تتطلبه الاعتبارات الإنسانية والعدالة، وكل ما يستوجبه القانون الإنسانى والمسيحى». لقد كتبت هذه الكلمات السابقة، والآن أضيف إليها إنه بصرف النظر عن كل الأفكار التى طرحتها، أناصر بشدة التوسيع الكامل لحقوق اليهود فى التشريعات الرسمية، ومساواتهم قدر الإمكان فى الحقوق مع السكان الأصليين (وإن كانوا فى حالات أخرى يملكون الآن، وحالياً، حقوقاً أكثر، أو من الأفضل القول إن لديهم الإمكانات على الانتفاع بهذه الحقوق أكثر من السكان الأصليين أنفسهم). وبالطبع تَرِد على ذهنى الآن هذه الفكرة الخيالية: ماذا لو انهارت، على نحو ما ولسبب ما، الجمعية الزراعية التى تحمى فلاحنا المسكين من أخطار عديدة؟ ماذا لو اجتاح اليهود هذا الفلاح المتحرر لتوه، والذى لا يملك الخبرة الكافية، أو يمكنه مقاومة الإغراءات التى قامت بحمايته منها الجمعية الزراعية؟ سوف تكون لحظة نهايته: ستنتقل فى الحال أملاكه وقواه جميعاً إلى قبضة اليهودى، وسيحل ذلك الزمن الذى لا يمكن مقارنته بزمن نظام الرق والعبودية، بل وحتى بزمن الاحتلال التتارى.

ولكن على الرغم من كل هذه الفنتازيا والخيالات، ومن كل ما كتبت سابقاً، فأنا على أية حال مع المساواة الكاملة والنهائية للحقوق، لأن هذا هو قانون المسيح، ولأن هذا هو المبدأ المسيحى. ولكن إذا كان الأمر كذلك، فلماذا إذن قمت بكتابة كل هذه الصفحات،

(١) هذا الجزء تم تحذفه (أو إغفاله) تماماً من طبعتى١٩٩٤ و١٩٩٥.

ومـاذا أردت أن أقـول ! إذا كنت هكذا أناقض نفـسـى ؟ ومع ذلك ، تحـديداً ، فـأنـا لا أناقض نفـسـى . إننى ، من وجـهـة نظر روسـيـة ، وجـذرية ، لا أرى أية عـوائق فى تـوسـيع الحقـوق اليهودية ، وأؤكد أن هذه العوائق موضوعة بلا ريب من جانب اليهود أنفسهم أكثر مما هى من جانب الروس . وفى حالة إذا لم يتحقق ما تمنيته من صميم قلبى ، فسـوف يكون ذنب الإنسـان الروسى بلا شك أقل بكثيـر من ذنب اليـهـودى ذاته . وذلك مـثلمـا أشـرت إلى اليهودى البـسيط الذى لم يكن يريد التعامل أو الأكل مع الروس الذين لم يغضبوا فقط أو ينتقموا منه لذلك ، وإنما على العكس فكروا باتزان وتعقل ، وسامحوه قائلين : «هكذا هو ، لأن دينه كذلك» ـ هذا الأمر بالنسـبة لليـهـودى البـسـيط ، أما بالنـسبة لليـهـودى المثقف فكثيـراً مـا نـرى ذلك التعالى الشـديد على الروس ، فى نفس الوقت الذى يصـيـحون فيه بأنهم يحـبـون الشـعب الروسى ، لدرجة أن أحدهم كـتب إلىَّ إنه من المؤسف له تحديداً أن الشعب الروسى ليس له دين ، ولا يفقه شيئاً فى مسيحيته . وهذا حديث شديد الوطأة بالنسبة لليهودى ، ويطرح سؤالاً مهماً : هل يفقه هذا اليهودى المتعلم نفسه شيئاً ما فى المسيحية ؟ ولكن صفتى الصلف والاستعلاء لدى اليهود من أثقل وأقسى الصفات بالنسبة لنا نحن الروس . فمن منا نحن الروس أو اليهود أقل قدرة على فهم الآخر ؟ أقسم بأننى أقرب إلى تبـرئة الروس وعـذرهم : فلدى الروس على أية حال لا يوجـد (وهذا شىء غـيـر إيجابى !) أية كراهيـة أو تعصب دينى ضد اليـهـود . إذن فأين الأفكار الأخرى ، ولدى من أكثر ؟ اليـهـود يصرخون بأنهم طوال قرون عديدة كانوا مُطاردين ومُضطهدين ، وهذا ما يجب أن يأخـذه الروس فى كل الأحـوال فى اعتـبـارهـم عند الحكم على الطابع اليـهـودى .
حـسـناً ، سنأخذ ذلك فى حـسـابنا ، بل ويمكننا أيضاً إثبـاته : كم من مرة تلاقت وارتفعت أصوات المثقفين الروس دفاعاً عن اليهود ، ولكن هل يأخذ اليـهود فى اعتبـارهم ، رغم شكواهم من الروس واتهامهم لهم ، القـرون العديدة التى عـانى فيـهـا الشـعب الروسى نفسـه ؟ هل من الممكن إثبات أن هذا الشعب قد عانى «فى تاريخه كله» ظلماً وشراً أقل مما عاناه اليهود أينما كانوا ؟ وهل يمكن التصديق على أن اليهودى ليس هو الذى كثيراً ما اتحد مع ظالمى هذا الشعب ، وكثيراً ما تعهد لهم بضبط الشعب الروسى ، ومن ثم تحول هو نفسه إلى ظالم له ؟ لقد حدث كل ذلك بالفعل ، وهذا تاريخ ، وحقيقة تاريخية ، ومع ذلك

فلم نسمع قط أن الشعب اليهودى قد ندم على ذلك، وفي ذات الوقت لايزال يتهم الشعب الروسي بأنه لا يحبه.

«ولكن كفى! كفى!»، فلتكن الوحدة الروحية الكاملة لكل الشعوب والأقوام، فلا فارق في الحقوق! ومن أجل ذلك، وقبل كل شيء، أرجو من اليهود الذين يعارضوننى، والذين يرسلون إليّ الرسائل أن يكونوا على العكس متسامحين وعادلين تجاهنا نحن الروس. وإذا كان اشمئزاز اليهود الكئيب الدائم وتعاليهم تجاه الروس وليد التحامل «الرواسب التاريخية»، وليست أموراً مستترة فى أحد الأغوار الخفية العميقة لقوانينهم ونظامهم، فلسوف يزول كل ذلك سريعاً، وسنخطو معاً فى روح واحدة، وأخوة كاملة تجاه عون متبادل وخدمة عظيمة لأرضنا ودولتنا ووطننا! ولتتوقف الاتهامات المتبادلة، لتزول سورة الحماس الدائمة لتلك الاتهامات، التى تعوق الفهم الواضح للأمور. وبالنسبة للشعب الروسى يمكن التأكيد أنه سوف يتقبل اليهودى فى علاقة أخوة كاملة بصرف النظر عن اختلاف الدين، وباحترام كامل للحقيقة التاريخية لهذا الاختلاف. ولكن من أجل التآخى، والتآخى الكامل، يجب أن يتم ذلك من الجانبين على السواء. وليُعبر اليهودى للروسى حتى ولو عن القليل من المشاعر الأخوية لكى يشجعه على ذلك.. إننى أعرف أنه من الممكن حالياً أن نجد بين الشعب اليهودى العديد من الأشخاص الباحثين عن مواضع الخلل، والمتعطشين لإزالتها والتخلص منها. كما أن بينهم أناساً يحبون البشر، ولن أصمت أبداً عن ترديد ذلك حتى لا أخفى الحقيقة. فمن أجل ألا يُحبط هؤلاء النافعون والمحبون للإنسانية من اليهود، ومن أجل تخفيف تحاملهم، ومن أجل تيسير أمورهم للشروع فى بذل الجهود، أتمنى لو يحدث توسيع كامل فى حقوق الفئة اليهودية، ولو بقدر الإمكان، وتحديداً بقدر ما يبرهن الشعب اليهودى نفسه على قدرته على الاستفادة من هذه الحقوق دون إلحاق الضرر بالسكان الأصليين، وحتى يمكننا أيضاً أن نتقدم إلى الأمام، وأن تكون هناك خطوات أكثر من جانب الشعب الروسى.. والسؤال يكمن فى: هل سيتسنى لأولئك الناس الجدد الطيبين من اليهود أن يقوموا بأمور كثيرة، وإلى أى حد هم قادرون على التعامل مع الجديد الرائع من أجل الارتباط الأقوى الحقيقى مع بشر مختلفين عنهم فى الدين والدم؟

زولا.. فوريسون.. جارودى

ومحاكم التفتيش الصهيونية

القضية مشهورة ومعروفة رغم مرور أكثر من قرن كامل على أحداثها. ويزيد من شهرتها وانتشارها أنها قد ظهرت فى توقيت مهم وحيوى اتخذت فيه قرارات مهمة ومصيرية لا تخص فقط الأشخاص، وإنما دولاً وشعوباً، وتاريخاً إنسانياً خضع للتعديل والتشويه والتزوير، ومازال يخضع لمحاولات الإبادة الكاملة والشاملة. كما أنها مست بشكل أو بآخر الكاتب الروسى أنطون تشيخوف وذاع صيتها فى العالم كله آنذاك، بل وتردد صداها مرة أخرى فى مايو ١٩٩٦ عندما حاول الناقد الصهيونى يفيم أيتكيند فى إطار حملة مكثفة طرحها من جديد في مقال بعنوان «إيفانون وروتشيلد» أرسله من باريس إلى مجلة «قضايا الأدب» الروسية يتناول فيه قصة «كمان روتشيلد» التى كتبها أنطون تشيخوف عام ١٨٩٤.

موضوع الحملة المكثفة مرتبط تحديداً بقضية المفكر الفرنسي روجيه جارودى الذى قام بنشر كتابه «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» فى ديسمبر عام ١٩٩٥ بباريس، الأمر الذى أدى إلى إثارة اللوبى الصهيونى فى فرنسا وحفزه على البدء فى حملة عالمية مكثفة ضد جارودى على المستوى الشخصى مدعماً إياها بمجموعة من القضايا التاريخية الخاصة بالموضوعات اليهودية. وبالتالى فنظراً لوجود يفيم أيتكيند فى باريس، أى بالقرب من الجزرة الثقافية - الفكرية، سارع على الفور بإرسال مقالته «إيفانوف وروتشيلد» التى نُشرت فى مايو ١٩٩٦ بمجلة «قضايا الأدب» الروسية.

وإذا كانت قضية إميل زولا قد وردت فى الموسوعات والقواميس الموسوعية مقرونة بقضية الكاتب الفرنسى - اليهودى ألفريد دريفوس، فمن العدل علمياً وتاريخياً أن نعمل على تضمين قضيتى كل من البروفيسور الفرنسى روبير فوريسون والفيلسوف روجيه جارودى فى نفس الموسوعات والقواميس، أو على الأقل تسجيلها فى موادنا الثقافية والفكرية من أجل العلم والتاريخ وإحياء الذاكرة.

المرعب فى الأمر أن اللوبى الصهيونى وأنصاره من اليهود ومن غيرهم فى جميع دول العالم وخاصة فى أمريكا وأوربا يعمل بنظام شديد الدقة والحيوية والقسوة. فعندما أعلن جارودى عن كتابه «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» جاء رد دور النشر الفرنسية أولاً بالرفض. ومع تمادى جارودى وتصميمه على نشر الكتاب، بدأت حملة مقالات منظمة تمس جوهر الموضوع بطرق مختلفة، ومنها مقالة يفيم أيتكيند التى كُتبت فى باريس ونُشرت فى موسكو، وكان كل ذلك مرتبطاً بحملة أخرى على المستوى السياسى - التاريخى - الاقتصادى ضد الحكومة السويسرية وبنوكها وحسابات النازيين فيها، والتأكيد على الأعداد المبالغ فيها للذين ماتوا من اليهود فى الحرب العالمية الثانية. ومع ذلك لم يفهم جارودى وأمثاله الإنذارات المتوالية. وربما يكون قد فهم الأمر جيداً ولكنه كمفكر فيلسوف له حجمه على خارطة القرن العشرين، بصرف النظر عن الاتفاق أو الاختلاف حول وجهات نظره وطروحاته، لم يفكر فى التراجع أو التخاذل أمام الحملة الشرسة للغول الصهيونى وأذياله فى فرنسا وغيرها بصرف النظر عن وجود تلك الأذيال داخل كواليس السلطة أو على رأسها، أو حتى خارجها.

من هنا تحديداً كانت أهمية عملية الربط بين قضية جارودى وفوريسون وقضية إميل زولا ودريفوس. ولعلنا لا نبالغ كثراً إذا أبرزنا علاقة هذه القضية بمجريات الأحداث فى روسيا نظراً لأن قضية زولا ودريفوس ارتبطت على نحو ما بالكاتب الروسى أنطون تشيخوف. ولا يخفى على أحد ما فعله اللوبى الصهيونى فى روسيا القيصرية، والذى ماتزال فصوله تتوالى حتى وقتنا هذا فى روسيا الاتحادية الجديدة. وما يزيد من أهمية تناول هذا الموضوع، أقصد موضوع جارودى وعلاقته التاريخية بالموضوع الروسى، أنه مرتبط بشدة بوضعنا الحالى أمام العربة الصهيونية فى المنطقة العربية من ناحية، وسيطرتها الكاملة على العديد من المواقع الهامة فى جميع أنحاء العالم فى ظل التقسيم الجديد للمناطق والحدود تحت ستار ما يسمى بالعولمة.

(١) قضية دريفوس وإميل زولا

فى عام ١٨٩٤ كشف الكابتن ألفريد دريفوس (١٨٥٩ - ١٩٣٥) عن عملية إرسال أو نقل برنامج كان قد أرسل بالفعل إلى الميجور شفارتزكوبن الملحق العسكرى الألمانى بباريس ومعه قائمة وثائق سرية فرنسية وعد كاتب الرسالة أو البرنامج بتقديمها فيما بعد . إلا أن المحكمة العسكرية الفرنسية بدلاً من بحث الموضوع أدانت الكابتن دريفوس بتهمة الخيانة والتجسس مستندة فى ذلك على أدلة ضعيفة أهمها الشبه بين خط الرسالة وخط دريفوس. وباءت محاولات الكابتن بالفشل فى إبعاد التهمة ونفيها . وحكم عليه بالتجريد من رتبته والسجن مدى الحياة عام ١٥٩٤ بجزيرة الشيطان (مستعمرة جويانا الفرنسية فى أمريكا اللاتينية) . وفى عام ١٨٩٦ أعيد النظر فى القضية بعد أن كشف الكولونيل جورج بيكار عن بعض الأدلة التى تثبت أن الميجور فرديناند استرهازى هو الذى كتب الرسالة وليس ألفريد دريفوس. ولكن السلطات الفرنسية عملت بشتى الطرق على إسكاته. إلا أن ماتيو دريفوس شقيق الكابتن ألفريد دريفوس كشف عن نفس الأدلة وطالب بإعادة المحاكمة . وأصبحت القضية مثار نزاع سياسى قسّم فرنسا إلى فريقين ظلا على عداء عنيف لمدة عشر سنوات تقريباً . وكان الملكيون والعسكريون والكاثوليك يرون إدانة دريفوس وعدالة الحكم الذى أصدرته المحكمة العسكرية الفرنسية، بينما أيد براءته الجمهوريون والاشتراكيون والذين لديهم موقف ضد صلاحيات رجال الدين وسطوة الكنيسة . وتغلب الفريق الأول فى البداية عندما قام الميجور هنرى بتزييف الأدلة وتوجيه جميع الادعادات لتبرئة استرهازى وإدانة دريفوس. ولكن حدث أن انتحر الميجور هنرى الذى قام بتزييف الأدلة، فأصبح من الضرورى إعادة النظر فى القضية، وبالفعل أعيدت محاكمة دريفوس، ولكن المحكمة العسكرية أدانته مرة أخرى عام ١٨٩٨ ثم عفا عنه الرئيس لوبيه بعد ذلك. وفى عام ١٩٠٦ برئت ساحة دريفوس وأعيد للجيش الفرنسى برتبته مع رد الاعتبار. وفى عام ١٩٣٠ نشرت وثائق شفارتزكوبن التى أثبتت براءة دريفوس بشكل نهائى وقاطع. وكان لقضية دريفوس فضل كبير فى الكشف عن انحطاط ودناءة الملكيين ورجال الدين مما عجل بالفصل بين الكنيسة والدولة .

كان الكابتن ألفريد دريفوس فرنسياً يهودياً، وضابطاً برتبة كابتن يخدم في الجيش الفرنسي. أي أنه مواطن للدولة الفرنسية ويتمتع بكل الحقوق ويخضع لكل القوانين. وعند توجيه تهمة التجسس، حاكمته المحكمة العسكرية مثل أي مواطن. ولكن عند سير القضية هاج الرأي العام ضده بتأثير وسائل الإعلام. ولاشك أن القضية قد أشعلت كراهية وحقد رجل الشارع كما أججت نيران العنصرية آنذاك. ولكن ألا يحدث ذلك مع أي إنسان أو مواطن يدان بتهمة الخيانة العظمى أو التجسس؟ ورغم كل ذلك فقد قدم الكولونيل الفرنسي جورج بيكار الأدلة على براءة دريفوس، وقام الكاتب إميل زولا مدافعاً بشراسة عنه بسلسلة من المقالات الشهيرة والخطب تحت عنوان «إني اتهم...» وذلك عام ١٨٩٨ لدرجة عرضته إلى حقد وكراهية أعدائه المعارضين في هذه القضية. ولكنه استمر في دفاعه موجهاً رسالة مفتوحة إلى رئيس جمهورية فرنسا تم اتهامه على أثرها بالافتراء على الجيش والحكومة الأمر الذي عرضه للإدانة فتعقدت قضيته مع قضية دريفوس في عام ١٨٩٨ و١٨٩٩، وصدر ضده حكم بالإدانة ففر إلى إنجلترا ومات هناك مختنقاً بعد عدة أشهر (عام ١٩٠٢).

الغريب في قضية إميل زولا أنها شاعت وانتشرت في جميع بلدان أوربا مقرونة بقضية ألفريد دريفوس، لكن الخطير في الأمر أنها كانت تحت غطاء ما يسمى بـ«معاداة السامية» لدى الشعب الفرنسي، أي أن الشعب الفرنسي المعادي للسامية (أي لليهود فقط) قد أدان دريفوس على اعتبار أنه يهودي، وأدان إميل زولا على اعتبار أنه مناهض لما يسمى بـ«معاداة السامية».

والجدير بالذكر هنا أن تيودور هرتزل الأب الروحي ومؤسس حركة الصهيونية الحديثة كان موجوداً أثناء فترة المحاكمات كلها كصحفي يغطي الموضوع. وبسرعة خاطفة ومريبة انتشرت القضية في الصحف والجرائد والموسوعات والقواميس الموسوعية. وانتهت القضية بانتصار القانون وأدى ذلك إلى ظهور الحكومة الفرنسية على أنها حامي حمى الحرية والقانون والديموقراطية بعد أن لطخت سمعة الضابط الفرنسي وأودت بحياة الكاتب العظيم. ولكن الأهم هو انتصار القانون الذي لم يفرق بين فرنسي وآخر على أساس الديانة أو العقيدة، إلا أن الحركة الصهيونية العالمية صورت الموضوع على أنه معاداة

للسامية. ولكننا نعود فنذكر أن القانون الفرنسي قد أحبط هذه المحاولة الابتزازية وانتصر للمواطن الفرنسي - اليهودي وبمساعدة مواطنيه الفرنسيين. ولكن للأسف الشديد فمع قدرة هذا اللوبي الصهيوني الشرس على تزييف الحقائق وتزويرها، شاعت القضية كما أراد لا كما حدثت وانتهت وأرادها التاريخ المبني على الوثائق.

لقد كان موقف إميل زولا نصراً عظيماً للإنسانية وللحرية، لأنه وقف في الأساس ليس ضد القانون، وليس مع دريفوس كمواطن فرنسي يهودي، وإنما وقف ضد تناول القضية قبل الحكم فيها، وإثارة الرأى العام، وإشاعة الفوضى والتفريق بين المواطنين الفرنسيين بصرف النظر عن انتماءاتهم، وليس من منطلق مناهضة ما يسمى بـ «العداء للسامية».

حملة ١٩٩٦ ومحاولة ابتزاز أنطون تشيخوف

بعد مرور أكثر من قرن على كتابة قصة «كمان روتشيلد» لأنطون تشخيوف، وقضية دريفوس (نُشرت القصة في ٦ فبراير ١٨٩٤ بجريدة الأنباء الروسية) أرسل البروفيسور الصهيوني يفيم أيتكيند بمقالة نقدية من باريس عن القصة لتنشر فعلياً بعدد مايو - يونية ١٩٩٦ بمجلة «قضايا الأدب» الروسية. تضمنت المقالة جزءاً كاملاً يحتوى على «مجموعة من الشهادات التاريخية والتأملات «على حد قول كاتب المقال». ولا بأس هنا أن نورد هذا الجزء الذى ينضح حقداً وكرهاً، بل تجنياً وتزويراً للتاريخ.

يقول أيتكيند: (لم يكن الموضوع اليهودى بشكل خاص يهم تشيخوف، إلا أنه عند بداية عام ١٨٩٤ اتسم هذا الموضوع بالأهمية في كل مكان فى أوربا. وكان تعداد اليهود فى روسيا أربعة ملايين ونصف المليون (فى حين كان تعداد السكان العام ١٢٢ مليون نسمة) وفى البلدان الأخرى مجتمعة كان تعدادهم أقل مرتين تقريباً - أى حوالى مليونين ونصف المليون نسمة. وعقب اغتيال القيصر الكسندر الثانى تردى بصورة حادة وضع اليهود الذين اعتبروا متآمرين: إذ سن قانون عن الحد المرسوم للمنطقة التى يسمح لهم بالسكنى ضمنها (سنة ١٨٨٢) علماً بأن اليهود منعوا من الإقامة فى المدن. واعتباراً من عام ١٨٨٦ سمح لهم بالانتماء إلى المعاهد الدراسية وفقاً لمستوى نسبة مخفضة (فى العواصم بنسبة ٣٪). ومنذ عام ١٨٨٩ منع اليهود من مزاولة مهنة المحاماة. وفى سنة

١٨٩١ حكم بالترحيل من موسكو على عشرين ألف يهودي من الحرفيين بغاية «تطهير المدينة الرئيسية»، وطرد الكثيرون من العاصمة وهم مكبلون بالأصفاد، وكل هذا على الأرجح كان حملة استفزاز مدبرة هدفها حمل اليهود اضطراراً على مغادرة البلاد. وأعلن الدوق ايجناتييف بصراحة: «إن خط الحدود الغربي مفتوح على مصراعيه أمام اليهود». أما بوبيدونوستسيف فقد صاغ السياسة الرسمية للدولة بهذا الخصوص على نحو بالغ الوقاحة بقوله: «ثلثهم يرحل، والثلث الثاني يموت، والثلث الثالث يندمج في المجتمع بالانصهار». وذلك الثلث الذي كان ينبغي أن «يموت» ساعدوه على ذلك بكل السبل، في أوائل الثمانينيات نظمت في روسيا حملات نهب وتحطيم بدموية متزايدة وكل ذلك بتشجيع من السلطات.

وفي مقالة عنوانها «المنزل رقم ١٣» المكرسة لحملة عام ١٩٠٣حدد كاتبها كرولينكو على نحو ما الروح العامة للمشاركين فيها (...) في هذا الوقت نفسه أيضاً كانت تنمو الأمزجة المتماشية مع ذلك في الغرب. ففي ألمانيا عام ١٨٩٣ حصلت الأحزاب المعادية للسامية على ١٦ مقعداً نيابياً في الرايخستاج (٢٥٠ ألف صوت) وفي الفترة نفسها اكتسب مؤلف الكتب النظرية التي أثارت ضجة كارل يوجين دورينج قوة تأثير شديدة للغاية. وقد اعتبر دورينج اليهود عنصراً قومياً وليسوا ممثلي ديانة، وأكد أن اليهود قد اخترعوا في حينه المسيحية بغية استعباد العالم. وكان واحد من أتباع دورينج وهو أوتو بيكيل الذي نظم الاتحاد المسيحي «الاشتراكي القومي» يرى في اليهودعنصراً قومياً يضم الطفيليين والاستغلاليين. وفي أوائل الثمانينيات وأواخر التسعينيات نشط أعداء السامية الفرنسيون وكان على رأسهم إدوارد دريومون مؤلف كتاب «فرنسا اليهودية» (سنة ١٨٨٦). وقد وزع هذا الكتاب حوالي مليون نسخة. وكانت القضية اليهودية بالنسبة إلى دريومون قضية مفصلية في تاريخ فرنسا: تصور أن طرد اليهود هو الطريق الوحيد المؤدي إلى التوفيق. وبالمناسبة فقد أجرى دريومون مشابهة لأهمية اليهود القدرية بدور الماسونيين والبروتستانت. وقد حرضت جريدة «الكلمة الحرة» الفرنسيين ضد من خلقوا بأنف معقوف وأذن ممطوطة وأخمص القدمين مفرطح، وراحة اليد مبلولة من العرق. وأن الأمة الوحيدة القادرة على وقاية نفسها من السقوط هي الأمة الروسية، إذ إن روسيا في

رأى دريومون تنتهج السياسة الصائبة المعادية لليهود. وفى السنة التى تهمنا وهى ١٨٩٤ جربت فرنسا الصدمة الأولى لقضية دريفوس التى استغرقت ١٢ عاماً، وفى عام ١٩٠٦ فقط برئت ساحة دريفوس نهائياً ورد إليه اعتباره. أما فى البداية عام ١٨٩٤ فقد كتبت جريدة دريومون «الكلمة الحرة» أن اليهود: «يدبرون وينفذون مؤامرة اليهودية العالمية(*) المرسومة قبل قرن من الزمان ضد جميع الدول المسيحية». ومن المعروف أن قضيةدريفوس تعقدت خلال عامى ١٨٩٨ ـ ١٨٩٩ بقضية إميل زولا الذى وجهت إليه بعد رسالته المفتوحة إلى رئيس فرنسا تهمة الافتراء على الجيش والحكومة. والحقيقة أن هذه الأحداث تعود إلى فترة أكثر تأخراً من كتابة ونشر قصة «كمان روتشيلد» إلا أن موقف تشيخوف حيال قضية دريفوس وزولا كان بالغ الأهمية، ولاسيما أنه كانت تربطه برئيس تحرير جريدة «العصر الحديث» المعادية للسامية وصاحب امتيازها سوفورين علاقة عملية وشخصية على مدى ١٢ عاما.

هذه مقاطع من ثلاث رسائل لتشيخوف تعود إلى فبراير ١٨٩٨: «أجل، زولا ليس بدرجة فولتير، ونحن جميعاً لسنا مثل فولتير، ولكن أحياناً توجد فى الحياة مثل تلك التيارات والظروف التى يكون معها اللون بأننا لسنا على درجة فولتير له أقل ما يمكن من الأهمية. تذكروا الكاتب الأديب كرولينكو الذى دافع عن حقوق الملحدين المولتانيين، وأنقذهم بذلك من الحكم عليهم بالنفى مع الأشغال الشاقة» (من رسالة إلى سوفوروف بتاريخ ٦ فبراير ١٨٩٨). «... وقفت إلى جانب زولا الفئة المثقفة الأوربية بأسرها فى حين وقف ضده كل ما هو، ومن هو كريه ومريب. إن جريدة «العصر الحديث» تشن حملة خرقاء بينما معظم الجرائد الروسية إن لم تكن تقف إلى جانب زولا فإنها تهاجم ملاحقيه» (من رسالة إلى و. ج. وميخائيل ب. من آل تشيخوف بتاريخ ٢٢ فبراير ١٨٩٨).

«... وفى قضية زولا تصرفت جريدة «العصر الحديث» على نحو دنىء. وقد تبادلنا الرسائل بهذا الصدد أنا وستارتس... ثم التزمنا الصمت معاً... ومهما يكن الأمر فإن الانهيال على زولا بالتهجمات وهو ماثل أمام المحكمة يشكل قضية لا تتناسب مع أخلاق

(*) انظر الملحق التفسيرى.

الأدباء الحقيقيين» من رسالة إلى ب. تشيخوف بتاريخ ٢٣ فبراير ١٨٩٨).

وإذا عدنا إلى روسيا في سنة ١٨٩٤ يمكن القول إن أمزجة معاداة اليهود احتدمت نظراً لتشجعيها من قِبل الحكومة. وفي الأدب الروسي كادت ملاحقة اليهود تغدو عادة متبعة. وقد كرس لها كُتاب لهم مكانتهم مثل إيفان اكساكوف، وبصورة خاصة ديستويفسكي، وأصبح «كتاب هاجال» (بتحرير هوفمان) المنشور في مدينة فيلنوس عام ١٨٦٩ حجة في ذم اليهود، وأعيد طبعه مراراً حتى عام ١٨٨٨، وقد اشتمل على عبارة (استنسخت بالأوفست) قالها شيللر وهي: «اليهود يشكلون دولة داخل الدولة». وفي أوائل التسعينيات أصبحت روسيا عرضة لحملات إدانة متكررة من الصحافة الأوربية وبالأخص البريطانية بسبب بربرية حوادث النهب والسلب والتحطيم الدموية التي استؤنفت عقب فترة انقطاع استمرت ٦ سنوات (١٨٨٣ - ١٨٨٩) وتبرأت الحكومة القيصرية من الاتهامات ولكن دون جدوى. وخلال النصف الثاني من عام ١٨٩٣ روجت إشاعة عن إصابة إلكسندر الثالث بمرض خطير، وصار متوقعاً تغير رأس النظام القيصري، وعلق السذج الآمال على ابن القيصر الذي أصبح في المستقبل نيقولاي الثاني، الذي ارتقى العرش على أثر وفاة والده يوم ٢٠ أكتوبر ١٨٩٤. أما في واقع الأمر فقد أصبح كل شيء أسوأ مما كان عليه: حيث وقع الهجوم الأول على اليهود عام ١٨٩٧، والثاني عام ١٨٩٨، وحدث هجومان عام ١٨٩٨، واثنان عام ١٨٩٩، وعدة هجمات في عامي ١٩٠٣ و١٩٠٤، ثم جرت مئات من أمثال تلك الهجمات عام ١٩٠٥، أحدها عام ١٩٠٦). ونكتفي بهذا القدر من مقالة الناقد الصهيوني.

لقد اعتمد أيتكيند على معلومات تاريخية مشكوك فيها (جزء من مصدرها غير بعيد عن تيودور هرتزل نفسه) وقام ببترها من أجل صياغة وجهة نظره. الأمر السيء أنه اعتمد على مقاطع من ثلاث رسائل لأنطون تشيخوف لم يرد فيها إطلاقاً أي شيء بخصوص قضية دريفوس أو معاداة السامية. والأسوأ أنه بدأ مقالته الضخمة بقوله: «في مركز قصة كمان روتشيلد تكمن المسألة اليهودية»، ثم يؤكد ذلك بتساؤل خبيث: «ولكن ما السبب الذي حدا بتشيخوف في أوائل عام ١٨٩٤ إلى تناول المسألة اليهودية، أو بالأحرى معاداة السامية لدى الروس؟». وهنا إشارة واضحة ومحاولة مفضوحة للربط بين تاريخ كتابة

القصة وبداية قضية دريفوس. غير أنه لم يحاول التطرق إطلاقاً إلى علاقة ما حدث فى روسيا وألمانيا وفرنسا بالتحضير للمؤتمر الصهيونى عام ١٨٩٨ ودور الحركة الصهيونية بقيادة هرتزل نفسه فى إشعال نار العداء ضد اليهود من مواطنى تلك الدول لإجبارهم على النزوح والهجرة إلى فلسطين. ولم يتطرق إلى دور اليهود فى ثورة عام ١٩٠٥ عندما كان القيصر يقتل ويشرد مئات الآلاف من الروس، وفى نفس الوقت يهجم عليهم اليهود فى أوديسا وفى أنحاء روسيا كلها فى محاولة مشابهة لما يمارسه القيصر، وذلك من أجل مغازلة القصر والضغط عليه واحتوائه من ناحية، والسيطرة على الاقتصاد والإعلام من ناحية أخرى. وليس هناك أوضح مما قاله المليونير اليهودى الأمريكى يعقوب شيف للوزير الروسى فيتى فى أمريكا سنة ١٩٠٥ : «أبلغ قيصرك أن الشعب اليهودى إذا لم يحصل على حقوقه طوعاً فسوف يحصل عليها بقوة الثورة». أى ثورة والروس فى عام ١٩٠٥ يموتون بعشرات الآلاف تحت أقدام خيول القيصر فى الشمال وبخناجر اليهود فى الجنوب؟!

لقد حاول أيتكيند فى هذه الحملة المنظمة، ومن باريس عاصمة النور، أن يضم تشيخوف إلى زمرة المناهضين لما يسمى بـ«معاداة السامية». بل وتزامنت هذه المقالة المشبوهة مع مجموعة من المقالات المسمومة فى الصحف والمجلات الروسية تشير إلى زواج تشيخوف من الممثلة الروسية ـ اليهودية أولجا كنيبر وعلاقة أختها بابن عم تشيخوف ثم سفر الثانية إلى ألمانيا ومنها إلى إسرائيل بعد ذلك.

ونتيجة للجو المسموم الذى تعيشه روسيا حالياً، فمثل هذه الافتراءات والتزييفات تجد رواجاً غير طبيعى وخاصة أن جميع قنوات التليفزيون الروسى مملوكة للمياردريرات يهود معروفين. ومع ذلك فقد تزوج تشيخوف من أولجا كنيبر ـ تشيخوفاً عام ١٩٠١، أى بعد موضوع دريفوس وقبل موت زولا بعام واحد. كما أن كنيبر لم يكن لها أية علاقات مع الدوائر اليهودية أو الصهيونية الموجودة فى روسيا، فقد كانت ممثلة من أكبر نجوم مسرح موسكو الفنى بقيادة قسطنطين ستانسلافسكى ولم يكن لديها وقت للانضمام إلى اللوبى الصهيونى فى روسيا آنذاك والانحدار إلى مستنقع الابتزاز عبر مصطلح «معاداة السامية» سيء الذكر. ناهيك عن أن تشيخوف نفسه لم يفكر فى يوم من الأيام (ولا يوجد فى

مذكراته أو رسائله دليل واحد على ذلك) فى مثل هذه القضية لأن عالمه النبيل قبل كل شيء كان ضد منهج الابتزاز والعنصرية والتمايز، وكان ضد تزوير التاريخ والتراث ونفى الآخرين.

لقد أشار أيتكيند فى مقالته إلى كل من إيفان أكساكوف وديستويفسكى على اعتبار أنهما من المعادين للسامية، وخص الثانى تحديداً، والتاريخ يعرف موقف ديستويفسكى من هذه القضية ولكن لا بأس من عودة القارئ الكريم إلى واحدة من أهم ما كتب ديستويفسكى في هذا المجال بعنوان «المسألة اليهودية»، والتى نفى فيها نفياً قاطعاً تهمة معاداته للسامية. أما فاسيلى شولجين فقد فلت بالصدفة - وبحكم أن المقال أدبى - من بين أنياب يفيم أيتكيند. فالسياسى الروسى فاسيلى شولجين قد كتب كتابه الشهير «ما لا يعجبنا فيهم» بشكل صريح وواضح حول معاداة السامية، وقام بسرد تاريخى رائع لممارسات اليهود فى روسيا وضد الشعب الروسى. الطريف أن الكتاب صدر فى فرنسا عام ١٩٣٠، ولم يصدر فى روسيا إلا فى عام ١٩٩٤. وقد قضى شولجين حكماً مؤبداً من عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٥٦ (بسبب قضية أخرى) ومات عام ١٩٧٦ فى مدينة فلاديمير عن عمر يناهز ثمانية وتسعين عاماً.

إن الحملة الصهيونية المسعورة فى علاقتها بمحاكم التفتيش الفرنسية فى نهاية القرن العشرين قد أفصحت عن وجهها الخبيث والمشوه الذى يعتبر بحق نقطة سوداء أخرى فى الثوب الباريسى الناصع. وإذا كانوا قد نجحوا فى ابتزاز إميل زولا وأنطون تشيخوف، فأعتقد أن ديستويفسكى وأكساكوف وشولجين (وطبعاً وليم شكسبير نفسه) قد فوتوا عليهم الفرصة، ولن يقدم أحد منهم اعتذاره للوبى الصهيونى كما قدمته حكومات محترمة فى دولة عظيمة!! الجدير بالذكر هنا أن الحركة الصهيونية ودولة إسرائيل التى لا تنفصل بأى حال من الأحوال عن هذه الحركة قد تمكنتا من انتزاع اعتراف كامل من (الفاتيكان) - البابا يوحنا بولس الثانى بحدوث عمليات إبادة شاملة ضد اليهود فى ألمانيا النازية الأمر الذى دعا عديد من الدول ومن بينها طبعاً الفاتيكان إلى تقديم مشروعات فى غاية الخطورة بخصوص تغيير بعض فقرات الإنجيل. وقد أثارت حادثة ظهور كتب الإنجيل الجديدة فى روسيا - بعد التعديل - سخطاً شديداً بين عامة الناس حيث تم تغيير جملة

«***اللعنة على من خان المسيح***» إلى «***اللعنة على كل من يخون المسيح***»، وبدلاً من تحديد خائن المسيح عليه السلام على المستوى التاريخي والديني والأخلاقي، فقد تم تعميم «تعويم» الأمر. ولاشك أن ذلك هو جزء من اعتذار أتباع المسيح عليه السلام لأبناء الرب - الحملان الوديعة.

أما أخطر ما في كلام يفيم أيتكيند في هذا الجزء، وهو ما يهمنا في موضوعنا، فهو أن تعداد اليهود في روسيا عام ١٨٩٤ كان ٤ ملايين ونصف المليون. وهذا كلام منافي تماماً للحقيقة وللتاريخ على حد سواء، لأن تعداد المواطنين اليهود في روسيا في ذلك الحين لم يتعد المليونين وتسعمائة ألف نسمة فقط لا غير. فإذا أضفنا هذا الرقم إلى كل يهود أوربا (مليونان ونصف المليون؟) يصير المجموع الكلي ٤,٥ ملايين نسمة على الأكثر. وهذا العدد مشكوك فيه أيضاً ويجب مراجعته.

(٢) قضية روبير فوريسون

«أنا أشك.. إذن فأنا مهتم»

في عام ١٩٧٤ قام البروفيسور روبير فوريسون أستاذ الأدب الفرنسي الحديث وتحليل المعلومات بجامعة السوربون بتوجيه مجموعة من الرسائل إلى عدد من الشخصيات اليهودية الكبيرة تضمنت استفساراً عن حقيقة وجود وثائق وصور فوتوجرافية الأصلية، وأفصح في رسائله إنه لم يعثر في مركز الوثائق اليهودي بباريس ولا في مؤسسة زايتجيشيشتي بميونخ على أي شيء أصلي يؤكد ما أشيع عن وجود غرف الإعدام بالغاز أثناء الحرب العالمية الثانية في ألمانيا النازية. وعندما نشرت إحدى رسائله بصحيفة (يديعوت أحرونوت) أثارت جدلاً حاداً في الأوساط الصهيونية الأمر الذي أدى إلى طرده من السوربون!!

إلا أن البروفيسور راح يعمل بهدوء ودأب على مشروعه التاريخي الوثائقي المهم. وبعد ٤ سنوات عملها في جامعة ليون الفرنسية، أعلن عام ١٩٧٨ عن مجموعة من نتائج أبحاثه وتحليلاته بأن غرف الغاز في ألمانيا النازية لم يكن أبداً حقيقة تاريخية موثقة، وأن هتلر لم يصدر أوامره إطلاقاً بإعدام أو بتصفية المختلفين معه في العنصر أو الدين، وأن كل ما يشاع عن ذلك ليس له أساس من الصحة، وليس هناك ما يثبته من وثائق أو صور، وهو محض كذب سمح بعملية احتيال سياسية اقتصادية في الأساس تعتبر إسرائيل هي أكبر دولة مستفيدة منها مادياً. وبعد حوالي شهر من نشر بيان فوريسون، وفي يوليو ١٩٧٨ قام ريتشارد هارورد بالتأكيد على بيانه المسمى «حقيقة تاريخية رقم ١» على أنه ليس هناك أي يهودي قد قتل أو أبيد بسبب انتمائه العنصري أو الديني، وأن عدد اليهود في ألمانيا النازية عام ١٩٣٣ وفي جميع الدول التي احتلتها ألمانيا بعد ذلك ما يقرب من ٦,٥ مليون نسمة، وقد انخفض هذا العدد إلى ثلاثة أو أربعة ملايين عام ١٩٤١ نتيجة لهجرات اليهود أو هروبهم إلى أعماق الدول الكبيرة مثل الاتحاد السوفييتي. ويتساءل هارورد في بيانه: هل يمكن أ ن يعدم ٦ ملايين شخص في مكان لا يوجد به سوى ثلاثة أو أربعة ملايين

بقي أغلبهم على قيد الحياة؟!

وفي يناير عام ١٩٧٩ نشرت جريدة «لوموند» رسالة لفوريسون يستعرض فيها خلاصة أفكاره حول هذه القضية، وجاء فيها على لسانه: «بعد ١٤ عاماً من التأمل والتفكير، تلتها ٤ أعوام من البحث المستمر، صرت متأكداً أنني أواجه كذبة تاريخية. لقد قمت بزيارة معتقلي «أوشفيتز» و«بيركينو» حيث عرضوا لنا غرفة غاز أعيد بناؤها حديثاً وخرائب يقال إنها أفران لحرق الجثث. عندئذ قمت بتحليل آلاف الوثائق ومن ضمنها الموجودة بمركز الوثائق اليهودية في باريس والأرشيف والصور الفوتوغرافية والشهادات المكتوبة، ولاحقت بأسئلتي المختصين والمؤرخين. ثم بحثت عن أى معتقل سابق يمكنه أن يؤكد وجود غرفة غاز واحدة رآها أو حتى سمع عنها. ولكن للأسف لم يحدث ذلك. وفي المقابل لاقيت مجموعة من الإثباتات الخاطئة والمزيفة التي تليق بمحاكمات السحرة، والتي تهين القضاء والعاملين فيه، وانتهى الأمر بإهانتي وإزعاجي، بل وشتمي وضربي».

وفي صيف عام ١٩٧٩ صرح لمجلة «ستوريا اوليستراتا» بأن عدد الأوربيين الذين ماتوا أو قتلوا في الحرب العالمية الثانية حوالي ٤٠ مليون شخص من بينهم حوالي مليون يهودي، وعلى الأرجح بضعة آلاف، إذا استثنينا الذين ماتوا بفعل الأمراض والمجاعات والذين قاتلوا بالثياب العسكرية في صفوف الحلفاء. ولدى وثائق تؤكد أن عدد الذين قتلوا في معتقل «أوشفيتز» لا يزيدون على ٥٠ ألفاً (من اليهود وغيرهم) وليس ٤ ملايين كما أشيع خلال فترة طويلة من الزمن، وقبل أن يكتفي العالم ويقر رقم المليون الذى تتبناه مؤسسة التاريخ الحديث بميونخ.

وعندما لم يتمكن فوريسون من نشر نتائج أبحاثه وتحليلاته، ووجد عناداً شديداً وتحدياً وصلابة في مجرد النشر من أجل المناقشة فقط، قامت مجموعة من المثقفين الفرنسيين بجمع الملف وإصداره في كتاب بعنوان «حقيقة تاريخية أم حقيقة سياسية» وقامت بنشره دار «لا فيلي توب» وهي نفس الدار التي نشرت كتاب جارودى «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية». وهنا لا يسعنا إلا التأكيد أن هؤلاء المثقفين الفرنسيين الذين قاموا بمساعدة فوريسون لا يقلون عن إميل زولا شجاعة وإخلاصاً وشرفاً. وكما

وقف زولا وتشيخوف وآخرون فى جميع بلدان أوربا ضد المهزلة / المحاكمة التى تعرض لها دريفوس، من منطلق إنسانى صرف يخص شرف الإنسان وإخلاصه بعيداً عن المصطلحات الابتزازية والعنصرية، قام المثقفون الفرنسيون من نفس المنطلق بالوقوف إلى جانب فوريسون من أجل حرية البحث والتحليل والنشر، ومن أجل تصحيح التاريخ وتقنينه من النظرة العرقية العنصرية. ومع ذلك فلم يتمكن المثقفون من مناصرته حتى النهاية، إذ إنه فى عام ١٩٨١ تم القبض على فوريسون ومحاكمته ليس بسبب الأبحاث التى كانت صحيحة ولم يستطع أحد التشكيك فيها، وإنما بسبب كلمة (احتيال) التى وردت فى حديثه إلى إذاعة أوربا: «*إن غرف الغاز والمذابح الهتلرية المزعومة تشكل كذبة تاريخية واحدة سمحت بعملية احتيال سياسية - اقتصادية ضخمة لم يستفد منها أحد سوى الصهيونية العالمية ودولة إسرائيل. وأبرز ضحاياها هما الشعب الألمانى، وليس حكامه، والشعب الفلسطينى*».

(٣) قضية جارودى... مأزق عربى جديد

إننا فى مأزق حقيقى تزيد من تعميقه حالة الفوضى الدستورية والقانونية، والحرية المنتقصة والديموقراطية المشوهة التى نعيشها، والتى تجعلنا نشعر بالدونية أمام الآخر، الأمر الذى يجعلنا نفكر ألف مرة فى المشاركة فى أية مناقشة كبيرة - أقصد دولية - فالبعض يقول إن جارودى بكتابه هذا أراد محو عقدة الذنب لدى أوربا وهى أجمل وأعظم ما فيها: الشعور بالجريمة فى حالة محاولة إبادة شعب أو مجتمع أو عرق. هذا أفضل إنجاز أخلاقى - سياسى - حقوقى بعد الحرب العالمية الثانية.

بالطبع نحن متفقون تماماً مع هذا الكلام فى عمومه. لكن هذا الشعور بالذنب وبالجريمة - للأسف الشديد - يخص فقط «اليهود» صهاينة كانوا أو مواطنين بسطاء. كما أنه لا ينسحب بأى حال من الأحوال على «الغجر» و«الهنود الحمر»، ولم ينسحب أبداً على مذابح الفرنسيين فى الجزائر وسوريا وفيتنام، ومذابح الإنجليز فى مصر والهند وإفريقيا، والمذابح أو الإبادة الجماعية الذرية فى هيروشيما وناجازاكى التى ارتكبها الأمريكيون مع سبق الإصرار والترصد، ومذابح العصابة الصهيونية بداية من دير ياسين وتل الزعتر وانتهاء بقانا (ولا أحد ينسى مذابح الإبادة الجماعية فى صبرا وشاتيلا). إن هذه المذابح تحديداً تخص قضية الإبادة العرقية كما يدعى البعض أن مذابح اليهود فى ألمانيا النازية كانت بغرض الإبادة العرقية. وهنا يظهر سؤال: هل مذابح هتلر الهجمية اللاإنسانية (والتى لا نختلف مع أحد عليها) كانت موجهة فى الأساس ضد اليهود تحديداً؟ أم أنها كانت موجهة ضد البشرية جمعاء؟ هل اليهود قد أصبحوا ممثلين للبشرية؟ أم أن كل من راح ضحية هذه الحرب الدنيئة ينضوى تحت هذا اللواء؟

لقد ذهب ٢٥ مليون روسى، وأبيد خُمس الشعب البيلاروسى عن بكرة أبيه، وحوصر أطفال لينينجراد ٣ سنوات كاملة حتى إن الناس كانوا يتغذون على لحوم الموتى، وراح أيضاً ٩ ملايين من الشعب الألمانى، وملايين الفرنسيين والإنجليز والبولونيين وإلى جانب هؤلاء بالطبع مواطنى تلك الدول من الأقليات الأخرى مثل الغجر واليهود. فهل هجم

هتلر على دولة يهودية ما وأباد سكانها بحجة العرق أو الدين؟ لكنه فعل ذلك مع بلاروسيا: أباد الخُمس، وساق خُمساً إلى معسكرات الاعتقال. فعل ذلك مع كل الدول الأوروبية حتى التي تواطأ حكامها معه. لا يمكن أبداً إنكار همجية هتلر والفكر النازي ـ الفاشي من ألفه إلى يائه، وليس هناك أحد مع إبادة الأقليات المختلفة دينياً وعقائدياً وعرقياً، إلا أننا لسنا أيضاً مع التعامل بأكثر من وجه مع هذه القضية، ولسنا مع سن القوانين المضادة ـ في فرنسا أو في أية دولة عربية أو إفريقية ـ لحرية البحث والفكر والنشر، ولسنا مع ابتداع وإطلاق المصطلحات «العمومية» التي تقتصر في خصوصيتها على أقلية معينة مثل مصطلح «معاداة السامية»، الأمر الذي يجعل هذه الأقليات تمعن في ابتزاز الآخرين. إننا لا نشكك في محارق هتلر، ولكننا نناقش الأعداد التي تضخمت بفعل الزمن والابتزاز والتزوير. لا أحد يناقش ديموقراطية الغرب وخاصة فرنسا، ولكننا نتأمل المعايير التي يتعامل بها الغرب وفرنسا تحديداً مع الآخرين بما في ذلك معايير الحرية والديموقراطية، إننا عندما نناقش ونشكك في الأعداد المبالغ فيها من يهود «الهولوكوست»(*) لا نناصر بذلك اليمين المتطرف والنازيين الجدد في فرنسا وغيرها. ولكنها «خانة اليك»، إنه المأزق الذي لا فكاك منه، فهو مجرد تقاطع في المواقف يمكن أن تستفيد منه أطراف كثيرة ولا يمكننا الإحجام عن موقفنا لمجرد أن هناك من يستفيد منه، كما لا يمكننا أن نقف ساكنين مهما كان الطرف المستفيد.

إن قانون فابيوس ـ جيسون قد سن عام ١٩٩٠ نتيجة لتجاوزات اليمين المتطرف في فرنسا، سن ضد العنصرية بكل أشكالها. ولكن للأسف نجد الجميع يوجهونه فقط نحو ما يسمى بـ «معاداة السامية». وهانحن نحاصر أكثر في «خانة اليَكْ» لنجد أنفسنا بقدرة قادر في مواقف مناهضة لكل ما هو غربي (للأسف الشديد). لقد شاء الغرب وفعل: قصر المصطلح الابتزازي «معاداة السامية» على كل ما هو يهودي، وعلى كل ما يمت بصلة قريبة أو بعيدة لدولة إسرائيل والحركة الصهيونية العالمية. هنا لا يمكن بحال من الأحوال مناقشة القانون الفرنسي وملابساته، ولا إدانة القضاء الفرنسي وقوانينه. فعلى الأقل هناك في فرنسا يوجد قانون، وهذا القانون فعّال ويستخدم في صالح أو ضد جميع

(*) انظر الملحق التفسيري.

المواطنين على حد سواء، ومن الأجدى بالطبع أن نلتفت إلى (خيبتنا) هذه الظاهرة الغائبة لدينا فى كل البلدان العربية بلا استثناء. عندنا لا يوجد قانون، وإن وجد فهو غير فعال وغير مستخدم، وإذا تم تفعيله وتشغيله، فإن ذلك يسير بشكل يندى له الجبين. ومع ذلك فليس من المعقول أن يقف المثقف العربى تجاه هذه القضية مكتوباً الأيدى لأنها إما تخدم اليمين المتطرف والنازية الجديدة فى فرنسا وأوربا بالكامل، أو تضعه فى مأزق الشيزوفرينيا، والتدخل أو التعدى على قوانين الدول الأخرى الأكثر تقدماً وتطوراً فى هذا المجال. وإذا سلمنا بالتقاعس حتى لا نتعرض للاستهزاء، فلابد أن ينكفئ المثقف العربى - الرافض لكل هذه الأوضاع فى بلاده أو فى أى مكان آخر - على ذاته وعلى خيبته الناقعة حتى لا يستفيد ولا يفيد أو يتعرض للتورط.

إننا لا نهين فرنسا، ولا القانون ولا القضاء الفرنسى. بل نناقش الأمر مثلما نناقش الأوربيون كل أمور العالم بما فيها أمورنا. إننا نرفضها عندهم كما نرفضها عندنا، أى أننا لا نشكك فى الديموقراطية الغربية أو الفرنسية (ولكن ماذا يحدث لو شككنا؟ هل هذا غير مسموح به لنا؟) بل نتأمل الموضوع بنفس الإنسانية والجزع الأوربيين. أم أن ذلك ممنوع علينا لمجرد أن القانون أيضاً لا يطبق فى بلادنا بشكل متحضر، ولأن الديموقراطية العربية مجرد واجهة لتسيير أمور من لديه أمور؟ ألسنا ضد ذلك حتى فى بلادنا؟ ألسنا ننادى بتطبيق القانون واحترام القضاء واستقلاليته؟ لكن ما ذنبنا إذا كانت أصواتنا وحياتنا ومستقبلنا تضيع هدراً؟ هل حكم علينا بوضعنا هذا أن ننكتم ونخرس ونفقد الذاكرة والمشاركة؟ بالطبع لا. ففرنسا بلد الثقافة والنور والقانون الحرية والديموقراطية... إلخ ولكن فرنسا هى أيضا دريفوس وزولا وروبير فوريسون وجارودى، وهى اليمين المتطرف والنازية الجديدة، وفرنسا هى نتاج مجازر عديدة فى مصر وروسيا والجزائر. ومع ذلك فهناك قانون يجب على الجميع احترامه. ولكن إذا سن القانون من أجل أهداف خاصة، ومن جراء عقد الذنب والشعور بالجريمة. فذلك يستحق التأمل والمناقشة. فأمام هذا القانون لن يتساوى العربى واليهودى والإفريقى، وسوف ينسحب هذا القانون على نظرة الإنسان الفرنسى لغيره من الدول الأخرى، وهذا ما نعانيه الآن من المواطن الأمريكى فى ظل العولمة والكوننة وما خفى كان أعظم. إن الروح الغربية الشفافة

العطوفة لا تدمى إلا أمام كلمة «معاداة السامية»، ونجد الغرب كله يرتجف عطفاً وإشفاقاً (وهذا أجمل ما فيه على حد تعبير بعض الذين هبوا لإدانة المثقفين العرب فى دفاعهم عن حق البحث والنشر والتشكيك) أمام اليهودى «السامى» روحاً وأصلاً وتاريخاً!!! مقدماً له فروض الولاء والطاعة. ولكن من سوء الحظ فتلك الفروض، وذلك المقابل تقدم كلها بحرص وعناية وإصرار ليس من تاريخ ودم ومستقبل المواطن الأوربى، وإنما....

رهان على أشخاص.. أم على مواقف؟

لقد بدأت الحملة ضد جارودى وكتابه معاً فى الغرب طوال عامى ١٩٩٦، ١٩٩٧ ولكن فى عام ١٩٩٨ فقط بدأت الحملة العربية كرد فعل ينطوى على أسباب كثيرة وأهداف متعددة معروفة تماماً لدى أى متابع بسيط للأمور. ومع ذلك فليس هناك أى مانع أن يتخذ المثقف العربى مواقف رد فعل تجاه أية ظاهرة، أوضد أى قانون سواء فى بلده أو فى أى بلد آخر. ولكننى أعتقد أن موقف رد الفعل عندما يأتى عن طريق الرهان على الأشخاص يصبح نوعاً من أنواع الانتقام أوالتبجيل المطلق، أو شكلاً من أشكال الشماتة والتضليل أو التبرير. القضية ببساطة أن الرهان على الأشخاص يضع الإنسان فى مآزق عديدة، وكعادة المثقف العربى تحديداً، فأغلب انتفاضاته وحالات الحمى التى تصيبه تأتى دوماً سريعة ومَرَضية ومنقوصة لأنها تعتمد دوماً على الرهان الشخصى والفردى على شخص ما بعينه، ومن ثم تأتى فى النهاية مبتورة وغير علمية أو ممنهجة. لا أحد يمكنه إنكار، أو التشكيك فى أن جارودى فيلسوف ومفكر له مكانته كما ذكرنا آنفاً. وحتى إذا أنكر البعض ذلك وحاولوا تبسيط وتسفيه الأمر فهذا لن يقلل فى أى حال من الأحوال من قدر الرجل. ولكن لماذا جارودى تحديداً فى بؤرة النقاشات الدائرة (بالطبع جارودى هو المعنى بالأمر لأنه صاحب الكتاب ومؤلفه، ولكننى أقصد تحديداً لماذا شخص جارودى وليس الكتاب)؟ إنه واحد ضمن عشرات تناولوا هذا الموضوع مثل آرثر بوتز وريتشارد هاروود وديتليب فيلدر وستاجليش فيلهالم وبول راسينيه.. وبالتالى فالرهان على الموقف هنا واتخاذ البحث العلمى والإحصائيات مرجعية للحكم والتعبير وقاعدة للمنهجة والصياغة هى الأمور التى من المفترض أن تتم بهدوء شديد ودون عصبية. جارودى كفيلسوف قد تنقل بين مذاهب ونزعات فلسفية عديدة، وتنقل أيضاً بين ديانات سماوية

ومذاهب روحية وضعية مختلفة، إلا أن جميع هذه النقلات تمتلك جميعاً مبرراتها في المنظومة الفكرية لدى جارودى، وتمتلك أيضاً مرجعيتها التاريخية والديموقراطية والفلسفية في الغرب. معنى ذلك أن الرجل إنسان مثل كل البشر يصيب ويخطئ ويراجع نفسه ويبحث ويحلل، ويمارس كل الأشياء الأخرى. أما إذا انتقلنا إلى عملية الرهان على المواقف - طبعاً في زمنها وفي إطار ظروفها وشروطها التاريخية - حتى نقترب قليلاً من الموضوعية والعقلانية (في كثير من الأحيان يتخذ هذا الانتقال ذريعة تبريرية لمواقف شخصية وانتهازية، ولكن الانتقال هنا مشروط بالوضوح والعلمية، ويحسمه فقط البحث العلمي الذى يتناول الظاهرة من عدة جوانب في ظروفها المرتبطة بها تاريخياً وسياسياً... إلخ). فنجد أن ذلك أحد أهم الأمور أو الوسائل التى تمكننا من تناول الظواهر والأفكار والجوانب الإنسانية والنزعات الفكرية دون تجن أو تضليل، ودون إنكار الآخر ونفيه. وأقصد هنا ليس جارودى شخصياً، وإنما القانون الفرنسى، بل المجتمع الفرنسى بكل اتجاهاته وممارساته. وكما ذكرنا سابقاً، فليس ذنبنا أننا ولدنا في مجتمعات تسمى بالعالم الثالث (سواء متخلفة أو متقدمة، فهذه قضية أخرى). كما أن ذلك ليس مبرراً لأن يتصور البعض أننا نتجرأ على انتقاد مجتمع آخر له الفضل في إرساء قواعد الحرية والديموقراطية (مع أنه هو الذى يقوم بخرقها في كثير من الأحيان). وذلك التصور الأحادى الذى يمثل الوجه الآخر للرهان على الأشخاص هو ذاته الذى يؤصل ويرسخ الإحساس بالدونية والتخلف. ومع ذلك أجد أننى متفق جزئياً مع هذا التصور من زاوية (انظر في بيتك قبل أن تحملق في بيوت الآخرين). ولكن من قال إن أغلب المثقفين العرب في حال رضاء عما يحدث في بلادهم؟ إن هذه المقولة المبتورة لا يمكنها أن تمنع أحداً من تناول الظواهر في دولته أو في أية دولة أخرى طالما تمتلك هذه الظواهر وجوهاً متعددة - تخصنى وتخصهم - لجوهر واحد نسعى إليه جميعاً وعلى حد سواء. وهذا الجوهر معروف ومحدد - نسبياً - بالحرية والديموقراطية وحرية الفكر والبحث العلمى.. إلخ ولكن ببتر المواقف وتجزئة الظاهرة، ليس بالطبع كى نقوم بتحليلها وبحثها ومنهجتها ثم تجميعها مرة أخرى ووضعها في سياقها العلمى المنهجى، وإنما للأسف من أجل الانطلاق من جزء واحد إلى آراء قاطعة ومقولات جاهزة. وهذا السبب تحديداً هو الذى

دفع العديد من الفلاسفة والمثقفين الغربيين إلى اتهامنا بالجمود والتخلف وعدم القدرة على التحليل والإبداع لأننا نملك عقلية تجميعية تبريرية وليست عقلية تحليلية منهجية، وهو نفس الأمر الذى عَقّد قضية جارودى بين المثقفين العرب وجعل البعض منهم يتطاول على الآخر متهماً إياه بأشياء صارت مضحكة...

أما الوجه الأكثر إعتاماً فى هذه القضية، والذى طرحه بعض المثقفين الأفاضل فهو أن جارودى قد أنكر المجازر والمذابح الجماعية. وعموماً فموقف الرجل واضح فى كتابه: لم ينكر أى شىء من ذلك، ولم يخف فهمه للعلاقة أو الفرق بين اليهودية والصهيونية، ولكنه ناقش الأعداد الضخمة (أو التى تضخمت فى رأيه) للقتلى من اليهود فى الحرب العالمية الثانية بناء على إحصائيات ومعطيات علمية وبحثية معتمدة خلال سنوات طويلة لعلماء وباحثين فرنسيين وأجانب، ويهود أيضاً. ولكن رأى بعض مثقفينا أن التأكيد على المجازر الجماعية لليهود فى الحرب العالمية الثانية يعطينا - نحن العرب - الفرصة للتأكيد على المجازر الجماعية التى ارتكبها اليهود فى حق العرب قبل وبعد عام ١٩٤٨ وحتى وقتنا هذا. ولكن هل هذا كلام منطقى؟ هل يحاول البعض القيام بنفس اللعبة المقيتة التى مارسها ومازال يمارسها الصهاينة؟ وهل لدى هؤلاء تصور بأن العالم - وخصوصاً الغرب - سوف يسمع لبكائهم وعويلهم كما ينفطر قلبه لبكاء وعويل أخوة يوسف المدعين؟ إن الفكرة فى حد ذاتها ابتزازية، وبدلاً من مناصرة البحث العلمى والتاريخى والاستمرار فيه وتطويره، نحاول ضرب رءوسنا فى الحائط والتسلل إلى الغرب، وإلى العالم كله من أحط وأسوأ الطرق ألا وهو الابتزاز القائم على العنصرية. ومع ذلك فلا أحد ينكر المجازر حتى جارودى نفسه فى كتابه المذكور.

فما القضية إذن؟

القضية ببساطة هى خليط من الإحساس بالدونية وجلد الذات والخوف من قول الحقيقة - كل الحقيقة - والخجل من مراجعة منهج تناول الأمور، وطبعاً النظرة الأحادية المبتورة التى تنطوى على خداع للنفس وللآخرين، وأشياء أخرى كثيرة تصنع مع ما سبق لوحة غامضة ومشوهة تتخللها صراعات شخصية ومكاسب فردية آنية تكرس فى مجملها لأزمات أشد وأعمق. ففى الوقت الذى يرى فيه جميع المثقفين، وعامة كل

الشعوب العربية، أن الانفتاح على العالم والتعامل مع الكمبيوتر والإنترنت، والمشاركة في غزو الفضاء والإسهام في كافة القضايا الجماعية في العالم من الأمور المهمة والضرورية، نجد البعض منهم - وخصوصاً العديد من المثقفين - يجزئ الموقف ويرى أنه لا يجب مناقشة موضوع مثل هذا لأنه يخص شخصاً أجنبياً، ويتناول دولة أجنبية لها السبق في إرساء قواعد وأصول حرية الفكر والديموقراطية والاستقلال وحرية الإنسان. لا أحد ينكر ذلك، ولكننا لا نراهن على أشخاص ولا على دول، بل على مواقف، مواقفهم تجاهنا ومواقفنا تجاههم. وقد استطاعت هذه الدول - مثل فرنسا مثلاً - أن تحل جزءاً من المعادلة الصعبة. فهل ينكر أحد أن هذه الدول فيها حرية وديموقراطية وتداول للسلطة؟

الأخيرة بالذات قامت بحل العديد من المشاكل والأزمات في تلك الدول ومع الآخرين أيضاً. وبالطبع لا أحد يمكنه أن ينكر عكس ذلك في بلادنا كلها دون استثناء، أن تداول السلطة في فرنسا مثلاً، جعلها أكثر حرية وديموقراطية وإنسانية. جعل بعض حكوماتها تنكر أو تستنكر ما فعلته سابقاتها، بل وتقوم بتقديم اعتذارات وتعويضات لأشخاص ولشعوب في سبيل تحسين العلاقات وتبادل المصالح التي لا تعرف أشخاصاً ولا حكومات وإنما مواقف دقيقة ومحسوبة مع النفس ومع الآخرين. في المقابل نجد أننا لا نستطيع اتهام أحد بأي شيء رغم أن كل المصائب قد ارتكبت بحقنا طوال قرون عديدة (لا يمكننا أن ننكر مساهماتنا العظيمة في ذلك أيضاً)، بل لا تستطيع حكوماتنا الاعتراف بأخطائها، وما أكثر هذه الأخطاء! لأنها مازالت في السلطة، وسوف تظل إلى أبد الآبدين.

وبالعودة إلى موضوع مثل موضوع جارودي، نجد أن القضية تلقي بظلالها ليس فقط على موقف آني، ولكنها مرتبطة بمواقف عديدة بدأت منذ قرون، أوردنا منها فقط ما يخص موضوعنا مثل قضية دريفوس وزولا وفوريسون، وفي التاريخ الكثير من هذه الأمثلة. الأهم من ذلك أن خلف هذه القضية تقف الحرية والديموقراطية «ومبدأ تبادل السلطة» الذي لا ينفصل بأي حال من الأحوال عن الحرية والديموقراطية الأمر الذي دفع العديد من المثقفين العرب، بوعي أو بدون وعي، إلى السخرية من زملائهم عندما حاولوا الوقوف إلى جانب هذه القضية، لنجد في نهاية الأمر أن الموضوع في غاية الأهمية ليس من منطلق العداء للصهيونية أو ما يسمى بالسامية (ومع ذلك لا أحد يمكنه أن يمنع أحداً

من عداء الصهيونية أو تلك السامية التى يتبناها الغرب ويحاول ترسيخها ليس على حسابه وإنما على حساب أجيالنا)، ولكن من منطلق الحق فى حرية التفكير والتعبير، والبحث العلمى، ونشر المعلومات والإحصائيات.

حول نماذج «المسألة الصهيونية»

لم يكن مصادفة أن نهتم بنشر واحدة من أهم الوثائق الأدبية / التاريخية المنطوية على ذلك الحس الإنساني الرفيع للكاتب الروسي فيدور ديستويفسكي. لقد كتب - كشاهد عيان على الأحداث - مقالته المهمة عام ١٨٧٧ وهو لم يكن يعرف بعد، بقيام الاتحاد السوفييتي وبالتالي سقوطه. ومع ذلك فقد امتلكت وثيقته أهمية بالغة الخطورة والتأثير كونه كاتباً عبقرياً تميز بقوة الحدس وشفافيته. وبالطبع لم يفلت ديستويفسكي (وإلى وقتنا هذا) من تهمة «معاداة السامية» التي تخوّل للكثيرين وخاصة اليهود وصفه بـ«ابن الكلبة» وشتائم أخرى مقذعة.

وبعد أكثر من مائة وعشرين عاماً، وتحديداً في الخامس عشر من سبتمبر ١٩٩٨، قامت صحيفة «أرجومنتي إفاكتي» - براهين وحقائق - بنشر أخطر وثيقة في القرن العشرين عن «المسألة اليهودية» في روسيا. ولكنها في هذه المرة لم تكن بقلم أحد الكتاب الروس، وإنما بقلم الكاتب الروسي - اليهودي إدوارد توبول الذي يبدو أنه قام بذلك تحت تأثير حالة غريبة من اليأس والشعور القاسي بالرعب، ولعله أيضاً كان الإحساس بوقوع مجزرة قريبة يحصد فيها الجياع والمشردون والفاشيون الجدد والقوميون المتطرفون من الروس رءوس بسطاء اليهود الذين يعيشون في روسيا مفضلين إياها على إسرائيل العنصرية.

إدوارد توبول «كاتب» روسي - يهودي وُلد في الاتحاد السوفييتي وتربى على الثقافة السوفييتية والروسية القديمة، ثم خرج من الاتحاد السوفييتي مثله مثل الكثيرين من اليهود الذين اتجهوا إلى الولايات المتحدة الأمريكية بحجة الاضطهاد! وعاد بعد أن تعدلت الأحوال وأصبحت ملائمة تماماً! (راجع «المسألة اليهودية» لديستويفسكي بخصوص المثقفين اليهود، وأين تزدهر - وفي أية ظروف - أحوال اليهود).

إن مقالة / رسالة توبول في نهاية القرن العشرين لا تقل أهمية بأي حال من الأحوال عن مقالة ديستويفسكي في نهاية القرن التاسع عشر، وذلك بخصوص مجموعة من المقارنات النظرية المهمة التي لا ندعي صحة نتائجها مسبقاً، ولكن خطورتها تدفع أي إنسان لرصدها:

١ - إصدار قانون تحرير العبيد في روسيا عام ١٨٦١، وكتابة مقالة ديستويفسكي بعد ١٦ عاماً كرصد لمجموعة ضخمة من التحولات في العلاقات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في روسيا.

٢ - إصدار قوانين البيروسترويكا والجلاسنوست عام ١٩٨٦، ونشر مقالة / رسالة توبول بعد ١٢ عاماً. وعلى الرغم من أنها لم تتناول التحولات العميقة التي حدثت خلال تلك الأعوام مثلما عند ديستويفسكي، إلا أنها مع ذلك تفصح بوضوح تام عن نتائج تلك التحولات.

٣ ـ ديستويفسكي يحلل الوضع القائم ويدعو فى النهاية إلى الالتزام بحقوق الروس اليهود والمساواة والعدل بين الجميع.

٤ ـ توبول يدعو الطغمة المالية اليهودية ـ الحاكمة فعلياً فى روسيا ـ إلى تقديم الصدقات إلى الروس من أجل اعتبارات دينية توراتية مغلفة بمسحة إنسانية تنطوى على المبالغة والإقرار بالأمر الواقع وترسيخ مفاهيم التوراة عن «شعب الله المختار».

٥ ـ طغيان الآلة الصهيونية فى الثلاثين سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر فى روسيا والحروب الروسية التركية، والروسية اليابانية، وسوء الأحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وتدنى مستوى معيشة الشعب.

٦ ـ طغيان الآلة الصهيوينة فى العشرين سنة الأخيرة من القرن العشرين فى روسيا وتورط الجيش الروسى فى مجموعة من الحروب الإقليمية، والأزمات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وتدنى مستوى معيشة الشعب.

من الممكن الاستمرار إلى ما لا نهاية فى سرد العديد من المقارنات، ولكن الأمر ليس فى حاجة إلى التعمق كثيراً فى ذلك. ويبقى شىء واحد فقط ألا وهو: إلى أى شىء قادت مجمل التناقضات فى المجتمع الروسى حتى عام ١٩١٧؟! وإلى أى مدى استفاد الشعب الروسى بكل قومياته، وخاصة الأقلية الروسية اليهودية من نتائج ثورة ١٩١٧؟!

اللوبى الصهيونى فى روسيا يدّعى الآن أن ثورة ١٩١٧ حرمت اليهود من التعليم وتولى المناصب، ولكن الواقع طوال أكثر من سبعين عاماً ينفى ذلك تماماً، ويؤكد أن المواطنين الروس ـ اليهود كانوا على رأس الثورة البلشفية، ودرسوا بالمؤسسات التعليمية فى جميع التخصصات وأهمها الفيزياء والرياضيات والفنون، وعملوا بالسلك الدبلوماسى والمخابرات والمواقع العلمية السرية، أى أنهم حصلوا على حقوق متساوية مع المواطنين السوفييت من كل القوميات. بل وصل الأمر إلى أنهم تولوا قيادة العديد من المؤسسات المهمة مما دفعهم لممارسة العديد من الحيل الغريبة: مثل تحكمهم فى قبول المواطنين الروس ومواطنى القوميات الأخرى السوفييت بالمعاهد والجامعات. ومن أجل ذر الرماد فى العيون كانوا يقبلون أنصاف الموهوبين حتى يثبتوا للجميع أن الروس والقوميات

الأخرى غير مؤهلين للعمل في مجالات العلوم والفنون والاقتصاد الأمر الذى يدفع الكثيرين من السذج إلى تأكيد أكذوبة عبقرية الشخصية اليهودية.

وبعد الأزمة الاقتصادية في ١٧ أغسطس ١٩٩٨ بدأ الروس يتململون من حكم اللوبى الصهيونى المطلق لروسيا وهيمنته ليس فقط على المواقع السياسية والأمنية والاستراتيجية، وإنما على وسائل الإعلام والمصارف والبنوك، وإشاعة الفوضى وتأليب القوميات وتوجيه الإهانات الصريحة عبر وسائل الإعلام إلى المواطن الروسى البسيط بأنه غير موهوب وغير مؤهل لحكم بلاده، بل وصل الأمر إلى نفى دور الروس فى نهضتهم، وتشويه رموز الثقافة والفكر الروس والحط من قيمتهم (بداية من بوشكين الذى أساء إلى الشعر الروسى وهدم أهم معابده، وجوجول الدمية التى أنجبت الكثير من الدمى الأكثر تشوهاً، وديستويفسكى الحاصل على شرف أكثر وأقذر كلمات السباب، وتورجينيف المولع بالنساء والشراب... وحتى الجيل الروسى الحالى الذى لا يفقه شيئاً ولا يمتلك أى إمكانات تؤهله إلى إعادة بناء بلاده). كل ذلك دفع بعض السياسيين الروس إلى الإدلاء بعدة تصريحات أثارت حفيظة اللوبى الصهيونى ودفعت إسرائيل إلى تقديم احتجاجات رسمية حادة بسبب العداء المتزايد للسامية بين المواطنين الروس!!

من هنا تحديداً تأتى أهمية رسالة توبول فى نهاية هذا القرن على الرغم من انطوائها على العديد من المغالطات التوراتية. أما الحوار الذى أجراه معه إيجور سيركوف محرر «ليتيراتورنيا جازيتا» - الجريدة الأدبية - بتاريخ ٢٣ ديسمبر ١٩٩٨ فهو النقطة الأخيرة التى تؤكد أهمية الرسالة وخطورتها، ولعلها أيضاً تؤكد مزاعمنا بخصوص وضع اليهود فى روسيا وحرصهم (بما فيهم توبول) على إبقاء الوضع الاقتصادى الراهن على ما هو عليه والاعتماد على صندوق النقد الدولى والبنك الدولى، وطبعاً الأعمال الخيرية والصدقات التى (يمكن!) أن يقدمها اللوبى الصهيونى أو الروس الجدد الذين يعملون بأمواله إلى المواطن الروسى الذى بدأ يجنح إلى العنف ضد الأقليات الأخرى فى روسيا نتيجة للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المتردية، وتمركز رءوس الأموال فى أيدى الطغمة المالية اليهودية الحاكمة فى روسيا.

المدهش أيضاً ذلك الحديث الإذاعى المهم الذى أدلى به ألفريد كوخ نائب رئيس الوزراء

الروسى الأسبق ونشرته جريدة «نوفيا جازيتا» بتاريخ ٢ نوفمبر ١٩٩٨، والأكثر إثارة للدهشة أن الذى قام بنشر الحديث هو الصحفى والكاتب الروسى - اليهودى ألكسندر مينكين الذى وقف بشراسة ضد النظام الشيوعى السوفييتى مسانداً يلتسين فى بداية التسعينيات إلى درجة أنه كان أحد أهم أعضاء فريق الإصلاحيين اليهود فى روسيا، ولكن يبدو أن الخلافات المالية (وهى خلافات ليست على عشرات أو مئات الملايين من الدولارات، وإنما على عشرات المليارات) بين الإصلاحيين الشباب قد عملت على تفجير الانشقاقات. ومع ذلك، وبصرف النظر عن وضع مينكين ومواقفه، فحديث نائب رئيس الوزراء الروسى كوخ علامة مهمة وخطيرة فى تاريخ السياسة الروسية خلال السنوات العشر الأخيرة.

(نموذج ١)

رسالة مفتوحة إلى بريزوفسكى وجوسينسكى وسمولينسكى وخودوركوفسكى، وأفراد الطغمة الآخرين

إدوارد توبول:

«حبوا روسيا يا بوريس أبراموفيتش!»

بدأ كل شيء من رسالة الفاكس التى أرسلتها يوم ٢٦ يونيو من هذا العام إلى ب. أ. بريزوفسكى والتى جاء فيها: «بوريس أبراموفيتش المحترم! إن نجاح كتبى، على حد رأى ناشرى أعمالى، قد أثار اهتماماً شديداً لدى القارئ الأوربى بالشخصيات الواقعية التى صنعت التاريخ الروسى المعاصر: بريجنيف وأندروبوف وجورباتشوف ويلتسين، ومن حولهم. أنا الآن فى بداية العمل على كتاب متمم للمشهد العام والشامل لروسيا نهاية القرن العشرين. ومن البديهى تماماً أن الكاتب المحترف لن يجد، ولن يكلف نفسه حتى عناء البحث عن طراز أصلى لبطله الرئيسى الذى أنجرف فى مجرى التيار الجائح للطوفان الروسى الحالى أفضل من ب. أ. بريزوفسكى، ولا قصة درامية أفضل من سيرة حياتكم الفذة. وآمل أن تدركوا مدى القيمة التى يمكن أن تشكلها لقاءاتنا من أجل أن يبنى المؤلف نموذج الشخص المؤثر على حركة التاريخ الروسى لنهاية القرن العشرين...»

بعد يومين استقبلنى بريزوفسكى فى «بيت الاستقبالات» الخاص به فى شارع نوفوكوزنيتسكايا رقم (٤٠). وفى المنزل المبنى على الطراز القديم، والذى أعيد ترميمه وتجديده بكل مظاهر بذخ وجبروت الروس الجدد، قدّم لى الشاى أفراد طاقم السكرتارية المهذبين والمدربين جيداً بينما كان بوريس أبراموفيتش يرفع سماعات التليفونات ويخفضها، ويتلقى المذكرات والرسائل من الوزراء ومدراء ديوان الرئيس. ورداً على شكرى للاستقبال الرسمى فى تلك الفترة العصيبة، قال بوريس أبراموفيتش وهو يطلق ابتسامة تكاد تكون ساخرة:

ـ الأمر سيان، وفى كل الأحوال سوف تكتبون...

أدركت أن هذا الاستقبال ـ اضطرارى، ومن ثم دخلت مباشرة إلى الهدف من زيارتى:

ـ بوريس أبراموفتيش، إن المقصد الحقيقى لكتابى كالآتى: فى التليفزيون، كما تعرفون، يوجد برنامج «الدُمى». هناك تُعرض دمية يلتسين ويسترجيمسكى وتشرنوميردين وكوليكوف وغيرهم. إلا أن المحرك الرئيسى للدمى ـ من خلف الشاشة ـ لقبه شيندروفيتش. وفى الواقع توجد حكومة روسية ـ يلتسين وكيريينكو وفيدورف وستيباشين، إلا أن المحرك الرئيسى للدمى يمتلك لقباً يهودياً طويلاً ـ بريزوفيسكو ـ جوسينسكو ـ سمولينسكو ـ خودوركوفسكو... إلخ أى أنه لأول مرة ومنذ ألف سنة من زمن توطين اليهود فى روسيا استطعنا الحصول على سلطة حقيقية فى تلك الدولة. أنا أود أن أسألكم بصراحة: كيف تعتزمون استخدامها؟ ماذا تنوون عمله بهذا البلد؟ إسقاطه فى فوضى الفقر والحروب، أم الارتفاع به من الانحطاط والقذارة؟ هل تدركون أن مثل تلك الفرصة لا تأتى إلا مرة واحدة كل ألف عام؟ وهل تشعرون بمسئوليتكم عن تصرفاتكم أمام شعبنا؟

ـ أتعرفون ـ تحير بوريس أبراموفيتش فى الإجابة ـ نحن، بالطبع، نرى أن سلطة المال قد أصبحت فى أيدى اليهود. ولكن من وجهة نظر المسئولية التاريخية، فنحن لم نول اهتماماً لذلك أبداً...

ـ ألم تناقشوا هذا الموضوع إطلاقاً فى دائرة المقربين جداً إليكم؟

ـ لا، إننا ببساطة قد اكتشفنا عدم التناسب هذا، وحاولنا من جانبنا تصعيد أحد أفراد الطغمة المالية من أصل روسى إلى السلطة. ولكن كل المحاولات باءت بالفشل.

ـ لماذا؟ وبشكل عام كيف حدث وأن أصبحت جميع أموال هذه الدولة، أو كلها تقريباً، فى أيدى اليهود؟ أمن المعقول ألا يكون هناك رجال أموال موهوبين من الروس؟ إذ إنه فى روسيا القديمة كانت هناك مواهب تجارية فذة مثل موروزوف وتريتياكوف...

ـ أتعرفون ـ قال بوريس أبراموفيتش ـ بالطبع، رجال البنوك الموهوبين موجودون، وبين الروس أيضاً. ولكن العامل الرئيسى الثانى فى هذه المهنة هو توافر الإرادة. اليهود لديهم

القدرة على السقوط والصعود مرة أخرى. وتلك على الأرجح هي خبرتنا التاريخية. ولكن حتى أكبر الروس الجدد موهبة لا يستطيعون، فهم لا يتحملون الضربة. وبعد أول خسارة يسقطون من اللعبة وإلى الأبد. للأسف.

ـ ولنفترض. لكن إذا كان قد حدث وأصبحت لدينا السلطة الكاملة على الأموال في حين أن الحكومة تتكون من أنصاف اليهود مثل كيرينكو وتشوبايس، فهل تشعرون بمدى حدود المغامرة التي تعرضون لها شعبنا في حالة سقوط روسيا في الهاوية؟ إن المجازر المعادية للسامية يمكنها أن تتحول إلى هلوكوست جديد.

ـ هذا مستبعد تماماً ـ قال بوريس أبراموفيتش ـ أتعرفون ما هي نسبة المعادين للسامية في روسيا؟ ثمانية بالمائة لا غير! وقد تم التحقق من ذلك بشكل علمي!

.... بوريس أبراموفيتش، لن أنشر الآن مضمون لقاءينا. القضية ليست في ذلك، وإنما في أنه خلال شهرين من تعارفنا سقطت روسيا في هوة مالية ساحقة، وهي الآن تقف على بعد خطوة واحدة من كابوس التهور الاجتماعي. أما أنتم ـ أقصد أنتم شخصياً وجميع أفراد الطغمة المالية اليهودية الآخرين ـ لم تدركوا بعد هذا الموقف كتراجيديا يهودية. لقد حدث أثناء انهيار اتحاد الجمهوريات السوفيتية وسقوط النظام السوفيتي إن استطعتم أن تكونوا أكثر الجميع قرباً إلى الشاطئ. الموهبة والدهاء وقوة الإرادة جميعاً ساعدتكم على عدم إفلات تلك الفرصة، بل وساعدتكم على مضاعفتها وزيادتها أيضاً. ولكن إذا كنتم تظنون أن هذه هي مأثرتكم الفردية ـ الشخصية، فأنتم بذلك ترتكبون خطأ تراجيدياً! وإذا كنتم تفترضون أن الأمر قد حدث هكذا ببساطة وبمحض الصدفة واختاركم الرب لتصبحون رجل مال خارق (سوبر)، وأحد أفراد الطغمة الخارقين، فأنتم بذلك ترتكبون إثماً فظيعاً. نعم، نحن بالفعل مختارين من الرب، ونحن في واقع الأمر شعبه المختار، ولكننا مختارين ليس من أجل الإثراء الشخصي، وإنما ـ فقط ـ من أجل إخراج شعوب العالم من الوثنية والهمجية إلى حضارة الوصايا العشر ـ لا تقتل، لا تسرق، لا تتمن زوجة قريبك... هذه العملية لم تنته بعد. لا، ولذا فقد مُنحنا مواهبنا ودهاؤنا وسرعة بديهتنا، وكذلك تلك الإرادة نفسها التي تفخرون بها. حينما يصير كل منا هناك في الأعالي، فلن يسأل الرب ماذا فعلنا من سيئات وحسنات على الأرض، ولكنه

سيوجه إلينا سؤالاً واحداً فقط، سيقول: «لقد منحتك موهبة ما، فعلى أى شىء صرفتها؟ أنت صرفتها على تقدم وحضارة الناس الذين أرسلتك إليهم، على ازدهارهم والرفق بهم، أم استخدمت هبتى لملء خزائنك بمليارات الدولارات، ومضاجعة ملايين النساء الجميلات؟»

سوف نجيب بما يتفق مع قدر المنحة والوسائل التى اتبعناها فى استخدامها.

ولكن نحن وأنتم، بطبيعة الحال، ملحدين يا بوريس أبراموفيتش، وكذلك أصدقاؤنا من أفراد الطغمة أيضاً. وبالتالى فعذابات الآخرة لا تخيفنا. نحن أعلى من مواعظ الأطفال، ومن تلك الحكم التافهة. وكما يقول العامة: لا تعلمونى كيف أعيش، ولكن ساعدونى مادياً. من هنا أود أن أقول لكم وبشكل مادى تماماً: لننس ولو لدقيقة واحدة عشرات الآلاف من اليهود الذين سيذبحهم أصحاب القمصان السوداء فى أول موجات المذابح. وسننسى أيضاً أبناءهم وأمهاتهم. ومع ذلك فلو حتى أفلحتم فى الفرار من روسيا على طائرتكم الخاصة متناسين هؤلاء الناس، سيكون الأمر سيان، وسوف تكون نهايتكم - ستفقدون إمكانية التحكم فى ذراع السلطة والاقتصاد لهذا البلد. سوف تصيرون ببساطة مجرد لاجئين غرباء فى المهجر. وهذ ابالنسبة لكم، وأرجوا أن تثقوا بخبرتى، هو الموت بعينه حتى فى حالة وجود حساباتكم فى البنوك السويسرية. وبالتالى فحقيقة أنكم لن تستخدموا لا هبة الرب، ولا حتى أموالكم لخير هذا الشعب ومصلحته سوف تكون هى الانتحار بعينه.

الآن لنتذكر، فقط لنتذكر، يا بوريس أبراموفيتش اليهود الآخرين وأنصاف اليهود من مواطنى هذه الدولة. أنتم تعرفون أنه عندما أصبحت جميع الأموال الألمانية فى أيدى أصحاب البنوك اليهود الذين كانوا يفكرون فقط فى مضاعفة ثرواتهم وسلطاتهم فى ألمانيا، ظهر هناك هتلر، وانتهى الأمر بالهلوكوست.

إن الروس الجدد من الفاشيين وأصحاب القصمان السوداء ينبتون اليوم فى وجودكم، ويترعرعون فى الحقول الخصيبة بالمآسى الروسية. وإذا كنتم تودون أن تعرفوا بماذا سينتهى كل ذلك، شاهدوا الأفلام الإخبارية فى معسكر «أوشفيتز»، وانظروا فى عيون

أولئك الأطفال الذين يقفون هناك خلف الأسلاك الشائكة. ومع ذلك فقد كان الألمان أمة أوربية عظيمة ومتحضرة، وليس هناك أحد من شعرائهم لم يقل عنهم: «التمرد الألماني فظيع، غير معقول وبلا رحمة». هل حقاً تظنون في جدية أنه في روسيا ثمانية بالمائة فقط من المعادين للسامية؟ أم تتصورون أن المذابح قد أصبحت بالفعل مجرد شبح تاريخي واصطلاح قديم كما أشرتم: «هذا مستبعد تماماً».

هذا خطل[1] يابوريس أبراموفيتش (اعذروني على لغتي الروسية)!

في عام ١٩٥٣، عشت إحدى المذابح في «بولتافا»[2] - آنذاك، في مرحلة «قضية الأطباء». بدأت المذبحة على أطراف بولتافا. قمنا - عدة أسر يهودية تسكن بوسط المدينة - بالتحصن في الشقق. ظللنا طوال ثلاثة أيام بلياليها لا نخرج إلى الشارع، ولكن عندما خرجنا بعد ذلك، قرأنا على جدران منازلنا: «أيها اليهود[3]، سوف نلطخ بدمائكم أسقف المنازل!» وبالتالي فأنا أعرف، وأذكر كيف يبدأ كل ذلك ببساطة: فقط اعط المُعذب والغاضب ضمانة بعدم العقاب، وسوف يحرق ويتعسف ويسرق في كل مكان - في بولتافا، وفي موسكو، وفي لوس أنجلوس.

أنا وُلدت في «باكو» يابوريس أبراموفيتش، وهناك قضيت مرحلة شبابي. كان لدى صديق، وكان غنياً بشكل خيالي حتى في الفترة السوفييتية، أي آنذاك عندما كنتم أنتم تعيشون على الـ (١٢٠) روبل التي يتقضاها الحاصل على الدكتوراه في فلسفة العلوم. ومن أجل اللهو كنا نستخدم شقة أحد معارفنا المكونة من غرفة واحدة. وذات مرة أيقظ أهل البيت صديقي في منتصف الليل. وقالوا: «حضر إناس ما يودون التحدث إليكم».

---

(١) استخدم الكاتب هنا الأعضاء الجنسية في السب ولذلك اعتذر عن لغته الروسية بعدها مباشرة. وقد قصد دحض ظنون وتصورات بريزوفسكي عن استبعاد مذبحة يمكن أن يقوم بها الروس الآن ضد اليهود.

(٢) منطقة في جمهورية أوكرانيا يسكنها اليهود وقامت بها عدة هبات من السكان الأصليين ضد الاستعباد الذى كان يمارسه اليهود عليهم هناك.

(٣) استخدم الكاتب هنا كلمة «جيد - بتعطيش الجيم وكسرها وكسر الياء أيضاً». ويستخدم الروس هذه الكلمة لسب اليهود ونسبهم إلى يهوذا الخائن، وهى من الكلمة الإنجليزية (Judas).

نهض وارتدى ملابسه، ثم خرج. فى الصالة وقفت امرأتان أذربيجايتان تنشجان بالبكاء. قالتا: «ليونيد، ساعدونا! لقد مات والدنا، وهو يرقد الآن بالمشرحة فى المستشفى. الأطباء ينوون تشريح الجثة. ولكن قوانيننا الإسلامية تحرم ذلك. (ميانوليوم)[1]، نتوسل إليكم، أوقفوهم، ساعدونا فى استلام جثة والدنا دون تشويه!..» ذهب صديقى إلى المستشفى، عثر على الطبيب المناوب الذى اتضح أنه أذربيجانياً أيضاً. قال صديقى: «كيف يمكنك وأنت الأذربيجانى أن تخرق قوانين شعبك، كيف يمكنك أن تسمح بأن آتى أنا، اليهودى، إليك وأطلب منك احترام عاداتك الإسلامية؟!» وبطبيعة الحال أعطى رشوة لذلك الطبيب، وافتدى جثة والد هاتين المرأتين. لم تكن هناك وسيلة أخرى ـ هاتان المرأتان عرفتا إلى من يجب التوجه لطلب المساعدة. كان صاحبى يتمتع فى جميع أنحاء باكو بكل الأسباب اللازمة لرجل البر والإحسان. أتعرون كيف عاد إليه كل ذلك؟ عندما بدأت المذبحة الأرمينية فى باكو منذ عدة سنوات، هربت حبيبته الأرمينية من المنزل واختبأت فى شقة جدتها. وذهب هو إليها من أجل نقلها من باكو. ولكنها فى الطريق إلى المطار قالت إنها تريد إلقاء نظرة على منزلها للمرة الأخيرة. «إنه مهدم تماماً ومُخرب، لقد كنت أنا بنفسى هناك» ـ قال لها ليونيا[2]. «سيان، أرجوك، أريد إلقاء نظرة وداع على منزلى...». أخذها إلى منزلها. كان السياج مهشماً، والحديقة مهدمة، والمنزل محترقاً ومخرباً. سارت هى بين أنقاض تجمع الصور العائلية وحمالات الأقداح التى نجت من التخريب. فى تلك اللحظة اقتحم الساحة أمام المنزل جمهور من المخربين الغاضبين ـ أخبرهم أحد المخربين أن «الأرمينية عادت». «هل رأيت ولو مرة واحدة وجه جمهور غاضب؟» ـ هكذا حكى لى ليونيا ـ اتجهوا نحونا مباشرة. كانت خطيبتى تقف محتمية خلف ظهرى، وأدركت أننا سوف نموت فى التو واللحظة. كان عددهم يبلغ المائتين، وفى أيديهم الفئوس والهراوات وقطع المواسير. كان لدى مسدس، ولكننى أدركت أننى لن أفلح حتى فى دس يدى فى جيبى. وفجأة، فى آخر لحظة عندما هم أحدهم ملوحاً بهرواة أو فأس، قفز عجوز إلى الأمام صائحاً بالأذربيجانية: «توقفوا، أنا أعرف هذا الشخص، هذا

(١) بالأذربيجانية وتعنى: نتوسل.

(٢) ليونيا: صيغة التصغير من اسم ليونيد.

الشخص لم يقدم إلينا سوى الخير دائماً! أقسم بأجدادى - باكو كلها تعرفه! ويجب أن ينصرف من هنا حياً!» هل تتصور، تفرق المخربون! صنعوا بأجسادهم ممراً بشرياً، ومررنا أنا و«آدا» من بين هذا الجمهور نحو سيارتى، ثم جلسنا واتجهنا إلى المطار».

أنتم إنسان ذكى يابوريس أبراموفيتش، وتفهمون لماذا أحكى لكم عن صديقى. هكذا يجب أن يكون كل يهودى. إن الأموال التى يهبها الرب لنا فى زمن الإقطاع أو الاشتراكية أو الرأسمالية ليست ممنوحة لنا، وإنما من خلالنا إلى أولئك الناس الذين نعيش بينهم. عندئذ فقط سنكون حقاً - يهود.

إن الشعب الذى نعيش بينه اليوم فى محنة حقيقية. فى البلاد فقر مدقع وفوضى ويأس وجوع وبطالة، ونهب يقوم به الموظفون وقطاع الطرق، وحبيباتنا - النساء الروسيات - يبعن أجسادهن على الأرصفة. وبالتالى ساهموا تباً للشيطان، بمليار أو اثنين. لا تكونوا مثالاً لليهودى الجشع البخيل، وساعدوا هذه الأمة فى طريقها الدامى من الشيوعية إلى الحضارة. ساهموا ليس فقط بالأموال، وإنما بالأفكار والمواهب والحكمة، والفطنة الإلهية والطبيعية، وظفوا كل جهودكم وإرادتكم وسلطتكم وثروتكم لإنقاذ روسيا من السقوط فى الهاوية، وتخليصها من أخلاقيات المعسكرات السوفييتية وطريقة تفكيرها. إن أولئك الناس الذين تنقذونهم هم أنفسهم الذين سوف يحموننا نحن وأنتم من المذابح. وستردد أمهاتكم، أمهاتكم اليهوديات، فى ضراعة «مازول توف!»[1] هذا وإلا فسوف يظهر كليموف آخر ليكتب رواية «السلطة اليهودية - عن إبادة اليهود للشعب الروسى. هل تريدون ذلك يا بوريس أبرامفويتش؟

---

(١) مازول توف: بالعبرية. وضعها الكاتب بحروف روسية، وتقارب فى معناها - الشكر للرب.

(نموذج ٢)

حوار مع الكاتب الروسى - اليهودى:
إدوارد توبول
انقذ الآخرين لكى تنقذ نفسك:

بماذا يتهم إدوارد توبول الطغمة المالية الحاكمة؟!

فى الخامس عشر من سبتمبر ١٩٩٨ بصحيفة «أرجومنتى إفاكتى» - براهين وحقائق - ظهرت مقالة الكاتب الروسى إدوارد توبول التى أثارت ضجيجاً حاداً. قبل ذلك كانت أحاديث ماكاشوف(١) وصمت مجلس الدوما بهذا الخصوص، ثم انتخابات إقليم كراسنودار وظهور «المسألة اليهودية» فى مركز الرأى العام بالبلاد التى شهدت أخطر أزماتها فى السنوات الأخيرة، وبعد ذلك تصريحات إيليوخين(٢) حول وجود اليهود بكثرة فى حاشية الرئيس...

---

(١) ألبرت ماكاشوف عضو مجلس الدوما عن الحزب الشيوعى الروسى، والذى أدلى بمجموعة من الخطب فى مجلس الدوما، وبمجموعة أخرى من الأحاديث الصحفية، دارت فى مجملها عن سيطرة اليهود على أهم المرافق الحيوية فى روسيا مثل الأمن القومى والاقتصاد والبنوك، وطالب أن يحترم اليهود حقوق الأغلبية الروسية ومعها الأقليات الأخرى. ولكن وسائل الإعلام قامت بتشويه تلك الخطب والأحاديث، وأثارت الرأى العام على ماكاشوف والحزب الشيوعى الروسى، وقام بوريس بريزوفسكى شخصياً بمطالبة مجلس الدوما الروسى بإيقاف نشاطات الحزب الشيوعى تمهيداً لحله وإلغائه، الأمر الذى دفع جينادى زيوجانوف إلى تقديم اعتذار علنى أمام احتجاجات إسرائيل واللوبى الصهيونى فى روسيا، وسافر إلى ألمانيا ليقدم اعتذاراً رسمياً لرئيس المجمع اليهودى هناك، وقام بتوجيه اللوم إلى ألبرت ماكاشوف فى مؤتمر الحزب - المترجم..

(٢) فيكتور إليوخين عضو مجلس الدوما عن الحزب الشيوعى الروسى، الذى أدلى هو الآخر بمجموعة من الأحاديث فى مجلس الدوما وإلى وسائل الإعلام يوجه فيه لوماً صريحاً إلى الرئيس الروسى بوريس =

كل ذلك حدث قبل أن يكتب إدوارد توبول متوجهاً إلى الطغمة المالية الحاكمة من اليهود: «سقطت روسيا في هوة مالية ساحقة، وهي الآن تقف على بعد خطوة واحدة من كابوس التهور الاجتماعي (...) إن الشعب الذى نعيش بينه اليوم في محنة حقيقية. في البلاد فقر مدقع وفوضى ويأس وجوع وبطالة، ونهب يقوم به الموظفون وقطاع الطرق (...) ساعدوا هذه الأمة في طريقها الدامي من الشيوعية إلى الحضارة... وظفوا كل جهودكم وإرادتكم وسلطتكم وثروتكم لإنقاذ روسيا من السقوط في الهاوية، وتخليصها من أخلاقيات المعسكرات السوفييتية وطريقة تفكيرها. أولئك الناس الذين تنقذونهم هم أنفسهم الذين سوف يحموننا نحن وأنتم من المذابح...»

-إدوارد، هل أنت غير نادم اليوم على ما كتبته من قبل؟

-أتعرفون، إنني أرى أن أحاسيسي لم تكن موجهة نحو خلفيات تلك المشكلة التي كانت موجودة في ذاك المقال، ولكنها تحديداً كانت تنصب على أن البلاد في وضع خطر، والشعب في محنة شديدة، وهناك أولئك الناس الذين يمكنهم أن يقدموا يد العون إلى الأطفال الجوعى، والمدرسين والأطباء الذين يعيشون في فقر مدقع. من هنا تحديداً كانت منطلقاتي لكتابة المقال.

-وأي رد فعل كنت تتوقع؟

-رد فعل إنساني، رد فعل إنساني طبيعي في مثل هذا الوضع. ولو كنت أنتظر رد فعل آخر لما كتبت هذا الكلام.

-ولكن رد الفعل كان مختلفاً تماماً. فالدوائر الديموقراطية ووسائل الإعلام لم تول

= يلتسين بخصوص الأعداد غير المعقولة من اليهود الموجودين في الكرملين والذين يشكلون ٩٩٪ من حاشية رئيس روسيا الاتحادية، وكذلك احتلالهم أغلب المناصب الحكومية وخاصة الحيوية منها بشكل لا يتناسب على الإطلاق مع عددهم البسيط. وطالب بسن بعض القوانين التي يجب أن تحافظ على توزيع المناصب في دولة فيدرالية مثل روسيا منعاً لإثارة القلاقل القومية والإثنية - المترجم.

كلامكم أى انتباه وكأنها لم تلاحظه، واليساريون لم يريدوا أن يروا لا الصراحة ولا الألم من أجل البلاد فى نداءاتكم - زاعمين أنه «خلاف يهود يهود بينهم وبين بعضهم». وحتى الذين توجهت إليهم قاموا بتوبيخك. وبخوك فى روسيا وخارجها، وأطلقوا عليك «مثير المذابح»، «ماكاشوف اليهودى». ومن الصعب أن يحيا الإنسان بكل تلك الاتهامات:

- أتعرفون، لدى شعبى الذى عاش قروناً طويلة فى الشتات يوجد إحساس طائفى - جماعى بالخوف، وأحياناً يتغلب هذا الإحساس على العقل ويسبقه، وبالتالى فطواغيت المال استغلوا ذلك وببساطة هربوا من مناقشة جوهر رسالتى. أما الذين أهانونى وشنعوا بى، وهبوا يدافعون بحرارة عن طواغيت المال، فلن أرد عليهم. لماذا؟

أعتقد أن رد طواغيت المال قد وصل. فإذا لم يبد الناس أى رد فعل أو أية صلة بينهم وبين تلك المشكلة التى كانت بالنسبة لى أساسية - فمعنى ذلك أن هذا رد. وبالتالى فقد أغلقت بالنسبة لنفسى هذه القضية.

وفى المؤتمر اليهودى بموسكو(1) أطلقوا على لعنتهم لأننى أول من تحدث عن احتمال وقوع المذابح. ولكن ذلك شبيه بالضبط باتهام نشرة الأرصاد الجوية حينما تتنبأ بسقوط الثلوج غداً فى موسكو. وأحياناً تكون هناك أشياء ما كثيرة مرئية من بعيد. وعندما أرى مصيبة أو كارثة تقترب من روسيا، فهل أصمت؟

- تقصد ليس فقط كارثة اقتصادية؟

- بالطبع! ففى الصيف الماضى بموسكو، عند محطات المترو النهائية، وقف الشبان الصغار من أصحاب القمصان السوداء بشكل واضح ومكشوف وعلامة الصليب المعقوف مرسومة على أكمام ملابسهم وراحوا يوزعون على المارة مواد تتضمن دعاية معادية للسامية. فهل اتخذ أحد الإجراءات اللازمة المناسبة؟ لا أحد. إضافة إلى أن الأزمة الاقتصادية كانت تقترب، وكان الجميع يعرفون ذلك على الأقل منذ شهر فبراير. بل

(1) المعروف أن فلاديمير جوسينسكى هو رئيس المؤتمر اليهودى الروسى، وهو من طواغيت المال الكبار فى روسيا وصاحب العديد من الشركات الضخمة ووسائل الإعلام المسموعة والمرئية، وأحد الذين ذكرهم إدوارد توبول فى رسالته الأولى - المترجم.

وكانوا يحصلون على دفعات القروض من البنك الدولي وهم يدركون جيداً أنها مجرد مهلة قبل وقوع الكارثة. وليس هناك حاجة لأن تكون ذكياً جداً من أجل أن تفهم أنه في حالة وقوع مصيبة، فلن يشير أحد إلى: يلتسين أو جيدار أو تشرنوميردين - الروس، أي أن الروس مذنبين في وقوع الأزمة. وبالتالي ليس من الضروري أن تكون باحثاً تاريخياً لكي تفهم أنه في حالة وقوع أية أزمة، فسوف يكون «اليهود مرة أخرى هم المذنبون». زد على ذلك أن اليهود قد أصبحوا بارزين في الدوائر المالية والسياسية.

في صيف عام ١٩٩٧ أيضاً كتبت إنه لأمر أشبه بالانتحار أن يتولى يهودي رئاسة مجلس الأمن القومي في روسيا أثناء التوسع الحتمي لحلف الأطلنطي نحو الشرق، والآخر - يتولى قيادة المؤسسات المالية في البلاد في الوقت الذي تنهب فيه إلى تلك الدرجة التي لم يعد أحد عندها يمكنه أن يقدم قروضاً.

لا يمكن إغلاق أفواه ماكاشوف وأصحابه، فهو دائماً كانوا موجودين، وللأسف سيظلوا على الدوام موجودين. إن معاداة السامية مرض، وهذا المرض لا شفاء منه.

- ولكنه يُعالج ويخفت بتحسن الأحوال الاجتماعية..

- نعم، وبدون شك. فهو يشفى بتحسن الأحوال الاجتماعية، وتزداد حدته بتدهورها.

- يوسف كبزون(١) يتهمك بأنك توجهت إلى بريزوفسكي وجوسينسكي ولم تتوجه في الوقت نفسه إلى بوتانين(٢) وفيخيرييف(٣) وتشرنوميردين(٤)..

- في شهر سبتمبر، وفي مطلع سنة ٥٧٥٩، أي رأس السنة بالتقويم اليهودي، قمت

---

(١) مغني أوبرالي روسي - يهودي شهير، حائز على جوائز محلية حكومية ودولية هامة أغلبها في ظل وجود الاتحاد السوفييتي - المترجم.

(٢) من طواغيت المال الروس الذين يطلق عليهم :الروس الجدد - المترجم.

(٣) مثل سابقه.

(٤) فيكتور ستيبانوفيتش تشرنوميردين رئيس الوزراء الروسي وأحد طواغيت المال الكبار، يمتلك حصة ضخمة من شركة «غاز بروم» وحصص كبيرة من الأسهم في العديد من البنوك، ويحتل مركزاً متقدماً ليس فقط بين طواغيت المال الروس، وإنما بين الطواغيت الكبار في العالم - المترجم.

بتذكير طواغيت المال اليهود بذلك القانون الذى سنه أجدادنا على جبال سيناء، والذى يجب أن يطبق حتى على أفقر اليهود بأن يطعم الجائع ويكسى العارى. كان من غير المعقول أن أطلب من طواغيت المال الروس، بمناسبة حلول أيام الرعب ويوم القضاء والحكم، أن يقوموا بتنفيذ القانون اليهودى على الرغم من أننى، ولا أخفى ذلك، كنت على أمل أن يتوجه إلى طواغيت المال الأرثوذكس كل من أليج يفريموف[1]، وأليج توباكوف[2] ونيكيتا ميخائيلكوف[3] وستانيسلاف جوفوروخين[4].

- بالمناسبة، لقد اتهموك بشكل شخصى بأنك لا تساهم فى الأعمال الخيرية من دخلك عن مؤلفاتك...

- أعترف بأننى لا أساهم فى الأعمال الخيرية بدخلى كله. ولكن رغم وجودى - كما قال بريزوفسكى، «فى زاوية بعيدة عن روسيا»[5]، إلا أننى مع ذلك حملت المعونات

(١) مخرج مسرحى روسى شهير - المترجم.
(٢) مخرج مسرحى، وممثل سينمائى ومسرحى، روسى شهير - المترجم.
(٣) مخرج وممثل سينمائى روسى شهير، حائز على الجائزة الكبرى فى مهرجان كان السينمائى - المترجم.
(٤) مخرج وممثل سينمائى شهير، وعضو مجلس الدوما عن الحزب الشيوعى - المترجم.
(٥) قال بوريس بريزوفسكى هذا الكلام فى معرض ردوده الكثيرة الأخرى عبر وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمكتوبة الكثيرة التى فتحت له أبوابها للرد على رسالة توبول الموجهة إلى الطغمة المالية اليهودية الحاكمة فى روسيا، وإلى بريزوفسكى بشكل خاص، وبريزوفسكى يقصد بهذه الجملة أن توبول قد ترك روسيا وسافر ليعيش فى أمريكا لسنوات طويلة. وبهذه المناسبة حدثت فضيحة أخرى مرتبطة بوجود توبول في الولايات المتحدة. فبعد سفره أو بالأحرى هجرته استطاع أن يحتل مكانته هناك ككاتب جيد (المعروف أن توبول يكتب فى مجال الكتابات البوليسية والمغامرات والجنس)، وخلال تلك الفترة قام الكاتب الروسى - اليهودى فريدرك نيزنانسكى بالهجرة أيضاً إلى أمريكا. وبعد فترة معاناة شديدة وتشرد طويل - كما يذكر توبول - بالنسبة لنيزنانسكى قام توبول بمساعدته وتعليمه سر المهنة. وصارت الكتب بعد ذلك تصدر بتأليفهما المشترك. وحينما قرر تبول العودة إلى روسيا فى أوائل التسعينيات انتهز نيزنانسكى الفرصة وصار يصدر الكتب باسمه فقط وخاصة تلك التى قاما بتأليفها معاً. آنئذ رفع توبول قضية على نيزنانسكى فى موسكو وجاء فيها الحكم لصالحه. أما أحد الردود الطريفة لبريزوفسكى بخصوص موضوع الرسالة، والذى أثار سخرية وسائل الإعلام الروسية قوله: «إن إدوارد توبول مجرد يهودى» - المترجم.

الإنسانية إلى الأطفال وحرس الحدود فى كامتشاتكا وجزر الكوريل. زد على ذلك أننى لم أرسل ببساطة مجرد شيك ولكننى شاركت فى حملة المعونات وقمت بتحميل صناديق الفاكهة والسجق والفيتامينات والأدوية والكتب، بل وركبت معهم الطائرات المروحية حتى مطارات بيتروبافلوفسك وخباروفسك وتشكالوفسك لتوصيل كل ذلك إلى أبعد مخافر الحدود الموجودة فى الشمال. وبالطبع فذلك شىء ضئيل جداً بالمقارنة بما يمكن أن يقدمه كل من بريزوفسكى وخودوركوفسكى وبوتانين وفيخيرييف وبرنتسالوف وإليومجينوف. ومع ذلك دع أولئك الذين لم يرسلوا ولو حتى تفاحة واحدة إلى هؤلاء الأطفال يرموننى بالحجارة.

ـ ولكنك فى حين تقوم بالدعوة إلى مساعدة المعدمين واليائسين، تنسى فى الوقت ذاته ذلك «البئر» الذى تختفى فيه الأموال والقروض والمعونات الإنسانية الآتية إلى روسيا. هذه «البئر» لم يختف، بل مازالت موجودة وتعمل بشكل دقيق جداً.

ـ هذا صحيح. ويحدث من قبل هرم الموظفين فى ظل تلك الحكومة، وكل ما يأتى إليهم لا يظهر مرة أخرى. ولذلك بالذات لم أتوجه إلى الحكومة،وإنما توجهت إلى الطغمة المالية التى بإمكانها تنظيم وتوجيه المؤسسات للعمل لحسابها بشكل فعّال. فـ«موست بنك» و«غاز بروم» و«لوجو فاز» وشركة «أيروفلوت» ـ كلها شركات ومؤسسات ضخمة منظمة لها أساليبها فى الإدارة والتوجيه والاتصال. وأنا واثق بأن أصحاب هذه المؤسسات لو هبوا من أجل تنظيم المعونات وتوجيهها إلى المعدمين والجائعين لفعلوا ذلك بشكل حقيقى وفعّال مثلما يسير العمل فى «غاز بروم» و«أيروفلوت». فهذه المؤسسات لن تسمح أبداً لأحد بنهب أموالها.

ـ يرى الكثيرون أن مقالتك مجرد ملعوب إعلانى من أجل زيادة الطلب على كتبك. فهناك إحجام عن هذه الكتب، وهناك مؤلفون آخرون قد تجاوزوك، وبالتالى اندفعت برسالتك تلك التى أثارت المشاكل.

ـ أتعرفون، إن التقديرات التى أنعموا علىّ بها، بالنسبة لشخصى ولإبداعاتى، بعد تلك الرسالة لا تفعل سوى أن تسحبنا بعيداً عن جوهر الموضوع. ولكن القضية على وجه

التحديد هى أن روسيا اليوم مهددة ليس فقط بانهيار اقتصادى. فقد حدث ذلك وانتهى الأمر. ولكنها مهددة أيضاً بالسقوط والانهيار والتحول إلى صورة أسوأ من صورة يوغوسلافيا، وذلك نظراً لوجود كميات هائلة من الأسلحة النووية فى الأقاليم. ولن تستطيع أية أوامر أو فرامانات إنقاذ روسيا الاتحادية من هذه الكارثة إذا لم تتخذ إجراءات قصوى بخصوص الحفاظ على، ودعم المتطلبات البدائية البسيطة لوجود ملايين البشر ولو حتى عند مستوى حد الفقر، إذ إن ٤٤ مليون روسى يعيشون تحت هذا المستوى.

ـ ألا يبدو لك أن الكلام المستمر حول المعونات الإنسانية على المستوى الأخلاقى «تحط» من قدر البلاد، وتحوّل الشعب الروسى أمام العالم كله إلى ذلك الشعب المتسول غير المؤهل حتى لإطعام نفسه؟

ـ أتعرفون، عندما يحترق البيت أو يغمره طوفان، فالمتعارف عليه هو إنقاذ الأطفال. ومن لا يستطيع بعد ذلك إنقاذ نفسه فهو يستجير بالجيران. هذا طبعاً على مستوى تصرفات الناس. أعطوا فقط إمكانية حقيقية لهؤلاء الجيران من تقديم المعونة. لنقل مثلاً، اطلبوا من هولندا تقديم المعونة لبيوت الأطفال فى إقليم كيروفسك، تطعمهم لمدة عام أو عام ونصف حتى تتخلصوا من الأزمة. واطلبوا من بلجيكا أن تقدم المعونة إلى إقليم مورمانسك، وإسرائيل ـ إقليم فولجوجرادسك[1] ... إلخ. امنحوهم الحق بشكل مباشر فى إيصال المعونة للأطفال ـ ألا ترى معى أنه فى أى حال من الأحوال سنجد أنفسنا أمام طلب المعونات الإنسانية بشكل أخلاقى!

لم تعد عندى رغبة فى التوجه لا إلى الطغمة المالية ولا إلى الحكومة. أنا أتوجه إلى الصحفيين ورجال المجتمع والسياسيين: ساعدونا فى أن نحصل من الحكومة على ممرات جمركية «خضراء» من أجل المعونات الإنسانية للأطفال. تابعوا، وساعدوا فى أن يأكل الأطفال ويرتدوا ما يحملونه لهم.

ـ أنت تتحدث بشكل وكأن هناك من يعادى هذه المشروعات ويقف ضدها.

---

(١) هذه الأقاليم الثلاثة (كيروفسك ومورمانسك وفولوجوجرادسك) من أكبر وأغنى الأقاليم الروسية وأهمها على المستوى الاقتصادى والجيوبولوتيكى ـ المترجم.

ـ هناك تجارب لدى الذين حاولوا تقديم المعونة، أنا نفسى مررت بهذا الطريق وأعرف مع أى الأشياء يصطدم الإنسان الذى يريد تقديم المعونات الإنسانية، وعندك منظمة مشروع «الأمل» الأمريكية الخيرية التى تقدم المعونات الطبية على مدى سنوات طويلة لأربعين دولة.

لقد سمع الأمريكيون، وفى كل خطوة، عن كل هذه المشاكل فى روسيا. ولكنهم عندما أرسلوا فى الصيف الماضى الطائرات المحملة بالأدوية إلى مطارات مورمانسك وفولجاجراد: أطنان من صناديق المضادات الحيوية والأدوية الأخرى غير الموجودة بالأسواق، ظلت لأشهر عديدة ملقاة بالمطارات، لأن اللجنة الحكومية للمعونات الإنسانية لم تعطى الموافقة على عدم جمركتها. فى الوقت الذى كانت فيه كل طائرة محملة بأدوية ومعدات يصل ثمنها إلى ملايين الدولارات. لقد ظللت طوال شهرين كاملين أحاول الوصول إلى أعلى لمعرفة سبب ذلك، ولكننى فشلت.

أنا أذكر جيداً كيف اقترحوا علينا حتى بجزر الكوريل المعدمة ـ وبشكل فيه الكثير من الإلحاح والإصرار ! ـ: إرسال تلك المعونات الإنسانية إلى المحلات والدكاكين.. ! وسوف نقتسم بـ «أمانة» الإيرادات.

انظر.. ها هو السبب فى تركيزى على أمر واحد فقط ـ على تأسيس منظومة فعالة للأعمال الخيرية. وهذا بالذات ما فكرت فيه عندما توجهت إلى الطغمة المالية الروسية. فماذا يمكن أن يكون تأثرى وانفعالى، المترتبين على رد فعلهم بخصوص رسالتى، بالمقارنة بموت المدرس الذى أضرب عن الطعام؟

وهناك أيضاً فكرة أخرى إضافة إلى فكرة الممرات الجمركية «الخضراء» بالنسبة للمعونات الأجنبية، ولنقل مثلاً: إقامة «جمعية أعمال خيرية»[1] تحت إشراف عمدة

---

(١) «جمعية أعمال خيرية» أو بالأحرى «رفاقية أعمال خيرية»، ويبدو أن توبول يحاول هنا تأسيس هذه الجمعية أو الرفاقية على النمط الذى أقامت فيه ثورة ١٩١٧ «جمعية الرفاق اليهود لاستصلاح الأراضى» التى كانت مختصة بتوطين المواطنين الروس من اليهود فى الأراضى الزراعية فى محاولة لربطهم بالأرض وحضهم على العمل أسوة بالمواطنين الروس ومواطنى الأقليات الأخرى. وكما جاء على لسان ليلى بريك صديقة الشاعر الروسى مايكوفسكى اليهودية أنه كان أحد أعضاء هذه الجمعية ـ المترجم.

موسكو، أى تحت إشراف يورى لوجكوف. وسوف تعمل بشكل جيد تحت إشرافه. إذا أصبحت هذه المؤسسة غير حكومية ولا تقتات على المعونات الواردة، فسيكون وضعها مختلفاً تماماً. وسوف يعثر رجال الأعمال بأنفسهم على إناس أمناء مخلصين لن يقوموا بالنهب، خاصة إذا كان هذا المركز تحت إشراف جهة إعلامية تقوم - كما يحدث فى أمريكا - بنشر قائمة التبرعات والمساعدات والأهداف التى تم عليها الصرف. عندئذ سوف تكون هناك نتائج.

- هل ناقشتم هذه المشروعات مع أحد ما؟

- فى وقت متأخر من ليلة الأمس وحتى الساعة الثالثة صباحاً فى مطبخ منزل مستيسلاف راستروبوفيتش[1]، وذلك بعد عودتنا من حفله الموسيقى. ناقشت ذلك معه ومع جالينا فيشنيفسكايا[2]. وفهما فى لمح البصر جوهر الاقتراح، لأن كل منهما عبارة عن جمهورية خيرية كاملة. وهما منذ سنوات طويلة يقومان بمساعدة الأطفال والموسيقين الروس بملايين الدولارات. وقال لى راستروبوفيتش: «سوف أمشى معك فى هذا المشروع حتى النهاية! ولن أعطى اسمى لأى صندوق، أما تحاد الخيريين فأنا على استعداد لمساندته».

- إذن ففى كل الأحوال لن يمكن إنقاذ روسيا، تلك الدولة الضخمة جداً، إلا بالمساعدات الخيرية أو قروض البنك الدولى.

- نعم، ولكن أخطر الآثار المترتبة على الأزمة الحالية ليست حتى إفقار الشعب أو بيانات ماكاشوف. لا، فالأخطر من وجهة نظرى هو أن هذه الأزمة قد أحرقت أولئك الشباب (٢٠ - ٣٠ سنة) الذين كانوا المبادرين الأوائل لتأسيس سوق حقيقية. أولئك الذين بدأوا لتوهم الاشتغال بالأعمال الإنتاجية - صناعة الخبز، وبناء المساكن، وصناعة منتجات الألبان، وإصدار الكتب. لقد خلخلوا من تحت أرجلهم هيكل المنظومة البنكية

---

(١) عازف فيلونشيل روسى - يهودى، يُعد من أهم عازفى الفيولونشيل فى العالم إن لم يكن العازف رقم (١) - المترجم.

(٢) مغنية أوبرا من أم غجرية وأب بولندى، تُعد من أهم مغنيات الأوبرا فى روسيا وأوربا - المترجم.

فسقطوا وتحطموا.

فمن الذى سيساعدهم على القيام مرة أخرى؟ إذ إن القوى الأخرى التى ستأخذ بيد البلاد، غير الشباب الذى يتوقد طاقة والذى ذاق طعم العمل الحقيقى الحر، هى ببساطة غير موجودة. فإما أن تقدم الدولة يد المساعدة للشباب من أجل أن يُنهضوا البلاد، وإما سوف تنهار هى نفسها وتتحلل.

(نموذج ٣)
بقلم: ألكسندر مينكين(*)
وداعاً روسيا المغسولة(**):
اعترافات النائب الأول لرئيس الوزراء الأسبق

فى الأزمنة السابقة عندما كان الشاب الذى يحقق وضعاً جيداً ويصل إلى العديد من المناصب ويبدأ فى الظهور بسلوك غير حميد، كانوا يقولون له بعتاب: «لقد أعطاك الوطن كل شيء، أما أنت...».

ألفريد كوخ - النائب الأول لرئيس الوزراء الروسى الأسبق ورئيس اللجنة الحكومية للملكيات الروسية، ورجل الأعمال الغنى، العظيم، رئيس شركة «مونتيس آورى» - الجبال الذهبية - الذى دفع مئات الآلاف من الدولارات لتشوبايس وأنصاره، وربما لا يزال مستمراً فى ذلك. كان كوخ أحد رجال حكومتنا. كان فعلاً فى السلطة العليا. وكان يعلوه فقط سلطتان: رئيس الدولة ورئيس الوزراء.

منذ فترة غير بعيدة صدر فى أمريكا كتاب «تصفية الإمبراطورية السوفييتية» الذى

(*) ألكسندر مينيكين صحفى روسى - يهودى عمل سنوات طويلة فى جريدة «موسكوفسكى كومسومولتس» وكان أحد الأصوات العالية التى انضمت إلى جيدار وتشوبايس فى بداية الإصلاحات. وهو أيضاً كاتب وأديب استخدم كل إمكانياته فى دعم الإصلاحيين ورجال الحكم من اليهود فى روسيا. انشق مؤخراً على الديموقراطيين والإصلاحيين وصار يهاجمهم بنفس الأسلوب والقوة والبلاغة التى كان يناصرهم بها. وهو الآن يعمل محللاً سياسياً فى جريدة سنوفيا جازيتا». والواضح أن الدافع الأساسى لكتابة هذه المقدمة وقيامه بنقل الحديث الإذاعى مع ألفريد كوخ الخلافات الشخصية وتصفية الحسابات القديمة نظراً لأن جماعة الإصلاحيين والديموقراطيين الذين وصلوا إلى الحكم فى روسيا فى بداية التسعينيات لم يشركوه معهم وبخسوه نصيبه من الوليمة - المترجم.

(**) قام مينكين هنا بتحوير كلمات الشاعر الروسى ليرمونتوف «وداعاً روسيا القذرة» - المترجم.

حصل كوخ بموجب وعد بكتابته على مائة ألف دولار من أحد البنوك السويسرية منذ عامين. وبمناسبة صدور الكتاب أعطى كوخ منذ أيام حديثاً لمحطة الراديو الروسية (WMNB) في الولايات المتحدة الأمريكية. ونظراً لأنه ذكرني في هذا الحديث، اتصل بي من نيويورك ميخائيل بوزوكاشفيلي ودعاني للاستماع إلى الحديث مسجلاً، استمعت إليه وقلت: «أعتقد أنه من الضروري أن يستمعوا إلى ذلك في روسيا».

أيها المواطنون، لديكم إمكانية عظيمة لرؤية نموذج تفكير أحد رجال حكومتنا، ورؤية كيف يفكرون وعما يفكرون.

عندما تقرأون، لا تنسوا أن ما هو أمامكم ليس مجرد حديث تليفوني تم التنصت عليه وتسجيله، وإنما حديث عام رسمي مفتوح.

لقد تحدث تشوبايس كثيراً عن كوخ باعتباره إنسان مخلص وشريك له في الرأى، وكذلك يتحدث عند جيدار، وجيدار يتحدث كذلك عن تشوبايس. كل ذلك حقيقة ـ فهم جميعاً شركاء في الرأى. ولذلك فعندما تقرأون تذكروا أن من هو أمامكم ليس شخصاً بمفرده، وإنما أحد أعضاء الفريق. وإذا كان كوخ يتحدث عن مثل تلك الأشياء في الميكرفون على الهواء مباشرة، يمكننا أن نتصور ما يتحدث عنه كوخ وتشوبايس وجيدار بينهم وبين بعضهم، وماذا يفكر كل منهم بينه وبين نفسه.

ـ ألفريد، ما الفكرة الكامنة وراء عنوان كتابك «تصفية الإمبراطورية السوفيتية»؟

ـ ليست هناك أية فكرة، ولكنه عنوان وضعته دار النشر التى أملكها.

ـ يقال إن عملية الخصخصة في روسيا حملت طابعاً متوحشاً...

ـ لقد حملت هذا الطابع دائماً وفي كل مكان. فهم في تشيكوسلوفاكيا أيضاً غير راضين عن نتائج الخصخصة وساخطين عليها. والناخبون عموماً في أية دولة من دول العالم يتبرمون دائماً من نتائج الخصخصة.

ـ ولكن ماذا جنت روسيا من عملية الخصخصة.

ـ لقد حصلت روسيا بشكل واقعي على رصيد من الأوراق المالية، وإمكانية المضاربة

على السندات، وإمكانية جذب الاستثمارات بهذه الوسيلة. حصلت روسيا على طبقة من أصحاب الأملاك. وحصلت أيضاً على مبلغ ٢٠ مليار دولار، وأعتقد أن هذا كاف.

- كثيراً ما تقوم وسائل الإعلام بالإعلان عن أسماء المؤسسات التي، يقال، إنها قد بيعت بجزء بسيط من أسعارها الحقيقية، وعلى ضوء ذلك يقولون إن الشعب قد نُهب...

- الشعب لم ينهب لأنه لم يكن يملك تلك الأشياء. كيف يمكن نهب شيء ممن لا يملكه؟ أما ما يخص الأشياء التي بيعت بأسعار بخسة، فدعهم يذكرون أمثلة.

- على سبيل المثال شركة «نوريلسكي نيكل»، أعتقد أنها قد بيعت بمائة وسبعين مليون دولار، ولكنهم يقولون إن ثمنها يبلغ عدة مليارات من الدولارات..

- من يقول ذلك عليه أن يذهب ويشترى. أريد فقط أن أرى ذلك الشخص الذى يمكنه أن يدفع ولو حتى مليار واحد فى هذه الشركة التى بلغت خسائرها حتى لحظة بيعها ١٣ تريليون روبل.

- هناك آراء تتنبأ بأن هناك كارثة قد حلت بروسيا، ومستقبلها الاقتصادى غير مرئى، فماذا بالنسبة لك؟

- أنا أيضاً أرى ذلك.

- ألا ترى ضوء فى نهاية النفق؟

- لا.

- إذن بماذا تتنبأ لمستقبل روسيا الاقتصادى؟

- مصائب أخرى قاسية. هجرة جماعية حتمية لكل أولئك الناس القادرين على التفكير ولا يستطيعون العمل (العمل بمفهوم العزق والحرث)، كل أولئك القادرين فقط على الاختراع والاكتشاف. وبعد ذلك - انهيار تام، وتحول إلى عشرات الدويلات الصغيرة.

- وما الفترة التى سوف يستغرقها ذلك؟

ـ ربما خلال ١٠ أو ١٥ سنة، فخلال ٧٥ عاماً حينما كانت ملامح الاقتصاد العالمى تتكون، وقفت روسيا أو بالأحرى الاتحاد السوفييتى خارج الحلقة وأخذ يتطور بمفرده وتبعاً لقوانينه الخاصة. ولكن الاقتصاد العالمى تكون بدون الاتحاد السوفييتى، وأصبح مكتفياً بذاته، أو لديه مصادره وكل ما يلزمه، والآن ظهرت روسيا ولكن لا أحد فى حاجة إليها. (يضحك) ولا يوجد لها مكان فى الاقتصاد العالمى، ولا أحد فى حاجة إلى ألومينيوم روسيا أو نفطها. روسيا تقف فقط حجر عثرة، وهى تعمل فقط على تقويض الأسعار بإغراق أسواقها بالبضائع. ولذلك أعتقد أن مصيرها محزن ومثير للأسف.

ـ هل تعتقد أن إقبال الاستثمارات على روسيا سوف يكون بالحجم الذى يتوقعونه؟

ـ لا، لأنه لا أحد فى حاجة إلى روسيا (يضحك)، روسيا غير مهمة أو ضرورية لأحد (يضحك)، ألا تفهمون ذلك!

ـ ومع ذلك فروسيا لديها مصادر اقتصادية جبارة، وأيدى عاملة ضخمة، بالإضافة إلى أن العمل فى السوق الروسية...

ـ أية مصادر جبارة تملكها روسيا؟ كل ذلك أوهام وخداع وأساطير، وأنا فى نهاية الأمر أريد إزالة هذه الأمجاد. النفط؟ من الأفضل والأرخص استخراجه من الخليج العربى. النيكل؟ يستخرجونه من كندا. الألمونيوم؟ ـ فى أمريكا. الفحم؟ ـ فى استراليا. الغابات؟ ـ البرازيل. أنا أريد أن ما أعرف هذا الشىء الخاص أو المميز فى روسيا؟

ـ والتجارة مع روسيا، مع مثل هذا البلد الضخم حيث القوى الشرائية الاستهلاكية الضخمة..

ـ من أجل أن تشترى يجب أن تملك أموالاً. والروس ليست لديهم الإمكانية على الكسب، وبالتالى فهم لا يستطيعون شراء أى شىء.

ـ باختصار، أنت لا ترى أى أفق للمستقبل..

ـ أنا؟! لا. (يضحك) ولكن إذا كان بريماكوف يرى، فليعمل (يضحك).. إننى بمجرد أن أصبحت لا أرى هذه الآفاق، قدمت استقالتى على الفور من الحكومة. (لم يقدم

استقالته، ولكنهم أقالوه. لقد سافر النائب الأول لرئيس الوزراء فى ١١ أغسطس ١٩٩٧ مع أسرته إلى أمريكا فى إجازة. وفى ١٢ أغسطس أعلنوا فجأة عن إقالته. وفى ١٤ أغسطس عاد لمدة يوم ونصف اليوم ليسلم عهدته ويعود مرة أخرى إلى الولايات المتحدة الأمريكية. على الرغم من المشاكل التى حدثت. قام تشوبايس كعادته بخداع وسائل الإعلام قائلاً إن الإقالة تمت حسب خطة معينة. أما كوخ فيريد أن يقنعنا بأنه حتى اللحظة التى أُقيل فيها كان إنساناً وطنياً، ومتفائلاً، وشخصية حكومية حكيمة عندما قام ببيع «شركة الاتصالات»، ثم أصبح فجأة بعد ذلك، يوم ١٢ أغسطس، متشائماً، وقدم استقالته. وبالتالى، إذا كانت هناك ولو حتى فتاة صغيرة يمكنها أن تصدق ذلك، فيجب على كوخ أن يتزوجها، لأن الحياة مع مثل هذه الفتاة الصغيرة الساذجة ستكون سهلة بالنسبة له ـ ألكسندر مينكين).

ـ كيف يمكن، فى رأيك، أن تتغير السياسة الاقتصادية للحكومة الروسية؟ وهل ستكون هناك عودة إلى الأساليب القديمة؟

ـ وما أهمية ذلك هنا؟ إنهم مهما لفوا وداروا وفعلوا، فالأمر سيان: هذه الدولة قد أفلست.

ـ وأنت ترى أنه مهما كانت الأساليب الاقتصادية، فلن يمكن إنقاذ روسيا؟

ـ أعتقد أنه ليست هناك أية جدوى.

ـ ألا يمكن أن تكون الإصلاحات بالمعنى الحقيقى مناسبة ومقبولة بالنسبة لروسيا؟

ـ ذلك فقط إذا كفت روسيا عن الأحاديث المتواصلة عن الخصائص الروحية المميزة للشعب الروسى، وعن دوره المتميز. عندئذ فقط يمكن أن تظهر الإصلاحات. ولكن ما العمل إذا كانوا ما يزالون متمسكين بكبريائهم القومى، وبحثهم عن طريق ما إلى أنفسهم، ويتصورون أن الأشجار تثمر خبزاً. إنهم يفتخرون بأنفسهم، ويفتخرون حتى الآن بالباليه الروسى، وبالأدب الروسى فى القرن التاسع عشر لدرجة أنهم لا يقدرون على عمل أى شىء جديد.

ـ ولكن أليس من الممكن أن يكون لدى روسيا طريقها الخاص؟

ـ لا يوجد فى الاقتصاد طريق خاص، وإنما توجد قوانين.

ـ إنهم يسوقون التجربة البولندية، والصينية، و... أليس من الممكن أن يكون فى ذلك فائدة لروسيا؟

ـ طبعاً بلا شك. لقد قرأت فى أول أمس من جريدة «فاينيشيال تايمز» عن أن الموظفين الحكوميين فى الصين سرقوا ٢٥ مليار من إعانات القمح. هذه التجربة يمكن أن تكون نافعة فى روسيا، على الرغم من عدم وجود ٢٥ مليار دولار فيها. أما التجربة البولندية فليس فيها أى شىء إيجابى. إنه وهم ينشره صندوق النقد الدولى. فماذا فعل الروس؟ وبماذا تميزوا على الساحة الدولية؟ قدموا منتجاً ما؟ إنهم يعيشون كيفما اتفق، ينقبون عن البطاطس.

ـ إذا انطلقنا من وجهة نظرك هذه إلى المستقبل فى روسيا، فسوف نرى لوحة غير سارة على الإطلاق..

ـ طبعاً، غير سارة إطلاقاً. لماذا يجب أن تكون سارة؟ (ضحك).

ـ ولكن توجد دائماً رغبة فى أن ذلك الشعب الذى عانى كثيراً، يجب أن..

ـ الشعب الذى عانى كثيراً يعانى برغبته الخاصة وبمحض إرادته. لم يحتلهم أحد، ولم ينتقم منهم أحد، ولم يلق أحد بهم فى السجون. هم الذين يبلغون عن أنفسهم، ويلقون بأنفسهم فى السجون، ويطلقون النار على أنفسهم. ولذلك فهذا الشعب يحصد ثمار ما يزرعه.

ـ هل تعتقد أن إصلاحات يلتسين قد فشلت بشكل كامل، أم أنها فى أى حال من الأحوال ستتحقق فى روسيا المستقبل؟ إذ إن الكثير من الأمور فى روسيا قد تغيرت خلال السنوات العشر الأخيرة.

ـ نعم، فقد بذلنا قصارى جهدنا فى تغيير أمور كثيرة. وأعتقد أنه بعد مائتى أو ثلاثمائة سنة سوف تتحقق هذه الإصلاحات.

ـ وهل هناك توقعات بأن تعود روسيا فى المجال السياسى إلى الأساليب القديمة؟

ـ أنا أعتقد أن روسيا السياسية تتخذ موقفاً في غاية الحماقة بالنسبة ليوغوسلافيا. إن روسيا ـ تلك الدولة متعددة القوميات والتي يوجد فيها مسلمون وأرثوذوكس ويهود، والشيطان نفسه لا يعرف من أيضاً، لسبب ما يتعصب الروس للأرثوذكس ومن ثم يناصرون الصرب الذين ـ من وجهة نظرى ـ ليسوا على حق. أنا لا أفهم ما توجهات السياسة الخارجية الروسية، وبالنسبة لى فهى عبارة عن مجموعة من المواقف غير المرتبطة ببعضها البعض، وكل ما يهمها هو أن تعلن عن نفسها كقوة عظمى. لماذا ندعم صدّام فى مواجهته مع الولايات المتحدة الأمريكية فى الوقت الذى ندرك فيه جيداً أن صدام سوف يمثل منافساً لنا فى مجال النفط فى حالة إذا ما فكوا عنه الحصار؟ إن السياسة الخارجية الروسية، بالنسبة لى، غير مرتبطة إطلاقاً بالاقتصاد، وأنا هنا أُحمّل بريماكوف المسئولية كاملة.

ـ ولكن ماذا يمكن أن يحدث داخل روسيا نفسها، هل من الممكن أن يصل إلى السلطة إناس يعتنقون الأفكار الشيوعية؟

ـ لقد وصلوا بالفعل، وبكامل عددهم. إنهم مجموعة منتقاة من الشيوعيين: ماسلكوف وبريماكوف.. وغيرهم.

ـ وهل تعتقد أن زيوجانوف هذا نفسه شيوعى؟

ـ لا داعى هنا للاعتقاد بأن زيوجانوف اشتراكى ديموقراطى، إنه يحاول فقط أن يظهر أمام الغرب بهذا المظهر، ولكنه ليس أكثر من شيوعى تقليدى.

ـ ولكن ماذا عن الوضع السياسى الداخلى فى روسيا، هل من الممكن ـ من وجهة نظرك ـ أن يتطور؟

ـ من أجل أن يصل الشيوعيون إلى السلطة، ليس بالضرورة أن تتم تفجيرات وانقلابات. فسوف يصلون بشكل واضح ومكشوف ورسمى مثل الفاشيين عام ١٩٣٣ فى ألمانيا.

ـ إذا وصل الشيوعيون إلى السلطة، فماذا يمكن أن نتوقع منهم؟

ـ من الممكن أن تكون هناك شيوعية.

ـ ولكن أية شيوعية؟ فستالين كان شيوعياً، وجورباتشوف كان أيضاً كذلك..

ـ إن أى منهما لا يتناسب معى، لا الشيوعية الستالينية، ولا شيوعية جورباتشوف..

ـ إذن فماذا يمكن أن يحدث فعلياً فى روسيا؟ هل سيحدث وتعود السجون والمعتقلات والملاحقات كما كان عام ١٩٣٧؟

ـ من الممكن، فهناك الكثيرون الذين يتمنون ذلك.

ـ ومع ذلك فالكثيرون يعتقدون ويسوقون العديد من البراهين والإثباتات بأن زيوجانوف ليس شيوعياً..

ـ إنه شيوعى بحق، على الأقل بسبب أنه يسمى نفسه كذلك. لنفترض أن هناك ملصقاً ما مكتوب عليه «خراء». بالنسبة لى، لا يمكن أن أعلقه على صدرى. أما الإنسان الذى يأخذ الملصق المكتوب عليه «شيوعى» ويعلقه على صدره، فهذا بالفعل يتطابق تماماً مع الافتراض الذى ذكرته.

ـ لقد ذكر مينكين أنه بعد بداية المشاكل على الأرباح والمكاسب التى كانت فى مجملها لإحدى صور الرشوة، أعلن تشوبايس أن ٩٠٪ من هذه المبالغ قد تم تحويلها إلى الصندوق. ولكن مينكين قال إن ذلك لم يحدث حتى الآن...

ـ هذا كذب. نحن على استعداد لإبراز الوثائق والمستندات والشيكات.

ـ معنى ذلك أنه قد تم تحويل المبلغ فعلاً؟

ـ نعم، المبلغ كله. وما يقولونه مجرد كذب. (حتى أمام المحكمة لم يستطع الشركاء الثلاثة كوخ وتشوبايس وبويكو أن يظهروا تلك المستندات التى تثبت أنهم قاموا بتنفيذ وعدهم بتحويل ٩٥٪ من تلك المبالغ إلى مجموعة من الأعمال الخيرية. ولكنهم حولوا ٣٠٪ ـ ٤٠٪ منها فقط إلى صندوقهم هم، أى إلى أنفسهم، ولم يتم تحويل سنت واحد إلى الأعمال الخيرية ـ ألكسندر مينكين).

ـ ما مدى اهتمام الغرب بما يحدث فى روسيا الآن؟

ـ أهمية ضئيلة للغاية. ليست أكثر من اهتمامه بما يحدث في البرازيل. يجب على روسيا في نهاية الأمر أن تتخلى عن نموذج الدولة العظمى وتعرف أن مكانها الحقيقي في الصف إلى جوار البرازيل والصين والهند. إنها إذا استطاعت حتى أن تحتل مثل ذلك المكان، وتعترف بحجمها الحقيقي في الاقتصاد العالمي، عندئذ فقط يمكن أن يكون هناك أمل.

ـ معنى ذلك أنه يجب الاعتراف، بمحض الإرادة، بالحجم الحقيقي في الواقع، ومن ثم الذهاب إلى المدرسة من أجل الدراسة..

ـ بالطبع! بدلاً من أن يحاول الإنسان التفكير في اختراع القنبلة الهيدروجينية وهو مازال بالصف الثالث الابتدائي.

ـ من وجهة نظرك، كيف حدث ذلك، وهل هناك مقدمات قادت إليه؟

ـ لقد حدث كل ذلك بسبب الغباء والحماقة اللذين قادا إلى الكارثة، وذلك بسبب الاعتراف بديون الاتحاد السوفييتي والالتزام بتسديدها. كان ذلك غباء. لقد تم تحميل ٩٠ مليار دولار على عاتق اقتصاد في غاية الضعف، وبالتالي فقد كانت الكارثة في مسألة الوقت. أما الغرب فقد خدع روسيا. وعدها بإعادة جدولة الديون، ولم يف بوعده. الغرب وعد روسيا بالمساعدات الاقتصادية، ولكنه لم ينفذ وتركها وجهاً لوجه مع الديون التي لم تصنعها هي. وأعتقد أن ذلك هو أحد العناصر الاستراتيجية الخاصة لإضعاف روسيا، أي استراتيجية الغرب.

ـ معنى ذلك أن الكوارث الاقتصادية في روسيا تأتي من الغرب..

ـ الكوارث الاقتصادية جاءت قبل كل شيء من شيوعية السبعين عاماً التي جعلت العقول والأرواح تتعفن. وفي نهاية الأمر لم نحصل على إنسان روسي وإنما على كائن سوفييتي Homo soveticus لا يريد أن يعمل ولكنه مع ذلك يفتح فمه طوال الوقت من أجل الخبز.

ـ إلى أي مدى يدرك الغرب أن الفوضى في روسيا يمكنها أن تشكل خطراً على العالم كله.

ـ إنني بصراحة لا أفهم لماذا يمكن للفوضى في روسيا أن تشكل خطراً على العالم كله هل هذا لمجرد أنها تمتلك أسلحة نووية؟

ـ نعم، لهذا السبب تحديداً، فهل هذا قليل؟

ـ أنا أعتقد أنه من أجل انتزاع الأسلحة النووية من عندنا تكفي مجموعة واحدة من المظليين كي تعطل هذه الأشياء كلها وتحملها معها إلى الشيطان. إن جيشنا ليس في حالة تسمح له حتى بالمقاومة، والحرب الشيشانية أثبتت ذلك بشكل رائع.

مظاهر الانهيار

يبدو أن الحركة الصهيونية هى أحد أهم الأسباب فى بلاء روسيا كما يرى البعض، وأن اللوبى الصهيونى فعلاً هو المتصرف الوحيد بجميع مفاتيح هذه البلاد الواسعة، ومع ذلك لا يمكن اتهامه بإقامة ثورة ١٩١٧، أو إسقاط الاتحاد السوفييتى كما يفضل بعض المراقبين أصحاب الحلول البسيطة، أو كما يشاع فى الغرب وبعض دول العالم الثالث التى تفضل وسائل الإعلام فيها التركيز على دور اليهود فى ثورة ١٩١٧، ودورهم فى الانهيار العظيم الذى غيّر معالم الكرة الأرضية فى نهاية القرن العشرين. هذه الآراء فى مجملها تمتلك نسباً متفاوتة من الصحة ولكنها ليست جميع الأسباب، وليست كل الأسباب الرئيسية أيضاً.

يحمل المحللون العقلاء في روسيا وخارجها الاتحاد السوفييتي والنظام الشيوعي السوفييتي السابق (وخاصة في مرحلة ليونيد بريجنيف) أسباب الفساد والانهيار. هذا الرأي يمتلك قسطاً كبيراً من الصحة إلى جوار أسباب أخرى كثيرة خارجية وداخلية. وإذا كانت العديد من الكتب والأدبيات طوال أكثر من عشر سنوات قد تناولت أسباب انهيار الاتحاد السوفييتي بوجهات نظر مختلفة أو متفاوتة من حيث الاتفاق، فإن القليل منها قد تناول مظاهر هذا السقوط والانهيار، واقتصر نشر تلك المظاهر على الصحف اليومية ونشرات الأخبار.

هنا تحديداً يصير من المهم أن نستعرض بعض مظاهر الانهيار خلال السنوات التي تلت سقوط الاتحاد السوفييتي، وأن نلقى الضوء على النتائج التي تبدو محلية وخاصة بروسيا، ولكنها في حقيقة الأمر هي إحدى الأسباب المهمة (بالطبع إلى جانب الانهيار الاقتصادي والسياسي الذي أعطى انطباعاً يكاد يكون صحيحاً بسقوط وتلاشي الأيديولوجية الاشتراكية وبأن - كما يدعي المنظرون الغربيون وأصحاب أفكار العولمة - عصر الأيديولوجيات قد انتهى أو على أسوأ الفروض فقد بقيت أيديولوجية وحيدة فقط) التي ساهمت في تطور الأحداث العالمية منذ نهاية الثمانينيات، وكشفت عن ملامح العولمة والنظام العالمي الجديد، وانهيار الكثير من الأفكار والأحلام وخاصة عند بسطاء الناس في العديد من دول العالم. والأخطر من كل ذلك هو ظهور جيوش المافيا الروسية (في روسيا وأوربا على حد سواء)، وانتشار تجارة الجنس (في روسيا) ودخول الفتاة الروسية حلبة المصارعة في الفنادق والبارات وعلى الأرصفة (في روسيا وأوربا ودول الخليج وإفريقيا وأمريكا اللاتينية). وإذا كنا سنتعرض لبعض تلك المظاهر (ولو حتى على شكل تحقيقات صحفية، واعتماداً على بعض اللقاءات، والصحف، والمجلات)، فهي كلها مجرد عرض أفقي لمجريات الأمور في روسيا خلال السنوات العشر الأخيرة من أجل استكمال المشهد الروسي العام من ناحية، وإلقاء المزيد من الضوء على الحملة الصهيونية الأخيرة ضد الشعب الروسي وتاريخه ومثقفيه من ناحية أخرى، وهي حملة ليست موجهة فقط ضد الروس وإنما ضد كل الشعوب التي تطمح في بناء مستقبلها بعيداً عن تأثير اللوبي الصهيوني العالمي. وإذا كانت الحملة الصهيونية الأخيرة قد نشطت في ظل الأزمة

الاقتصادية التى وقعت فيها روسيا والتى وضع خطوطها العريضة مهندسو الاقتصاد والسياسة اليهود، ومازال يديرها أفراد الطغمة المالية اليهودية، فالأمر لا يبدو غريباً على الصهيونية العالمية وممارساتها التاريخية. ولكن ما يثير حفيظتها ويسبب لها الرعب أن المثقفين الروس - رغم الانحطاط العام وتدنى مظاهر الحياة ومستوى المعيشة لدى الطبقتين الوسطى والفقيرة - مازلوا متيقظين للمشروع الصهيونى الكبير بخصوص روسيا. ولكن إلى جانب ذلك ظهرت بعض المنظمات الفاشية الجديدة، والجمعيات القومية المتطرفة، وهى كلها منظمات علنية تعمل على المكشوف، وتملك الأسلحة والأموال والعقول المدبرة ووسائل الإعلام. والجدير بالذكر هنا أن تلك المنظمات والجمعيات لم تخلق من العدم، ولكنها توالدت فى ظل ظروف متدنية تزداد مع فقدان الأمل فى الحياة الكريمة والحصول ولو حتى على الراتب الشهرى الذى يتأخر لشهور عديدة ناهيك عن وجود مثل تلك المنظمات والجمعيات فى كل الدول الأوربية، ولكن وجودها فى روسيا يسبب عوائق كثيرة فى طريق اللوبى الصهيونى الذى مايزال يرى فى روسيا مصدراً هاماً لرفاهيته (من حيث الثراء الاقتصادى والعسكرى والثقافى) من ناحية، ومن ناحية أخرى فاللوبى يستثمر بعض مواقف هذه المنظمات والجمعيات لابتزاز القوى السياسية من شيوعيين وديموقراطيين وقوميين، بل ويعلو صراخه حتى عندما يتم الإشارة وبشكل فردى إلى سيطرة ممثلى الحركة الصهيونية على السلطة فى روسيا. هنا بالذات نصطدم مرة أخرى باللوبى الصهيونى الذى سيطر تقريباً على جميع منافذ الحياة العامة والخاصة فى روسيا. ومن ثم يمكن الإشارة إلى وجود جمعيات ومنظمات صهيونية فى غاية الثراء والقوة والقسوة، وهى إحدى الظواهر التى عملت على تنشيط التطرف بين الروس نظراً لما تملكه هذه الجمعيات والمنظمات من خبرة تاريخية طويلة فى هذا الميدان، ناهيك عن تركيزها الشديد على تأليب القوميات ضد بعضها البعض، وتأليبها أيضاً ضد الروس) وهى الظاهرة التى نشطت بشكل لافت للانتباه بمجرد سقوط الاتحاد السوفييتى، وصار الأمر فى غاية الخطورة حيث يسيطر مجموعة من الأشخاص من ممثلى الأقلية اليهودية فى روسيا على مقاليد الحكم لأكثر من ١٧٠ مليون نسمة يمثلون حوالى ١٣٠ قومية هى جميعاً شعوب روسيا الاتحادية التى يمثل فيها الروس أكثر من ١٤٠ مليون إنسان.

(١) الشارع الثقافى الروسى

لاشك أن شعار البناء «بريسترويكا» الذى طرحه آخر زعماء الاتحاد السوفييتى ميخائيل جورباتشوف فى ربيع ١٩٨٥ قد غير جميع جوانب الحياة ليس فقط فى الدولة السوفيتيية الضخمة، وإنما فى كل دول الكتلة الشرقية، وامتد تأثيره الواضح على كافة دول أوربا وأمريكا والعالم الثالث. وكما كان لهذا الشعار من أثر واضح على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، كانت له أيضاً آثاره الضخمة على الثقافة والفكر والأدب والفن. وفى شتاء ١٩٩١ تم القضاء بشكل نهائى على الاتحاد السوفييتى وقامت روسيا الاتحادية الجديدة رافعة شعار الإصلاح «ريفورما». وبعد مرور أكثر من عشر سنوات على إعادة البناء فى الاتحاد السوفييتى، ومرور خمس سنوات على الإصلاح فى روسيا الاتحادية، تتوقف الحركة الثقافية والفكرية فى العالم، وعلى الأخص فى روسيا، أمام عدة تساؤلات تثير الحيرة والدهشة والاهتمام. ففى أى طريق سارت الـ «بريسترويكا» الثقافية ومن بعدها الـ «ريفورما»؟ وما الحصيلة الثقافية والفكرية على مدى أكثر من عشر سنوات؟ هل ظهر أديب أو شاعر مؤثر يمكن ربطهما بهذه المرحلة؟ هل ظهر عمل أدبى يمكن وضعه علامة على طريق «إعادة البناء» ثم «الإصلاح»؟ هل ظهر مخرج أو نجم يمكنه جذب الأنظار فى سماء المسرح والسينما؟ هل حلقت «بجعة» واحدة مرموقة فى فضاء الباليه الروسى؟ وهل انطلق فنان تشكيلى أو موسيقى واحد معروف خلال هذه الفترة؟

وعلى رأس جميع هذه التساؤلات يقف أكثرها أهمية وإثارة: هل كل ما كان قبل ١٠ سنوات باطلاً حقاً؟ خاصة وأن «إعادة البناء» قد جاءت فى المقدمة وتلتها بعد ذلك «الإصلاحات» ليس بالطبع عملاً بالمنطق المعكوس: العربة تجر الحصان، لأن المنطق هنا يشير بوضوح إلى أن العربة تسير فى اتجاه بينما الحصان يركض بإعياء فى اتجاه آخر تماماً.

الأدب السرى

خلال الخمس سنوات الأولى من «العلانية» و«إعادة البناء» تردد مصطلح «الأدب السرى» واحتل مركز الصدارة فى الصحف والمجلات وتبناه العديد من المثقفين والمبدعين

السوفييت، وبدأت المطابع ودور النشر في إلقاء ما في بطنها من المؤلفات القديمة للعديد من الكُتاب السوفييت مثل «بولجاكوف» و«سولجنيتسن» و«باسترناك» و«مندلشتام» و«يسنن» و«مايكوفسكي»، وإعادة طبع مولفات «أنّا أخماتوفا» و«مندلشتام» و«مارينا تسفتايفا»، وكانت لا تزال مؤلفات «جوركي» و«حمزاتوف» و«شولوخوف» و«ايتماتوف» و«سيمونوف» في الأسواق بينما لم يظهر كاتب أو شاعر جديد، ولم تخرج قصة قصيرة أو قصيدة تجذب الناس وتثير الحركة النقدية. وعندما بدأت بوادر ترجمة روايات «أجاثا كريستي» و«أرسين لوبين» و«شرلوك هولمز» تحل في الأسواق، توقف نفس هؤلاء المثقفين الذين رحبوا بشعار إعادة البناء، وهللوا لشعار «الأدب السرى» ليطرحوا سؤالاً لم يجد إجابته حتى الآن: ما جدوى المخزون السحرى - الذى توهمناه - للأدب السرى، وأين هو، وما النتيجة؟ ويبدو أن الوليمة كانت دسمة إلى حد كبير، فقد استمر الحال على هذا الوضع لمدة تزيد عن الخمس سنوات إلى أن جاءت «الإصلاحات» الروسية فاختفت كتب الأدباء والشعراء السوفييت، وظهرت طبعات أجنبية فاخرة لأدباء وشعراء ما قبل الثورة، وكتب لمؤلفين أجانب كلاسيكيين وآخرين لم يسمع أحد بأسمائهم، وبالطبع بعض الكتب للمبدعين السوفييت المناهضين للعصر السوفييتى، أو الذين كانوا قد هاجروا إلى الخارج.

البلاى بوى بكوادر روسية

في ذلك الوقت ظهرت جرائد ومجلات جديدة تماماً احتلت محطات المترو وأكشاك بيع الصحف، وأكثرها انتشاراً حتى وقتنا هذا «بلاى بوى» و«كسموبوليتان» حيث ظهرتا بطبعة روسية فاخرة وبداخل كل منهما بعض العوازل الجنسية للرجال على سبيل الهدايا، وتم حالياً إقامة دار نشر ضخمة بمطابعها وكوادرها الروسية للقيام بإنتاج محلى يلائم طبيعة المستهلك الروسى الجديد في حين تعثرت الدوريات الثقافية والفنية مثل «قضايا الأدب» و«الأدب الأجنبى» و«المسرح» و«الباليه» و«الفن التشكيلى» إلى اخر تلك القائمة من الصحف والمجلات التى كانت تخرج بانتظام وبلغات متعددة بلغت في وقت من الأوقات حوالى ٤٥ لغة.

الملابس الداخلية والمعلبات

وعلى صعيد آخر احتلت أكشاك البضائع الأجنبية معظم المكتبات ودور الكتب الرئيسية فى موسكو والأقاليم الأخرى، بينما تحولت مكتبة «دار التقدم» الشهيرة إلى «سوبر ماركت». والجدير بالذكر أن دار التقدم هى إحدى وأعرق وأشهر دور النشر السوفييتية، وكانت مكتبتها مكونة من طابقين لبيع الكتب بكل لغات العالم تقريباً، إلا أنه بعد بناء الطابق الثالث عام ١٩٩٣ تقلصت المكتبة إلى خمسة أرفف بالطابق الأرضى فى زاوية ضيقة واحتلت أكشاك بيع آلات التصوير وأفلام الفيديو والمجلات الجنسية الجزء الأكبر، وتحول الطابق الثانى إلى سوق لبيع الخضروات الأجنبية بداية بالباذنجان وانتهاء بالكوسة والبصل والطماطم مروراً بالمعلبات الأوربية والمربى العربية والفول المصرى. أما الطابق الثالث فقد أصبح سوبر ماركت ضخماً للملابس الداخلية ولعب الأطفال المستوردة. وتوقفت كل من دارى «التقدم» و«رادوجا» عن الإنتاج تقريباً. المدهش فى الأمر أن المطابع التى تركها الاتحاد السوفييتى انتقلت إلى حوزة ملاك جدد غيروا هويتها، وهذا ما يفسر وجود الطبعات الكثيرة الفاخرة لكتب النوادر والفوازير والجنس والجريمة.

جيش المترجمين وحركة الترجمة

ومع سيطرة البلاى بوى والكسموبوليتان والكتب والمجلات الجنسية، وانحسار دور النشر وتحويل المكتبات إلى محلات تجارية، توقفت تقريباً حركة الترجمة الجادة من وإلى الروسية. ففى السابق كانت المطبوعات السوفييتية تصدر مباشرة باللغات الأجنبية، فى حين كان جيش المترجمين من وإلى جميع اللغات يقوم بترجمة أغلب ما تصدره مطابع العالم من دوريات وكتب وموسوعات. وفى ظل الإقبال الشديد على الثقافات الغربية الرخيصة وتناسى ما يقدمه الغرب أيضاً من ثقافات رفيعة وغنية تعطلت آلة الترجمة، وتحول جيش المترجمين إلى مرتزقة وعاطلين، وخصوصاً المهتمين منهم بالثقافة والفكر، وظهرت فئة جديدة تهتم فقط بالإنجليزية والألمانية واليابانية لسد احتياجات السوق ومرافقة المرضى ورجال ونساء الأعمال والمافيا. والأخطر من هذا وذاك تحول العديد من المترجمين إلى شوكة فى ظهر الثقافة والعلم ليس فى روسيا فقط وإنما فى الدول التى يدرس طلابها فى المؤسسات التعليمية الروسية، فثمة البعض الذى يقوم بترجمة أو كتابة

الرسائل العلمية للطلاب الأجانب، وهذا ما يفسر سرعة حصول الكثير على شهادات الدكتوراه من ناحية، ومن ناحية أخرى يلقى الضوء على عدم دراية العديد من الحاصلين على شهاداتهم من روسيا باللغة الروسية، ناهيك عن الظواهر المرعبة فى الآونة الأخيرة مثل كتابة المقالات العلمية للطلاب وطلاب الدراسات العليا الأجانب فى الأشهر الأولى من دراستهم على الرغم من عدم التحصيل سواء فى اللغة أو فى المادة العلمية.

وبالرغم من ذلك فلا أحد يعرف..

وفى محاولات يائسة لبعض المجلات مثل «قضايا الأدب» و«الراصد الموسكوفى - المسرحية»، أو اتحاد الكُتاب لإصلاح مجرى الأمور بعقد الندوات والمناقشات والطاولات المستديرة، نجد أن القائمين عليها جميعاً هم فرسان الحقبة السوفييتية. وقد أجمع العديد منهم على وجود مساحة من الحرية والانفتاح، إلا أنهم فشلوا جميعاً فى رصد الكُتاب الجدد الذين يمثلون ظاهرة إبداعية فى الفترة الأخيرة. أما الذين نجحوا فى ذكر بعض الأسماء، فلم يستطيعوا تحديد نتاجهم المتميز، ورصد الحصاد الثقافى والإبداعى بشكلعام خلال العشر سنوات الأخيرة. هذا ويعجز رجل الشارع تماماً عن ذكر ولو اسم واحد فقط جذب اهتمامه بعمل أدبى مميز، فى حين يفقد الإنسان العادى من الجيل القديم صبره بسرعة، ويشيح مطوحاً بذراعه مردداً الجملة الروسية الشهيرة والمريحة «لا أعرف»، ليبقى الأدب السوفييتى فعلياً هو الأدب الذى يمكن قراءته، وتبقى الأسماء السوفييتية من روائيين وشعراء وقصاصين وكُتاب مسرحيين هى الأكثر لمعاناً ورسوخاً فى الذاكرة، وخاصة فى ذاكرة الجيل الجديد من الشباب، وفى ذاكرة الروس الجدد أيضاً، لأن الأمر لا يخلو أحياناً من التظاهر بالثقافة أمام الأصدقاء أو الزبائن الأجانب، فلا يسعف الذاكرة على الأقل حتى الآن سوى النتاج الثقافى والأدبى السوفييتى وأصحابه.

المسرح الروسى ودورة الوعى

يمتلك المسرح الروسى أهمية خاصة حتى من قبل ثورة ١٩١٧، وقد تأصلت هذه الأهمية بسير المسرح فى طريق أكثر خصوصية بعد الثورة وعلى مدى أكثر من سبعين عاماً. وهذه الأهمية والخصوصية تكمن بالدرجة الأولى فى خصوصية روسيا، وتنبع أساساً

من كون هذا البلد لا يمكن أبداً اعتباره شرقياً أو غربياً. فالشاعر الروسى العظيم الكسندر سيرجيفيتش بوشكين أطلق مقولته التى أصبحت بديهية فلسفية بأن روسيا تمتلك روحى الشرق والغرب معاً، بينما أطلق المفكرون والمثقفون فى أوقات لاحقة مقولة روسيا المعبر بين الشرق والغرب. ويبدو أن مقولة بوشكين هى الأقرب إلى الصحة. لأنه ومع تتبع تاريخ هذا البلد تجد أنه ليس شرقياً وليس غربياً، ولكنه عالماً له طابعه الخاص، وفلكه الجامع الشامل الذى يدور فيه وله، ومنه وإليه جامعاً الشرقى والغربى فى شكل ومضمون روسيين. ومع مجىء شعار إعادة البناء فى منتصف الثمانينيات طفت على السطح ظاهرة غريبة فى المسرح الروسى، فاختفت النصوص المعاصرة وحلت محلها نصوص مسرحية مكتوبة على عجل يناسب المرحلة، وتميزت أغلبها، إن لم تكن جميعها، بالهبوط والإسفاف، وظهرت أسماء غريبة وجديدة للمرة الأولى، وأحياناً الأخيرة على أفيشات العروض المسرحية كمؤلفين مسرحيين جدد. ورافق هذه الظاهرة وجود مخرجين جدد لا يقلون غرابة وسطحية عن مؤلفى نصوصهم. ويبدو أن كل ذلك قد تزامن مع بوادر ظهور الروس الجدد، والقيم الجديدة التى تمثلت فى رفض كل ما كان بصرف النظر عما هو كائن الآن. وفى الحقيقة فقد كانت الآلة الإعلامية ثقيلة وجبارة على عقول الروس فى هذه الفترة. وما لبثت الوليمة أن انفضت بانهيار الاتحاد السوفييتى وبزوغ نجم روسيا الجديدة. وبعد عامين من الـ «ريفورما» وسبعة أعوام من الـ «بريسترويكا» أدرك الجميع أن الحلم الوردى الذى بثته وسائل الإعلام كان ملوناً ومزوقاً أكثر من الحد اللازم. وبالرغم من عدم ظهور نص جيد خلال هذه السنوات إلا أن عجلة الوعى قد دارت حول نفسها دورة كاملة وبسرعة عجيبة ليفيق الجميع على بداية انهيار مسرحى شامل. والمفاجأة المدهشة أن المخرجين المسرحيين الذين عادوا لتوهم من المنفى أو المهجر قد شاركوا فى يقظة الوعى هذه، وفوجئ الناس بعروض مسرحية جديدة لنفس المخرجين الذين نشأوا وترعرعوا على التربة الثقافية السوفييتية بصرف النظر عن كونهم من الذين أمضوا حياتهم خارج الاتحاد السوفييتى، أو عاشوا داخله فى ظروف مختلفة ومتباينة. وكان الطريق الوحيد أمامهم للخروج من الأزمة هو التعامل مع الأدب العالمى والتراث الروسى والسوفييتى.

المسرح العالمى والسوفييتى فى المقدمة

وأصبح على مدى أسبوع واحد يمكن مشاهدة العديد من العروض المسرحية المأخوذة عن أعمال ديستويفسكى وبوشكين وليف تولستوى وجونتشاروف وتورجينيف وتشيخوف وجوركى، إضافة إلى شكسبير وكافكا ومارك توين وتشارلز ديكنز، ثم هوفمان وفلوبير وبولجاكوف وجوجول وساشا سوكولوف وأفيرتشينكو وتريفونوف. أسماء لا يمكن حصرها من الأدب العالمى والروسى والسوفييتى تناولها مخرجون سوفييت بالدرجة الأولى من أمثال يورى لوبيموف ومارك زاخاروف ويفريموف ومارك رازوفسكى وفوكين واريومين وفكتيوك وتشيخيدزه وروبرت ستورا وجالينا فولشيك، إلى آخر تلك القائمة التى لم تضم حتى الآن اسم مخرج واحد لامع تخرج من مدرسة إعادة البناء أو الإصلاحات الروسية الجديدة.

«خولستمير» تولستوى فى مهرجان القاهرة ٩٦

وتشير إحصائيات وزارة الثقافة الروسية للموسم المسرحى ٩٥ / ٩٦ إلى أن نسبة ٧٠٪ من العروض المسرحية التى بلغت حوالى ١١٠ عرضاً مسرحياً هى لمؤلفين عالميين ومن التراث الروسى والسوفييتى، والنسبة الباقية لمؤلفين ترعرعوا على الثقافة السوفييتية، ناهيك عن أن جميع المخرجين الذين قاموا بها ليس بينهم واحد فقط لمع نجمه فى السنوات العشر الأخيرة. وعندما التقينا بالمخرج مارك رازوفسكى بعد عودته من مهرجان القاهرة للمسرح التجريبى، وعرض فيه مسرحية «قصة حصان» المأخوذ عن النص الكلاسيكى «خولستمير» للكاتب الروسى ليف تولستوى، أكد بأن المسرح الروسى لا يزال قائماً على أكتاف المؤلفين والمخرجين والممثلين السوفييت، وهز رأسه فى صمت بالنفى على سؤالنا عن حصاد البريسترويكا الثقافى. وتحول إلى الحديث عن الأعمال الفنية الكلاسيكية مجيباً بذلك وبشكل غير مباشر عن السؤال السابق.

الخواء الروحى للزمن المعاصر

يقول مارك جريجوريفيتش رازوفسكى: إن الرجوع إلى الأعمال الفنية الكلاسيكية يعنى دائماً، شئنا أم لم نشأ، الارتداد عما هو موجود فى زمننا المعاصر من خواء روحى

يفتح هوة حالكة من انعدام القيم والمفاهيم الإنسانية، وفى نفس الوقت يعنى التوغل فى المعاصرة على ضوء استلهام التراث وفهم تجارب وخبرات أصحابه التى نستدعيها خصيصاً لسد هوة الفراغ الروحى لهذا الزمن والقضاء على كل ما يتسرب إلى أرواحنا من دمار.

كما يؤكد: بأن الإقبال على القديم بشكل عام ينشأ بسبب النزوع إلى الجذور الأصلية والأصيلة والتوق إلى التراث حتى لا يموت فى لحظات الرعب والفزع، أو يتلاشى فى خضم تمزقات العالم المعاصر، وليظل دائماً فى وعينا ووعى أحفادنا بكل سلبياته وإيجابياته بصرف النظر عما إذا كنا متفقين أو مختلفين معه، لأن تناوله الدائم على ضوء المتغيرات التاريخية والسياسية والاجتماعية والفنية يعطينا الإمكانية للوقوف على أرض صلبة ويفتح آفاقاً جديدة للانتقاء والتفاعل مع هذا التراث دون خجل أو مكابرة أو تطرف.

الفن الخالى من القيم والأخلاقيات

ومن ناحية أخرى يشير رازوفسكى: إن إعادة إنتاج ما مضى يجب ألا تكون مثل إقامة تماثيل لتماثيل أخرى، أى ذلك الفن الخالى من القيم والأخلاقيات والذى يرضى الكثيرين من المدعين والكاذبين على الرغم من إفلاسه وعدم فاعليته فى الواقع. ويتم ذلك فقط عندما تجرى فى الحاضر عملية تحرر وانعتاق للروح بعيداً عن التزوير والمحاكاة.

ويضيف: إن الثقافة تأخذ دورها الطليعى عندما تتغلغل فى العمق وتعيد إنتاج نفسها وتبعث فى الذاكرة عملية بحث جبارة عن الحقيقة، وعن كل ما اندثر وضاع. فى هذه اللحظة تصبح الثقافة ضرورية للجماهير العريضة التى صارت ضامرة الإحساس وعديمة الاكتراث تجاه أى تراث مهما كان جميلاً.

من قال لا أعرف.. فقد أفتى

وبالرغم من كل ذلك نجد أغلب المسرحيين يتحفظون على الفترة السوفييتية لأسباب عديدة من أهمها الرقابة الصارمة والمركزية، وسيطرة الواقعية الاشتراكية التى كانت شرطاً لقبول غالبية الأعمال الفنية، ولكنهم فى نفس الوقت لا يستطيعون إنكار الزخم

الثقافي والفكرى والإبداعى فى تلك المرحلة. أما البعض الذى يجد التحولات الأخيرة فيتوقف أمام النتائج فى دهشة وذهول لعدم وجود حصاد حقيقى رغم كلمة «مساحة الحرية» التى يرددونها بين جملة وأخرى.

أما إنسان الشارع فهو أكثر فصاحة وتحديداً عندما يقول بخبث «لا أعرف»، أو يردد فى دهشة «شيء عجيب»، بينما ترى شريحة البسطاء الواسعة: أن ا لناس فى حالة انشغال دائم بالحصول على لقمة العيش التى أصبح من الصعب العثور عليها. ويضيفون: لقد أعلنوا أنهم وهبوا الناس الحرية، ولكنهم مازالوا يحاصروننا بوسائل وطرق أخرى لنجد أنفسنا فى نهاية الأمر جائعين وعراة وبدون مأوى.

وعندما نحاصرهم بالأسئلة لا تجد فى ذاكرتهم سوى العروض المسرحية ومخرجى وممثلى الأيام الخوالى قبل عشر سنوات.

سينما الانفتاح فى روسيا

لم يكن حظ السينما الروسية بعد البريسترويكا أفضل نصيباً من حظ الحركة الأدبية والمسرحية. فقد بدأت سياسة إعادة البناء والعلانية بعرض أفلام أندريه تاركوفسكى لإثبات حسن النية والجدية، من ناحية ومن ناحية أخرى قامت بطرح موجة من الأفلام الانفتاحية الغثة والرديئة التى تميزت بالسخرية من كل شيء، وهدم كل ما مضى دون طرح رؤية جدية لسبر أغوار المتفرج، وأظهرت عنصرية واضحة ضد الأجانب من العرب والسود وأصدقاء الأمس من دول الكتلة الشرقية وجمهوريات الاتحاد السوفييتى السابقة، فى الوقت الذى رسخت فيه نموذج الحياة الأمريكى والأوربى، وتم فتح الأبواب لأفلام الـ «أكشن» الأمريكية كمقدمة لاستقبال أفلام سلفستر ستالونى فى فيتنام وأفغانستان، وأفلام «شفرتسنيجر» و«فان دام» والمافيا الإيطالية والأمريكية.

أفلام الجنس.. والمسلسلات الهندية والمكسيكية

لقد جاءت التحولات الجديدة على بنية تحتية قوية بالنسبة لعدد من الاستوديوهات ودور العرض السينمائى والميزانيات المالية الضخمة مما ساهم فى انتشار الموجات السينمائية الاستهلاكية فى السنوات الأولى للبريسترويكا، وقام جهاز التليفزيون

والفيديو بدورهما فى التأثير على الشباب وكبار السن بعرض أفلام الجنس والمخدرات، والمسلسلات الهندية والمكسيكية والأمريكية والميلودرامية التى يبلغ طول المسلسل الواحد منها أحياناً إلى أكثر من ٣٠٠ حلقة. ومع نهاية عمر البريسترويكا كانت أستوديوهات «لينجراد فيلم» قد توقفت تماماً عن الإنتاج وبدأت المفاوضات مع صندوق السينما الفرنسى وبعض الجمعيات الأوربية الأخرى للقيام بدور الممول، فى حين تحول جيش المخرجين والممثلين والعاملين فى مجال السينما إلى عاطلين عن العمل. وكان أمامهم أحد طريقين، إما الانخراط والمساهمة فى تغييب وعى الجمهور بالعمل فى سينما الانفتاح، وإما انتظار دور الدولة برصد الميزانيات الكافية، أو البحث عن ممولين جادين لتبنى سينما حقيقية تقوم بدورها الطبيعى. ولكن مع بداية الـ «ريفورما» تحولت معظم دور العرض إلى محلات لبيع الملابس والمشروبات الكحولية وأفلام الفيديو والتصوير، أو توقفت تماماً عن العمل فى انتظار صاحبها الجديد من شريحة الروس الجدد، وأصبح من النادر مشاهدة فيلم روسى جاد، أو حتى عرض فيلم قديم بالتليفزيون، بينما سيطرت السينما الأمريكية والمكسيكية على الشاشتين.

من ١٧٠ إلى ٣٠ فيلماً سنوياً

يقول رئيس تحرير مجلة «الفيلم السوفييتى» والأستاذ بمعهد السينما أرمين مدفيديف: لقد تقلص الإنتاج السينمائى من ١٧٠ فيلماً سنوياً فى آخر سنوات ما قبل البريسترويكا إلى ٣٠ فيلماً فقط فى السنة. وبالرغم من أن هذا العدد لا يمثل ٢٠٪ من الإنتاج السابق إلا أن الدولة ترصد له مبلغاً ضئيلاً لا يتعدى ٣٠٠ مليار روبل تذهب منه ١٠ مليارات للصرف على العاملين. ويضيف: ولقد انتظرنا الرأسمال الوطنى للمساهمة فى استمرار مسيرة السينما، إلا أننا فوجئنا بأنهم يريديون سينما خاصة بهم، وسريعة الكسب. بل اشترى العديد منهم بعض دور العرض على ألا يحولونها إلى مؤسسات تجارية، ولكنهم نجحوا فى التحايل على القانون.

أما المخرج والمصور وكاتب السيناريو سيرجى ليفنيف الذى يعمل مديراً لاستوديودهات «جوركى» فيقول: لقد أصبح من الصعب حالياً تصدير السينما الروسية لرداءة مستواها، وانعدام الإنتاج الجيد، وقلة الأفلام بشكل عام. ويضيف: إن إنتاج

استوديوهات جوركى لا يتعدى فيلمين فى السنة الواحدة، ومنذ خمس سنوات لم يتم إنتاج مسلسل واحد روسى، بينما تحولت استوديوهات «موسكو فيلم» إلى إطارات خارجية لبعض الأكشاك ومحلات إصلاح آلات التصوير المستوردة.

سينما الانفتاح والوجوه الجديدة

لم تبخل سينما الانفتاح على العديد من الشباب بإعطائهم فرصة العمل والظهور على الشاشة الكبيرة، والصغيرة أيضاً، إلا أن المتفرج لا يذكر إطلاقاً أى اسم منهم، بل ويصعب على المتابع المتخصص رصد السمات المميزة للوجوه الجديدة المتشابهة فى مجملها. وتبقى فى الذاكرة فقط أسماء المخرجين السوفييت من أمثال «أيزنشتاين» و«تاركوفسكى» و«ميخائيلكوف» و«مامين» و«شاخنازاروف» و«ريزانوف» و«مينشوف» و«جايداى»، وعشرات آخرين فى حين لازالت وجوه النجوم السوفييت محفوظة لدى الجميع من أمثال «تيخونوف» و«أرلوفا» و«مينكشوف» و«يفريموف» و«أندريتشينكو» و«ماريتسكايا» و«بابانوف» و«ميرونوف» و«أوساتوفا» و«خاراتين» و«مورداكوفا» و«سافونوفا» و«تاباكوف» و«ليونوف» و«جورتشينكا» و«سالومين» و«شجارخانيان» على الرغم من أن العديد منهم قد وافاه الأجل فى السنوات الأخيرة.

المحصلة: البوذية والطريق إلى الشيوعية

وفى محصلة الأمر جاء مهرجان موسكو السينمائى الأخير عام ١٩٩٥ بعد انقطاع طويل ضعيفاً وهزيلاً لأبعد الحدود، وحجبت الجائزة الأولى لأحسن فيلم، وتميزت معظم الأفلام المشاركة بالبساطة والسذاجة والمستوى الفنى المتواضع للغاية، وخصوصاً الأفلام الروسية التى خلت من أية أسماء ووجوه جديدة، فى حين امتنعت دول كثيرة عن المشاركة بما فيها الدول العربية ما عدا لبنان فقط. وقد حاولت اللجنة المنظمة للمهرجان استعراض عضلاتها على مستوى التنظيم فوضعت على رأس لجنة التحكيم الأمريكى «ريتشارد جير» الذى اعتنق البوذية مؤخراً وإلى جواره بعض الوجوه الإيطالية والفرنسية المتواضعة، فجاء التنظيم بمستوى لا يقل عن مستوى الأفلام المشاركة. أما الجمهور العادى والمتذوق فقد استقبل المهرجان الذى كان يمثل له عيداً فى حقيقياً فى السابق بفتور شديد رغم تركيز

وسائل الإعلام على كل تحركات وإنجازات وتاريخ «ريتشارد جير» متصورة أن ذلك يمكنه جذب المتفرج ا لروسى ومداعبة أحلامه. وأطلق بعض الخبثاء نكاتهم الطريفة اللاذعة بأنه قد تم العثور على أحد مؤلفات لينين الذى تنبأ فيه بحتمية المرور بالبوذية على الطريق الصحيح لتطور الشيوعية.

الفنون الرفيعة.. والإسهامات السوفييتية

إذا كان قد تم الاصطلاح على أن فنى السينما والمسرح فنان جماهيريان، وأن الفنون التشكيلية والباليه والموسيقى والأوبرا فنون رفيعة من أجل الصفوة والمثقفين المتخصصين، فإن هذا المصطلح يمتلك وجهته الصحيحة بالنسبة لسكان ما يسمى بالعالم الثالث الذى لا يزال يعيش مشاكله الخاصة مع الأمية والبطالة وسوء التخطيط والطائفية، ولكنه يفقد مصداقيته فى دول أوربا وأمريكا حيث استطاعت شعوب هذه الدول أن تقطع طريقاً طويلاً فى تذوق وممارسة تلك الفنون حتى أصبحت فنوناً جماهيرية لها خصوصيتها. وروسيا التى كانت سوفييتية تدخل فى عداد الدول التى تربت شعوبها على الإحساس بعظمة وجمال هذه الفنون، والمساهمة بنصيب وافر فى تقدمها ليس فقط فى الحقبة السوفييتية، وإنما أيضاً فى فترة الحكم القيصرى. والقضية تكمن فى دور هذه الفنون كنشاط إنسانى يساهم فى تقديم البشرية، وكمؤشر لتطور الدولة وإسهامها الفعال فى رقى المجتمع الدولى. بالإضافة إلى أن هذه الفنون تمثل شكلاً من أشكال الثروة القومية التى يعاد استثمارها بشكل أو بآخر لتساهم فى زيادة الدخل القومى. فهل استطاعت البريسترويكا والجلاسنوست والريفورما أن يلعبن دورهن فى تقدم هذه الفنون بما جئن به من حرية وانفتاح واحتكاك بالعوالم الفنية لأوربا وأمريكا والدول الأخرى؟ وهل ظهرت كوادر فنية أتت بأعمال يمكن أن تمثل ظاهرة كما كان الحال قبل عشر سنوات؟

الفن التشكيلى

يقول الفنان الروسى الأرمينى الأصل والمولود فى أذربيجان عام ١٩١٨ «سورين ماليان»: لكل مرحلة فنونها، والفن بشكل عام فى حالة تغير وتطور دائمة. وللأسف كان الفن التشكيلى فى العصر السوفييتى محصوراً فى الواقعية الاشتراكية. وبعد

البريسترويكا شعر الفنانون بالارتياح والحرية واستطاعوا الاحتكاك بالعالم الخارجي وبالمدارس الفنية الأخرى.

وعن الطاقات الإبداعية الجديدة في مجال الفن التشكيلي بعد البريسترويكا قال: أنا أفهم مغزى السؤال، ولكن حتى الآن لم يظهر عمل مثير للاهتمام على يد واحد من جيل ما بعد إعادة البناء. وعن نفسه أضاف: لقد شاركت في الحرب العالمية الثانية، وبدأت مشواري الفني منذ نصف قرن مضى، من عام ١٩٤٩، وأقمت أكثر من ١٠٠ معرض، وأعمالي منتشرة في الكثير من ميادين الاتحاد السوفييتي السابق ومعارضه، وسافرت بلوحاتي وتماثيلي إلى دول عديدة كفرنسا وإنجلترا وأمريكا والسويد والنرويج، وكان آخر معارضي في روسيا عام ١٩٩١.

وفي النهاية أسعفته الذاكرة بأسماء بعض الفنانين التشكيليين السوفييت من أمثال أسوفسكي وفيلونوف وشيلوف وجلوزونوف وفالك، وابتسم قائلاً: ولكن خلال الفترة الأخيرة لا أذكر أحد.

من حسن الحظ.. الروس الجدد لا يرتادون المعارض

أما الفنان التشكيلي الطاجيكي الأصل (من مواليد طاجيكستان ١٩٥٦) عبد القدير رحيموف الحاصل على الجائزة الأولى في مسابقة مارك شاجال عام ١٩٩٤ فيقول: كان الفنان في الفترة السوفييتية يعتمد مادياً وروحياً على أشياء كثيرة أعاقته عن الإبداع. ولكن في الفترة الأخيرة حصلنا على مساحة معقولة نسبياً من الحرية في الاحتكاك بالمدارس الأخرى إلى جانب الواقعية الاشتراكية. ويضيف: ولكن للأسف الشديد فقد ساءت حالة الجمهور مؤخراً، فقبل عشر سنوات كان هناك جمهوراً عريضاً ومتذوقا للفنون التشكيلية، أما الآن فهناك طبقة جديدة ليست لها علاقة على الإطلاق بأي شيء في العالم سوى الـ «بيزنس»، ولحسن الحظ فهم لا يرتادون المعارض كثيراً، ومع ذلك فلا تزال هناك فئة من المثقفين تمارس دورها التنويري.

وعن ظهور فنانين تشكيليين يمثلون ظاهرة جديدة على طريق الفن التشكيلي الروسي قال: إن هذه الفترة من أحرج الفترات في تاريخ روسيا، ولا يمكننا تحديد أي شيء الآن،

خاصة وأن الأمور التى تحدثت لم تعط أى إنسان فرصة لرصد التحولات السريعة. وعموماً فالفن التشكيلى الروسى حالياً يقوم فعلياً على كل الأسس التى تم إرساؤها فى زمن الاتحاد السوفييتى لأن جميع الفنانين الحاليين تربوا على ثقافة ذلك العصر. وأضاف: أعتقد أن كل شىء لم يكن سيئاً كما يصورونه الآن، ولكل فترة سلبياتها وإيجابياتها أيضاً.

فى حين يرى الفنان التشكيلى الروسى جريجورى بوردين وزوجته الفنانة التشكيلية مارجاريتا بوردين أن البريسترويكا قد قامت بدور عظيم فى إتاحة الفرصة للاحتكاك بالفن الأوربى، ووهبتهم حرية الانفتاح على العالم الذى حرموا من رؤيته لسنوات طويلة. وأكدا: أن الفترة السوفييتية كانت من أسوأ الفترات التى مر بها هذا الفن، حيث حاصرتهم بالواقعية الاشتراكية التى قلصت ابداعاتهم وحالت دون انطلاقهم الفنى.

وعن الأسماء الجديدة فى عالم الفن التشكيلى الروسى قالا: لم يظهر حتى الآن فنان واحد يعد ظاهرة، ولم نر عملاً فنياً مثيراً خلال الفترة الأخيرة. ولكن المعارض كثيرة والإبداعات فى طور التشكل على الرغم من عدم دعم الدولة كما كان فى السابق.

الباليه الروسى

أما فن الباليه الذى يعتبر أحد أمجاد العصر السوفييتى دون منازع، والذى بنى السوفييت على غراره مدارس عديدة فى أنحاء العالم، لا يختلف حاله كثيراً عن أحوال الفنون الأخرى. فهل ظهرت أسماء جديدة لامعة مثل «مايا بليسيتسكايا» و«فلاديمير فاسيليف» وزوجته «كاترينا مكسيموفا» و«نورييف» و«أولانوفا» و«ليبيشينسكايا» و«مارينا سيميونفا» و«ألكسندر جودونوف» و«بوجوتيريوف» و«بيزسميرتنايا» و«سيميزوروفا» و«جورديف»؟ وهل استطاعت مدرسة الباليه الروسى الضاربة بجذورها فى القدم أن تضيف راقص أو راقصة أو مصمم رقصات يشكل ظاهرة مثل الظواهر السوفييتية التى كانت تظهر موسمياً لتشكل جيشاً فنياً على مستوى الكم والكيف؟ وهل ظهرت عروض جديدة ذاع صيتها فى العالم مثل «بحيرة البجع» و«جزيل» و«الجميلة النائمة» و«كسارة البندق» و«سبارتاكوس» و«سلفيدا» و«إيفان جروزنى» و«دون كيشوت» و«لورينسى» و«أسطورة عن الحب»؟

يقول الراقص والمخرج الروسى فيتشيسلاف جورديف: إن العروض الكلاسيكية تغطى حولاى ٧٠٪ من مجموع عروضنا طوال الموسم على مسرح «الباليه الروسى»، وإلى جانب ذلك نقدم بعض العروض الحديثة، ونعيد إنتاج العروض القديمة بشكل جديد. ويضيف: من وجهة نظرى تعتبر العروض التى نقوم بإعادتها مثل بحيرة البجع وكسارة البندق وغيرها من الكلاسيكيات قريبة إلى حد بعيد من العروض الكلاسيكية التى عرضت قب عشر سنوات.

وبخصوص الظواهر الجديدة على مستوى العروض والإمكانيات البشرية يؤكد: هناك مواهب جديدة ظهرت على الساحة ولكنها لا تقارن بالكم الهائل فى العصر السابق، ولا تقاربه فى المستوى، وعموماً فهناك محاولات كثيرة جارية لإعداد كوادر فنية حتى لا تتوقف العجلة رغم كثرة المشاكل وخصوصاً المادية منها.

هروب الكوادر إلى الملاهى والنوادى الليلية

أما مسرح البولشوى العريق المتخصص فى إنتاج الكلاسيكيات فقد وصلت عروضه فى الموسم الفنى ٩٥ / ١٩٩٦ إلى عدة عروض لا تزيد عن عدد أصابع اليد الواحدة، ولم يكن بينها جديد سوى «سلفيدا» التى لم تعرض منذ سبعين عاماً. و«سبارتاكوس» الذى لم يره أحد منذ أكثر من عشر سنوات. ويعود ذلك، كما تذيع وسائل الإعلام، إلى المشاكل المادية والفنية التى أصبحت تهدد وجود هذه القلعة الفنية العريقة. ومن أشهر الحوادث التى جرت فى الموسم الماضى توقف المسرح، رغم حضور السفير الأمريكى لمشاهدة العرض، احتجاجاً على عدم صرف الرواتب، إلا أن الذى لم تذكره الصحف آنذاك هو المشاكل الفنية التى لا تزال تهدد وجود الفرقة. بعد ذلك انتشرت إشاعة رشوة مدير المسرح والقبض عليه، والتى أكدتها الصحف فى حينه حيث وصل مجموع مبلغ الرشوة إلى ١٥٠ ألف دولار من بعض ممثلى الدول الأوربية لتسهيل سفر الفرقة للعرض بأسعار أرخص.

هذا وتبدو قضية هروب الكوادر الفنية من أصعب القضايا وأخطرها على فن الباليه الروسى. فالجيل الشاب الذى نشأ وترعرع فى السنوات الأخيرة من عمر الدولة

السوفييتية لم يجد فرصته في العالم الروسي الجديد فحملوا حقائبهم وسافروا كيفما اتفق. وأصبحت الغالبية العظمى منهم تمثل النواة الأساسية في الملاهي الليلية والكازينوهات في أوربا وأمريكا، إلى جانب استخدامهم في تجارة الجنس، والجدير بالذكر أن العديد منهم سافر إلى الدول العربية مثل مصر وسوريا، ليعملوا في فرق الفنون الشعبية والنوادي الليلية، ومن أسعده الحظ انضم إلى فرق الباليه في هذه الدول. وعلى سبيل المثال لا الحصر فنسبة ٦٠٪ من الروس هي الكادر الأساسي لفرقة باليه الأوبرا المصرية، ناهيك عن فرقة سمير صبري وفرق شارع محمد علي، وما خفي كان أعظم.

الموسيقى والأوبرا

إذا كان المسرح والسينما قد أصبحا من الثقافات الضرورية بفعل الزمن والتقدم وتطور الوعي، فالموسيقى والأوبرا قد لحقتا بهما من حيث الجماهيرية أيضاً على اعتبار أنهما من الرفاهيات الضرورية. وإذا كان ارتياد المسرح والسينما شيئاً عادياً في أي يوم من الأسبوع، فالروس السوفييت كانوا يحرصون دائماً على ارتياد الحفلات الموسيقية وعروض الأوبرا مرة على الأقل في الأسبوع. فماذا تبقى من هذه التقاليد؟ وماذا أضافت البريسترويكا لهذين الفنين؟ وهل من ظواهر جديدة فيهما؟

الإجابة على هذه الأسئلة لن تختلف كثيراً عن مثيلاتها في مجالات الأدب والمسرح والسينما والباليه والفن التشكيلي. فمازال «خاتشاتوريان» و«بروكوفيوف» و«شستاكوفوفيتش» و«شيدرين» و«رخمانينوف» و«دونايفسكي» هم فرسان ما بعد البريسترويكا، وليس هناك من جديد في الموسيقى الروسية. بل وتقتصر قاعات الموسيقى وعروض الأوبرا على المتخصصين وطلاب الكونسرفتوار والمدارس والمعاهد الموسيقية.

أما الأوبرا التي نقلها الروس عن الإيطاليين وشكلوها على أرضيتهم الثقافية، ثم غنوها بلغتهم الروسية، لا تعيش الآن إلا على أسماء النجوم السوفييت القدامى من أمثال «فيشنيفسكايا» و«أخيبوفا» و«ميخائيلوف» و«دورنيدونتوف» و«أوبرزتسوفا» و«كالينينا». وحتى الآن لا توجد أي ظواهر جديدة حتى على مستوى العروض، ليبقى في ذاكرة الإنسان الروسي البسيط «يفجيني أونيجين» و«عايدة» و«ايفان سوسانين»

و«لاترافياتا»، و«موتسارت وساليرى»، و«هافانشنا»، و«بوريس جودونوف»، على أمل أن تزلزل الأرض الروسية نافضة عن نفسها غبار الزمن، معلنة عن مواهبها وظواهرها وشطحاتها الخلاقة التى لا يمكن الاختلاف على أهميتها للعالم من شرقه إلى غربه بصرف النظر عما إذا اختلفنا أو اتفقنا معاً.

(٢) دولة المخدرات

قبل انهيا ر الاتحاد السوفييتي بشهور قليلةسجلت الإحصائيات عام ١٩٩١ عدد (٩) آلاف حالة تعاطي مخدرات. وإذا افترضنا أن تلك الإحصائيات قد قللت نسبياً من عدد حالات تعاطي وإدمان المخدرات نتيجة لاعتبارات سياسية واجتماعية وإعلامية، فسوف نفترض بالمثل أن هذا العدد قد بلغ الضعف، أي حوالي ١٨ ألف حالة تعاطي، وهذا ما تقدره وسائل الإعلام ومراكز الأبحاث غير الرسمية في روسيا.

وبعد قيام روسيا الاتحادية على أنقاض الاتحاد السوفييتي، وخلال ست سنوات فقط، وصل عدد المدمنين والمتعاطين إلى خمسة ملايين شخص حسب تقدير فلاديمير إيفانوف رئيس جمعية «إنقاذ الأطفال والأحداث من المخدرات». في حين تشير بعض التقديرات الأخرى - غير الرسمية - إلى أن عدد أصحاب «الكيف» في روسيا قد بلغ ١٥ مليون شخص.

المعروف أن الشعب الروسي من الشعوب التي تفضل، بل وتقبل على تعاطي المشروبات الكحولية. وقد وصل نصيب الفرد المدمن على الكحول في زمن الاتحاد السوفييتي ٦ أضعاف نصيب الفرد المدمن في أوربا سنوياً. وعلى ضوء الإحصائيات والحسابات المنتشرة حول هذا الموضوع، فمن المعروف أن المدمن على الكحول في أوربا يتناول ما بين ٣٠ - ٤٠ لتراً من المواد الكحولية في العام الواحد. وبالتالي يصل نصيب المدمن السوفييتي سابقاً إلى حوالي ٢٠٠ لتر في السنة. أما نصيب الفرد العادي فكان يصل إلى ضعف ما يتناوله المواطن الأوربي العادي من مواد كحولية في العام الواحد. وظاهرة الإدمان على المشروبات الكحولية في روسيا الحالية لم تنته أو تقل بانهيار الاتحاد السوفييتي كما كان يشير البعض عندما يربطون بين ظاهرة الإدمان على المشروبات الكحولية وبين بعض الظواهر السياسية والاجتماعية والدينية في المجتمع السوفييتي مثل تقييد الحريات وانعدام مظاهر الحرية والديموقراطية، والتفكك الأسري، وغياب الدين، والانحلال الأخلاقي. ومع بداية البريسترويكا عام ١٩٨٦ أصدر مجلس السوفييت

الأعلى بإيعاز من الرئيس ميخائيل جورباتشوف بعض القوانين التى تفرض الرقابة على بيع الخمور وتعاطيها. ومن هنا بدأ إقبال الناس على أشكال أخرى «للكيف» مثل شم دهانات الحائط، وتسخين مضادات الصراصير ثم القيام بشمها، ومعالجة معاجين الأسنان والحلاقة واستخدامها فى تلك الأغراض. هذا إلى جانب نشاطات العصابات الوليدة التى كانت قد بدأت لتوها فى جلب الحشيش والبانجو والماريجوانا من دول آسيا الوسطى وأفغانستان. ناهيك عن نشاطات التجمعات الإجرامية الناشئة فى روسيا والمراهقين فى صنع المركبات الخاصة من أجل استعمالها كبدائل للمخدرات الحقيقية.

ولكى نكون موضوعيين فى تناول هذه الظاهرة يجب الإقرار بأنها كانت موجودة فى الفترة السوفييتية، بل وبدأت قبل عام ١٩١٧، وبالتحديد فى عام ١٩١٠ فى أوساط المثقفين والمبدعين الروس إلى جانب بعض التجمعات الإجرامية البدائية من القوميات الأخرى ومعهم الروس أيضاً. ولكنها كظاهرة كانت غير منتشرة على مستوى القاعدة الشعبية نتيجة للقوانين القاسية وزيادة ارتفاع الوعى بين الناس والاهتمام بالعمل. ورغم بداية استفحال الظاهرة فى النصف الثانى من الثمانينيات إلا أنها ظلت محصورة فى أوساط الفنانين والمثقفين والأفراد المدمنين على المشروبات الكحولية ولا يملكون بديلاً سوى طهى معجون الأسنان والمضادات الحشرية، وتناول العطور وماء الكولونيا. وفى عام ١٩٩١، ومع انهيار الاتحاد السوفييتى وقيام روسيا الاتحادية رافعة شعارات الإصلاح والانفتاح والاقتصاد الحر، أصبحت ظاهرة تهريب المخدرات وتجارتها وتعاطيها من أوسع وأبشع الظواهر التى تهدد حياة المجتمع الروسى، وخاصة الجيل الجديد من سن ٨ - ٣٠ عاماً، الشيء الذى يلقى الضوء على ارتباط هذه الظاهرة الثلاثية (تهريب - تجارة - تعاطى) بالانهيار الاقتصادى الذى أدى بدوره إلى تدهور وانهيار منظومة القيم والأخلاقيات والمفاهيم، وتدنى مستوى التعليم والإدارة، ومن ثم انتشار الفقر والبطالة. فعلى سبيل المثال تول يلينا جاروفا الطبيبة بقسم الأحداث مدمنى المخدرات بالمستشفى رقم (١٧) إنه من بين ١٥ نزيل بالقسم يوجد من ١ - ٢ مدمنى كحوليات، أما العدد الباقى فمن مدمنى المخدرات. وتشير إلى أنه قبل خمس سنوات فقط كانت العلاقة على العكس منها حالياً. وفى هذا الصدد أكدت صحيفة (كابيتال) الروسية الأسبوعية أن ما أوردته الطبيبة يلينا

جاروفا في حديثها يعد دليل آخر على اتساع نطاق تجارة «الكيف» في روسيا رغم الحظر القانوني عليها.

لاشك أن هذه الظاهرة الثلاثية الخطيرة مرتبطة بمجموعة عوامل وظروف اقتصادية واجتماعية مهمة، ولكنها في الوقت نفسه مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالتركيبات الإجرامية المنظمة وظهور شبكات الدعارة، والبطالة والفقر، وانهيار النظام التعليمي في روسيا. وبالتالي فمجمل هذه العلاقات يشكل خطورة شديدة ليس فقط على روسيا، وإنما على العالم كله إذا ما أخذنا في اعتبارنا أن الروس حالياً عبارة عن شعب نازح. وبديهياً فهم يحملون معهم مجمل الظواهر والقيم التي يعانون منها ويمارسونها إلى كل الدول غرباً وشرقاً.

إن الجزء الخاص بتهريب وجلب المخدرات وصناعتها يرتبط أساساً بالتركيبات الإجرامية المنظمة (مافيا). والمافيا الروسية لا تعمل وحدها في هذا المجال، وإنما تتعاون معها، أو تعمل إلى جانبها التركيبات الإجرامية الأخرى مثل المافيا الأذربيجانية والطاجيكية والأوكرانية هذا على مستوى دول الاتحاد السوفييتي السابق. كما أن المافيا الإيطالية والأمريكية تلعب دورها المهم في تهريب وجلب الهيروين تحديداً إلى روسيا. وبالطبع لا يمكن استثناء الأتراك والأفغان وبعض التركيبات الإجرامية الخطيرة من أمريكا اللاتينية. والمثير للانتباه هنا أن حجم التعاملات في سوق تجارة المخدرات - رغم تدني مستوى المعيشة لغالبية السكان - يقدر بحوالي ٥٠ مليار دولار أمريكي سنوياً. في حين تشير بعض الإحصائيات الرسمية - إلى أن الحجم الحقيقي يصل إلى ١٨ مليار دولار فقط في السنة الواحدة. وبدون شك بهذه الأرقام التي تعادل ميزانيات بعض الدول لا يمكن لأي من القطاعات الصناعية والإنتاجية العاملة في روسيا بشكل شرعي وعلني أن تحققها، والذي يؤكد ذلك هو حصيلة تصدير النفط الروسي التي تصل في المتوسط إلى ١٠ مليارات من الدولارات سنوياً.

الأخطر من ذلك أن الجنرال إيجور ألكسندروفيتش سيرجييف رئيس إدارة مكافحة المخدرات بوزارة الداخلية الروسية قد أقر بوجود ما يقرب من ٥ آلاف نوع من المواد المخدرة في الأسواق الروسية مضافاً إليها الهيروين والكوكايين. وأكد أن ٩٠٪ من هذه الأنواع

يرد إلى روسيا من أمريكا وأفغانستان والدول السابقة بالاتحاد السوفيتي. وأضاف بأن الجنوب الروسى يزرع الخشاش والماريجوانا فى مساحات واسعة تصل إلى مليون هكتار. من هنا نرى أن المافيا الروسية تقف على قاعدة اقتصادية صلبة: على مستوى التعاون الخارجي مع المنظمات ا لإجرامية الأجنبية، وعلى ميزانيات ضخمة تصل فى المتوسط إلى ٣٠ مليار دولار، إضافة إلى مليون هكتار من الأراضى المزروعة بالنباتات المخدرة. ومن البديهى أن هناك جزء من نشاط المافيا الروسية موجه إلى تصنيع المخدرات فى روسيا نفسها معتمدين فى ذلك على طلاب وخريجى كليات الكيمياء والصيدلة العاطلين عن العمل، الشىء الذى يوضح بجلاء سيطرة المافيا الروسية حالياً على أوربا وآسيا الوسطى، وقيامها بفرض الإتاوات على المنظمات الإجرامية الأوربية العتيقة فى إيطاليا وأمريكا، وعلى بعض التنظيمات القوية فى دول أمريكا اللاتينية التى تعمل على تهريب الماريجوانا والهيرون عن طريق بعض دول أوربا.

أما الجزء الخاص بالتجارة والترويج فتشارك فيه، بالدرجة الأولى، شبكات الدعارة المنظمة المرتبطة بشكل وثيق بالمافيا. ويتراوح سن أعضاء، أو بالأحرى عضوات هذه الشبكات فى الغالب بين ١٤ ـ ٢٥ سنة. فإضافة إلى تجارة الرقيق الأبيض تمارس عضوات شبكات الدعارة المنظمة تجارة وترويج العديد من الأنواع مثل الهيروين والماريجوانا والبانجو والحشيش، إضافة إلى الأقراص والحقن، وما يمكنهن صناعته وتركيبه شخصياً من أجل الكسب الخاص بعيداً عن زعمائهم الذين يجردوهن دائماً من الأرباح الزائدة بهدف الإخضاع الدائم.

وفى المرتبة الثانية يأتى دور الأفراد والتجمعات الإجرامية الصغيرة من جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق، وأغلبهم يعملون بالأسواق العامة وكتجار متنقلين. فى بداية سنوات الإصلاح بعد عام ١٩٩١ كان هؤلاء يمثلون القوة النشطة فى جلب وترويج وتعاطى المخدرات. وكان من الممكن شراء أى نوع من أنواع المخدرات فى أى وقت، وما عليك إلا أن تعرف كلمة السر التى كانت تصل حتى إلى آذان المواطنين العاديين والطلاب الأجانب بسهولة شديدة.

وفى المرتبة الثالثة يأتى دور الأجانب من أمريكا اللاتينية وأفغانستان وبعض الدول

الإفريقية مثل نيجيريا وأثيوبيا. وهؤلاء منتشرون بين الطلاب وفي المساكن والتجمعات الدراسية والجامعية، وفي البارات وصالات الرقص.

الخطير في الأمر هو دخول القاعدة العامة الروسية في عمليات تجارة وترويج المخدرات. ويقوم بهذا العمل إما الأطفال الصغار من سن ٨ ـ ١٥ سنة، وإما العجائز الذين تجاوزوا سن المعاش، وخصوصاً النساء. وقد كشفت «الصحيفة الأدبية» الروسية في تحقيق مهم لها حول هذا الموضوع عن واحدة من أخطر الوسائل لترويج المخدرات في موسكو. ففي أحد أهم وأضخم المجمعات التجارية في موسكو «عالم الأطفال»! والذي يفصله زقاق عرضه ٤ أمتار عن مبنى المخابرات الروسية، ويبعد كيلو متر واحد عن مبنى الكرملين، تقف العجائز خارج وداخل هذا المجمع لبيع القبعات الشتوية أو الصيفية (حسب الموسم). الغريب في الأمر أن الصغار والأحداث يقتربون منهن ويقلبن القبعات دون شراء ثم ينصرفون وعلامات الرضا على وجوه الجميع. أما الوسيلة الثانية فهي اتخاذ محطات مترو الأنفاق كوسيلة للترويج نظراً لوجودها تحت الأرض وبعدها عن أنظار الفضوليين من رجال الأمن وعيونهم. في هذا التحقيق تمكن محرر «الجريدة الأدبية» من الكشف عن أحد أهم المؤشرات الخطيرة المرتبطة بالجريمة والإدمان حيث ٦٠٪ من جرائم السرقة ـ في موسكو فقط ـ يرتكبها المدمنون، ومن بينها لا يقل عن ٤٠٪ من فعل الأطفال والمراهقين.

وفي الواقع ـ تقول الجريدة الأدبية ـ فروسيا أصبحت بلداً مفتوحاً لكل شيء، بل وأضحت سوقاً ضخماً لمهربي ومروجي المخدرات الروس والأجانب. ففي عام ١٩٩١ تم القبض على ٢٢٠ ألف طن مخدرات (ماك ـ أوبيوم ـ هيروين ـ ماريجوانا ـ حشيش ـ كوكايين) قد رثمنها بـ ١٨٥ مليو دولار أمريكي. في حين أكد الخبراء المتخصصون بوزارة الداخلية أن هذه الكمية لا تمثل سوى ١٠٪ من المخدرات الواردة إلى الأسواق الروسية.

وتنتهي الجريدة الأدبية تحقيقها متعجبة بأنه بعد الانهيار العظيم قامت القوى الديموقراطية والليبرالية المناهضة لفترة الحكم السوفييتي بحملة شرسة من خلال وسائل الإعلام (المملوكة كلها تقريباً لليهود) والبرلمان من أجل الحض على إبطال القوانين المقيدة للحريات وأولها قوانين تحريم وتجريم تعاطي المخدرات. وبالفعل تم إلغاء المسئولية الجنائية على الاستخدام غير الطبي للمخدرات وذلك في ديسمبر عام ١٩٩١. وعليه فقد تم

السماح بتعاطى المخدرات وعدم تجريم الشخص الذى يحمل كمية لا تزيد عن ٥ جرامات.

المؤسف فى الأمر أن الدراسات والبيانات الرسمية الصادرة تؤكد أن الأطفال والأحداث والشباب من سن ١٩ - ٢١ سنة يمثلون القسم الأكبر بين مدمنى المخدرات فى روسيا بنسبة تصل إلى ٨٥٪ من العدد الإجمالى للمتعاطين. فى حين يرى أندريه سيرجييف مدير إدارة مكافحة المخدرات بوزارة الداخلية الروسية أن ما يقرب من ٤٠٪ من الأطفال قد جربوا المخدرات، أما فلاديمير إيفانوف رئيس جمعية «إنقاذ الأطفال والأحداث من المخدرات» فيؤكد أن الأرقام المذكورة فى الإحصائيات الرسمية متواضعة للغاية حيث قد تزايد تعاطى وإدمان المخدرات فى صفوف الأحداث حاليا بمقدار ٢٤ مرة مما كانت عليه فى العام ١٩٩١. ويواصل إيفانوف القول بأن الجرعات التى يتقاضها الأحداث تتزايد بسرعة ملحوظة. الأمر الذى يدفعهم إلى عرض «الكيف» على زملائهم وأصحابهم بهدف كسب زبائن جدد مما يؤمن لهم الحصول على امتيازات معينة تمكنهم من مواصلة التعاطى والحدث الذى يتناوله المخدرات بمعايير متوسطة يجلب خلال العام الأول من تعاطيه ما بين ٥ - ١٧ شخصاً جديداً. والمثال الساطع على ذلك أن إدارة إحدى المدارس قامت بدعوة أولياء الأمور لتحذيرهم من صداقة أولادهم مع طلاب الصف الثامن (١٤ - ١٥ سنة) لأنهم يدخنون ويروجون المخدرات. وأمام دهشة أولياء الأمور أفصحت إدارة المدرسة عن معرفتها التامة بالمروجين والمتعاطين. ولكنهم أكدوا عدم استطاعتهم اتخاذ أية إجراءات بهذا الصدد لأسباب عديدة يعرفها أولياء الأمور جيدا

ويرى إيفانون أن إحدى المشاكل الأساسية التى تعيق مكافحة المخدرات هى تركيز الدولة على الوقوف ضد التهريب والإنتاج والترويج دون الاهتمام بمعالجة الأسباب على الطلب، أو حتى التوعية من خطورة التعاطى. بينما يعتقد خبراء المخدرات الروس إنه بالرغم من حظر عرض المخدرات قانوناً إلا أنه من المتوقع تزايد الكميات المعروضة خلال الفترة القريبة القادمة بنفس المعدل الذى جرى خلال الفترة من عام ١٩٩١ حتى عام ١٩٩٦. ويؤكد هؤلاء الخبراء بأن هذا التزايد سوف يأتى على حساب تهريبها من الخارج وكذلك على حساب إنتاجها محلياً. أما فلاديمير تشاريكوف مدير القسم التحليلى لإدارة مكافحة المخدرات فى العاصم موسكو فيقول إنه خلال الثمانية أشهر الأولى من عام

١٩٩٦ جرى ضبط ٣١١٩ جريمة تهريب وهو ما يزيد عما تم ضبطه عام ١٩٩٥ بنسبة ٧٢٪، فى الوقت الذى يؤكد فيه الجنرال إيجور ألكسندروفيتش سيرجييف إنه قد تم ضبط ٥٠ ألف قضية مخدرات عام ١٩٩٦ بين التهريب والتجارة والتعاطى.

أما السؤال عن علاقة التهريب والتصنيع والتجارة والتعاطى بالظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فهو تحصيل حاصل لأن الأمر فى النهاية يبدو أكثر خطورة من ذلك، بل وأكثر تعقيداً مما نتصور. خاصة وأن روسيا التى كانت إحدى جمهوريات الاتحاد السوفييتى منذ عدة سنوات هى الآن دولة مختلفة تماماً تقوم على أسس مغايرة إن لم تكن متناقضة مع ما كانت عليه فى الفترة السابقة. وبالتالى فخطورة ظاهرة تصنيع وإنتاج المخدرات ورواجها وارتباطها بالمافيا الروسية القوية تشكل خطورة كبيرة لا تقل عن خطورة الأسلحة النووية التى فى حوزة روسيا نفسها بظروفها الحالية.

(٢) الـ « مافيا »

حتى الآن لم تتمكن وسائل الإعلام وأجهزة الأمن العديدة، والفلاسفة والمحللون والمفكرون فى أى من دول العالم بما فيها روسيا، من حصر وتصنيف ظاهرة الجريمة المنظمة التى انطلقت من قمقمها كالمارد الجبار بعد تحلل الاتحاد السوفييتى الذى كان يمثل مركز أول تجربة اشتراكية فى التاريخ. وقد باءت جميع محاولات التوصيف والتصنيف بالفشل الذريع - على الأقل حتى وقتنا هذا - من أجل فهم هذه الظاهرة الغريبة فعلياً عن الإنسان الروسى البسيط والمسالم. وفى أى حال من الأحوال لا يمكن فصل الجريمة المنظمة فى روسيا عن السياسة، وبالتحديد عن الخطوات التى تم اتباعها منذ عام ١٩٨٦ بإطلاق شعار البيريسترويكا، والحملات الأخرى من أجل إعادة بناء الدولة الاشتراكية الحديثة، أعقبتها خطوات لا تقل خطورة فى عام ١٩٩١ بتمزيق أوصال الاتحاد السوفييتى وظهور روسيا الاتحادية التى حاولت - ومازالت تحاول - بشتى الطرق استعادة أملاك وأمجاد روسيا القيصرية والاتحاد السوفييتى معا.

ومحاولة تناول ظاهرة المافيا الروسية بمعزل عن مجريات السياسة فى قصر الكرملين أمر أقرب إلى العبث والتضليل، وبرغم مافى ذلك من خطورة لا يمكن تحديد مصدرها: هل ستأتى من الكرملين وأجهزته، أم من جحور المافيا التى تبدو أكثر إضاءة ووضوحاً وأماناً من قصر الكرملين نفسه؟ فعندما طرح الأمين العام للحزب الشيوعى السوفييتى ميخائيل جورباتشوف الذى أصبح فيما بعد بعدة سنوات أول رئيس فى تاريخ هذه الدولة شعار البيريسترويكا عام ٨٦ لم يشك أحد فى جدوى وأهمية عملية إعادة البناء المرتبطة بهذا الشعار، خصوصاً وأن الجميع فى الشرق والغرب كان لديهم إحساس فظيع بمدى التعفن الذى أصاب الدولة السوفييتية من داخلها. ولم يتصور أى إنسان ماذا سيحدث خلال السنوات التالية لطرح هذا الشعار الغامض.

الطريف فى الأمر أن رائحة العفن كانت موجودة، وعلى مقربة من الجميع ولكن لم يكن هناك أحد يرى الجثة، أو يفكر من أساسه أن هناك جثة تتجه بالفعل نحو التحلل.

وفى عام ١٩٩١ انهارت الإمبراطورية لتظهر روسيا الاتحادية رافعة شعارات جديدة براقة وجذابة. ولم يفكر أى إنسان وقتها أيضاً ماذا يحدث، وماذا سيحدث فى القريب العاجل. أما المأساوى فى الموضوع فيتلخص فى أن القاعدة العريضة من البسطاء الروس الكثيرين لم تكن تتصور مدى الانحطاط العام فى كل الأوضاع بداية من الحصول على الرواتب الشهرية وحتى تحكم المافيا فى مقدراتهم ومصائرهم ومصائر أولادهم، مروراً بتوقف عمليات الإنتاج الضخمة، وبيع المؤسسات الصناعية والإنتاجية، وانتشار العصابات الصغيرة التى ما لبثت أن تحولت إلى غول جبار يهدد العالم كله.

من المعروف أنه نتيجة لبعض أوجه القصور فى ظل نظام الاقتصاد المركزى بالاتحاد السوفييتى ظهرت حلقة رهيبة من السوق السوداء ساهم فيها الطلاب الأجانب بالدرجة الأولى، والعاملين الروس بالخارج وموظفو السلك الدبلوماسى وزوجاتهم وأقاربهم. وبمجرد طرح شعار إعادة البناء فى أواسط الثمانينيات ظهرت بعض الأكشاك المتناثرة لتجار السوق السوداء الروس، وكان من الواضح أنه وراء بعضها تقف رءوس أموال صغيرة للطلاب العرب والأفارقة والفيتناميين والأفغان رغم واجهتها الروسية تماماً. وبينما أخذت ظاهرة السوق السوداء فى الانسحاب من الساحة، راحت ظاهرة انتشار الأكشاك تحل محلها وقد بدأت تظهر فيها رءوس أموال روسية صرفة ووجوه روسية لم يكن أحد يراها إطلاقاً قبل ذلك. وبشكل متزامن ظهرت العصابات الصغيرة التى تدير أكشاكها الخاصة من ناحية، ومن ناحية أخرى تفرض الإتاوات على أصحاب الأكشاك الأخرى. ومن المصادفات الطريفة عندما التقينا بأحد أفراد هذه العصابات، والذى يسمى «ريكيت» مستفسرين منه عن الموضوع، قال مبتسماً فى ثقة شديدة واعتداد بالنفس: هؤلاء الناس يعملون وأنا لا أعمل. وهم أغنياء يربحون مبالغ طائلة، فلا مانع من مشاركتهم أرباحهم فى مقابل حمايتهم. الأطرف من ذلك أن هذ االشخص بالتحديد ابن لبروفيسور جامعى، وبطل مصارعة حاصل على بعض الميداليات ولم يتعد عمره وقتها ١٨ عاماً. والأغرب من هذا وذاك أن معظم أعضاء هذه العصابات من أبناء الصفوة، ومن الرياضيين الجيدين الذين تربوا فى المدرسة الرياضية السوفييتية العريقة التى كانت تحصد أكبر عدد من الجوائز فى المسابقات العالمية رغم الحصار الذى كان مضروباً على الاتحاد

السوفييتى.

وبحلول عام ١٩٩١ كانت الأكشاك قد ملأت الشوارع والأزقة بالعاصمة موسكو، وامتلكتها كلها تقريباً وجوه محددة الملامح وسحنات إجرامية جديدة على المجتمع الروسى أزاحت تماماً جميع التجار البسطاء من الساحة وسيطرت بالقوة وبالقانون على كل شىء مما دفع هؤلاء البسطاء للتجمع فى الأسواق المفتوحة والساحات لبيع سلعهم المتواضعة والمهربة فى مجملها بأسعار زهيدة مقارنة بأسعار الأكشاك الشىء الذى لفت انتباه التركيبات الإجرامية الصغيرة فراحت تسيطر شيئاً فشيئاً على هذه الأسواق لدرجة أنهم يؤجرون الآن الأرض التى يقف عليها البائع ناهيك عن الإتاوة اليومية، وقد بلغ حالياً متوسط سعر المتر الواحد ١٠٠ دولار فى ا ليوم حسب المنطقة.

خلال هذه الفترة من عام ٨٦ حتى عام ٩١ وبالتوازى مع الأحداث المذكورة ظهرت حوادث جديدة على الساحة تراوحت بين التشويه والقتل والحرق. وعلى سبيل المثال ففى جامعة موسكو الحكومية تم ارتكاب مجموعة من الجرائم بين حرق الفيتناميين تجار العملة والأطباق البلاستيك والفودكا المغشوشة، وإطلاق الرصاص أو خنق العرب تجار العملة والملابس، وإلقاء الأفارقة تجار العملة والمخدرات من الطوابق العليا، وتشويه الأفغان أو حرقهم أحياء لأنهم فعلياً أول من حاول إقامة أشكال تجارية محسوسة فى هذه الفترة. ولم يكن الأتراك قد ظهروا بعد بقدرتهم على التجارة والتنظيم على كافة المستويات بما فيها المافيا التركية. والجدير بالملاحظة أن المافيا الفيتنامية والأفغانية قد ظهرت بشكل مبكر على ظهور المافيا الروسية، علماً بأن الأذربيجان والجورجيين والشيشان هم الذين كانوا متخصصين فى هذه الأمور. وعموماً فقد تكررت حوادث القتل والحرق والسحل فى أماكن كثيرة أخرى مثل جامعة الصداقة والمساكن الطلابية الكثيرة وأحياء متعددة فى العاصمة موسكو، وحتى فى الشقق المفروشة التى تصور مؤجروها أنهم بمنأى عن عيون المافيا الروسية أو المافيا المحلية من أبناء جلدتهم.

ومع تغيير الدستور والقوانين الاقتصادية وقوانين الإقامة والملكية نشأت أشكال ومؤسسات متماسكة نسبياً برءوس أموال روسية، وأجنبية، ومشتركة فى كثير من الأحيان من أجل التمويه فقط. وبدلاً من الأكشاك ظهرت ملامح بوتيكات أكثر رقياً على

مستوى الشكل والبضاعة. وسقط في الطريق من لم يستطع مواصلة الصراع الضارى في حين تكونت ملامح ملموسة لمافيا قوية شرسة قوامها الروس والأوكرانيين والأذربيجان والشيشان والجورجيين أخذت تقسم العاصمة فيما بينها إلى مناطق نفوذ. وصارت البوتيكات ملكاً لهم جميعاً في حين لم يفوتهم إعطاء مساحة للأفراد العاديين بإقامة بوتيكاتهم في مقابل إتاوات شهرية لحمايتهم.

ومع إنشاء المشروعات الاستثمارية ظهرت البنوك الخاصة منذ عام ٩١ وكانت في معظمها وهمية ورسمية في آن واحد، وأعلنت عن فوائد خيالية بلغت ٣٠٠٪ في الشهر وليس في السنة. وعلى سبيل المثال لا الحصر فقد تمكنت مؤسسة «أولبي دبلوماتيك» من دفع الفوائد في السنة الأولى، وفي السنة الثانية دفعتها على شكل مكانس وغسالات وأحذية وملابس داخلية، وبعد ذلك توقفت عن الدفع واختفت رءوس الأموال رغم استمرار المؤسسة في العمل. أما شركة «أم. أم. أم» الشهيرة فقد تمكنت خلال أشهر معدودة من جمع مليارات الروبلات والدولارات من حوالى ما يقرب من ٤٠ مليون روسى أغلبهم من العجائز والمتقاعدين، وفجأة أشهرت إفلاسها ورفض صاحبها تقديم الأوراق والمستندات الخاصة بالشركة إلى النيابة العامة الروسية. وبعد مفاوضات مضنية استخف فيها السيد مافرودى بالنيابة والحكومة واعتصم بأسوار قلعته الحصينة، تم اتخاذ قرار بالاقتحام. وبالفعل تغلب جيش وزارة الداخلية الروسية على جيش مافرودى المسلح ونجح الاقتحام رغم الخسائر الفادحة وتمكنوا من القبض على الرجل وأسرته إلا أنهم لم يجدوا في حوزتهم ما يثير الاشتباه فأطلقوا سراحه، وبعد أيام قليلة صار مافرودى عضواً بالبرلمان الروسى، ومازالت الشركة تعمل.

أما المثال الأخطر فهو حادثة «تشارا بنك» الذى بدأ عمله في وقت مبكر عام ٩٠ بهدوء تام إلى أن تمكن في عام ٩٣ من جمع أموال ما لا يقل عن ٣٠ مليون روسى بفوائد وصلت إلى ١٨٠٪. وفجأة أعلن البنك عن إفلاسه عام ١٩٩٤، ومات صاحبه خلال أسبوع بشكل غامض، وتولت زوجته التى تزوجت بعد وفاته مباشرة إدارة البنك مع شريك يابانى. ومنذ فترة وجيزة أعلن التليفزيون الروسى أن صاحبة البنك تعيش في شقة ثمنها ٣ مليون دولار، ولديها منزل صيفى يقدر ثمنه بمليون واحد فقط، كما أنها

تملك منزلاً ثمنه ٣٠ مليون دولار أخرى وبعض العقارات المتفرقة والحسابات الموزعة فى البنوك السويسرية والأوربية. ولم ينس المذيع أن يخبر المشاهدين بأن البنك مازال يعمل. الغريب فى أمر هذا البنك بالذات أنه قبل إفلاسه بأيام معدودة ظهر أحد أبرز الوجوه السياسية فى الحكومة الروسية على شاشات التليفزيون ليضرب مثلاً بـ «تشارا بنك» فى أمانته ونشاطه ووطنيته. والطريف أنه فى الأسبوع الأخير قبل الإفلاس ظهرت أمام البنك مجموعة ضخمة من السيارات الفارهة لممثلين ومغنيين وراقصى باليه روس. وبعد الإفلاس لم تظهر أمام البنك سوى وجوه العجائز والمتقاعدين للمطالبة بأموالهم فقط متنازلين عن الفوائد المتراكمة.

الجدير بالملاحظة أن الحكومة الروسية حتى وقتنا هذا لم تحرك ساكناً على الإطلاق أمام هذه الحوادث وكأن كل ذلك يحدث فى كوكب آخر، والطريف أن الجنرال ألكسندر ليبيد أثناء حملته الانتخابية على مقعد الرئاسة رفع شعار البنوك وإعادة الأموال إلى أصحابها، وبعد الانتخابات انشغل فى حل العقدة الشيشانية والصراع مع وزير الداخلية وعمدة موسكو على أشياء اتضحت فيما بعد وكانت نتيجتها إلقاءه بعيداً عن الأضواء. وبعد ازدياد سخط الروس وانتشار الفضائح المدوية ظهر رئيس الوزراء أمام البرلمان الذى خصص جلسة طارئة لمناقشة قضية البنوك على شاشات التليفزيون، وردد بالحرف الواحد: «كنا نريد الأفضل، ولكن حدث ما يحدث دائماً». وركزت البرامج الإخبارية والصحف لفترة طويلة على هذه الجملة فى حين لم يتورع هو عن تكرارها أكثر من مرة فى مواقف أخرى متشابهة، وخاصة فيما يخص الحرب الروسية الشيشانية التى يقال إن معظم أموال البنوك التى أفلست قد وُظفت فيها بشكل أو بآخر على الرغم أن الحكومة تكرر إنكارها يومياً بعدم وجود أى علاقات بينها وبين أصحاب البنوك الوهمية.

فى السنوات الثلاث الأخيرة، ومع مسلسل سن القوانين الاقتصادية الجديدة وانتخابات البرلمان ثم الرئاسة ظهرت سلسلة أخرى من حوادث القتل المأجور للوجوه والشخصيات البارزة من مدراء بنوك وأصحاب شركات وصحفيين ومذيعين ورجال أعمال أجانب. وتشير الإحصائيات إلى سقوط خمسة صحفيين خلال الفترة من نهاية عام ٩٤ وحتى مارس ٩٥. ومن بين هؤلاء الضحايا الصحفى الشاب ديمترى خولودوف الذى جاء

مقتله فى أكتوبر ٩٤ أقرب إلى الاغتيال السياسى بسبب ما امتلكه من معلومات فى غاية الخطورة عن نهب مبالغ ضخمة من أموال بيع أسلحة القوات الروسية الشيء الذى دفع الكثير من الصحفيين إلى اتهام وزير الدفاع الروسى السابق بافل جراتشوف بالوقوف وراء هذا الحادث. أما آخر حوادث قتل الصحفيين فقط سقط ضحيتها المذيع التليفزيون الشاب فلاديمير ليستيف (٣٨ سنة) فى الأول من مارس ٩٥ على أثر الصراع الضارى من أجل خصخصة القناة الأولى بالتليفزيون الروسى الذى كان يجب أن يحتل فيها ليستيف منصب المدير العام، ولتكشف هذه الحادثة عن الصراع الدموى على المال والنفوذ فى وسائل الإعلام الروسية، والذى أنهاه مؤخراً ستة من المليارديرات اليهود بالسيطرة الكاملة على برامج وقنوات التليفزيون الروسى جميعاً. وفى الحقيقة فعمليات القتل المأجور لم تقتصر فقط على الصحفيين وانما امتدت إلى عقر دار الهيئة البرلمانية إذ سقط خلال عام ٩٤ فقط ثلاثة من نواب البرلمان الروسى. أما رجال الأعمال الأجانب فآخرهم كان أحد المساهمين الأمريكيين فى فندق «سلفيانسكايا» والذى قتل على سلم المترو أمام الفندق مباشرة قبل الاحتفالات بأعياد الميلاد فى ديسمبر ٩٦. بل ووصل الأمر إلى قتل الملحق التجارى الفيتنامى وطعن ابنه الصغير فى مدخل مسكنهما، وقتل الملحق التجارى السورى فى شقته عام ٩٥.

وتتلاحم عمليات القتل المشار إليها مع غيرها من المظاهر الأخرى للجريمة بما فيها السرقات والرشاوى والدعارة والجرائم الاقتصادية والمالية المتعلقة فى الأساس بنهب ممتلكات الدولة وثراوتها الطبيعية. ويعطى هذا التلاحم لوحة قاتمة مليئة بالدوافع السياسية. فوفقاً للبيانات الرسمية الصادرة عن وزارة الداخلية الروسية يبلغ عدد العصابات والمجموعات الإجرامية المنظمة حوالى ٤٣٠٠ مجموعة تضم أكثر من ٤٠ ألف فرد، منها ٦٠٠ عصابة تقوم على الأساس العرقى. بينما أعلنت إذاعة صوت الحرية إن هناك حوالى ٥ آلاف عصابة تسيطر على ما يقرب من ٨٠٪ من القطاع الحكومى الجديد، وعلى أكثر من ٤٠ ألف مشروع اقتصادى من بينها العديد من المشروعات الحكومية، وتنفق ما بين ٣٠ ـ ٥٠٪ من أرباحها على شراء كبار موظفى الدولة. وحسب ما تضمنته إحصائيات جريدة «أزفستيا» الروسية للشخصيات المرتشية فى القطاعات الوظيفية

الحكومية، جاء العاملون في وزارات وهيئات السلطة الفيدرالية على رأس القائمة بنسبة ٤٢,٧٪، وبعدهم رجال الأمن بنسبة ٢٥,٨٪، ثم العاملون في النظام المالي والائتماني بنسبة ١١,٣٪، وموظفو الهيئات الرقابية بنسبة ٣,٨٪، ورجال الجمارك بنسبة ٢,٥٪. وأشارت تقارير وكالة الأنباء الروسية «نوفستي» إلى أن العدد الإجمالي للجرائم المسجلة في عام ١٩٩٣ قد تضمن ٢٩,٢ ألف جريمة قتل و٦٧ ألف جناية إحداث عاهة و ٢٢٠ ألف جريمة سرقة، وانفجرت حوالى ٦٥٠ عبوة ناسفة تسببت في سقوط أكثر من ١١٦ قتيلاً. وقد بلغ عدد الجرائم خلال الشهور التسعة الأخيرة من عام ٩٤ حوالي ١,٩ مليون جريمة منها ٢٤٣٧٣ قتل و٢٧١٠٨ سطو و٥٤٩٧٧ تهريب مخدرات. أما التقارير الزخيرة لوكالة «نوفستي» فتشير إلى أنه في الوقت الحالي يبلغ متوسط العدد الإجمالي للجرائم في روسيا ٢٢٠ ألف جريمة في الشهر و١٥ ألف جناية اقتصادية. كما لوحظ ارتفاع معدلات الجرائم في العاصمة موسكو خلال السبعة أشهر الأخيرة بنسبة ٧,١٪، وتشهد موسكو حوالي ٤٠ ألف عملية إرهابية شهرياً تستخدم فيها العبوات الناسفة. ويعمم النائب العام الروسي السابق الكسي كازانيك في حديث له أن البلاد تشهد ثلاث جرائم قتل كل ساعة، وأربعة حوادث قطع طرق، وعشرين حادث سطو مسلح، كما تتعرض سيارات الأجانب ومساكنهم للسطو يومياً. والجدير بالذكر هنا أنه تجرى أكثر من مائة حادث سطو سيارات يومياً في العاصمة فقط وغالبا لا يتم الكشف إلا عن واحد أو اثنين منها.

والقضية لا تكمن في حل ألغاز الجرائم بقدر ما تكمن في أسبابها وملابستها وكونها ظاهرة خطيرة تمثل أحد أشرس الظواهر في روسيا ويمتد تأثيرها إلى معظم دول العالم. ومن أهم وأحدث المصطلحات في الفترة الأخيرة بوسائل الإعلام الروسية والأوربية، والتي تلقى الضوء على ما يحدث في روسيا الآن هي مقولة: إن السلطة في روسيا عبارة عن تركيبة «مافياوية». وتكمن خطورة مصطلح «مافياوية» في أن الجريمة المنظمة كانت، وماتزال مرتبطة بالمؤسسة الحاكمة، وهذا ليس في روسيا فقط وإنما في دول عديدة من أبرزها إيطاليا والولايات المتحدة الأمريكية والعديد من دول أمريكا اللاتينية. فمن المعروف أن المافيا تدعم الحكومة وتصعّدها في حين تحمى الحكومة المافيا وتحافظ على

مصالحها ولكن هذه العلاقة تعتبر كلاسيكية للغاية من قيام أمريكا. أما في حالة روسيا فالأمر مختلف نسبياً حيث المافيا غير منفصلة إطلاقا عن المؤسسة الحاكمة، بل على حد تعبير المراقبين نجد أن كلاً منهما متغلغل في الآخر بحيث يصعب فصلهما. والجدير بالذكر أن المحللين والمراقبين الروس قد توصلوا مؤخراً إلى حقيقة تبدو مفزعة تماماً أجروا مقارنة بين المؤسسة الحاكمة في روسيا وبين نظيرتيها في كل من ألمانيا وإيطاليا في سنوات العشرينيات والثلاثينيات. وفسر أحدهم مقولة التركيبة «المافياوية» بأنها مرتبطة بالرعب من وجود الحزب الشيوعي الروسي القوى الذى يستطيع في أية لحظة الوصول إلى السلطة عن طريق البرلمان إن لم يكن بالقفز عليها تم قارن الوضع بحالة إيطاليا المشابهة نسبيا حينما تكتلت جميع الأحزاب اليمينية والمافيا والكنيسة والحكومة في جبهة واحدة ضد الحرب الشيوعي الإيطالي على مدى ما يقرب من ٦٠ عاما بحجة إنقاذ الأمة والوطن من أخطار ا لشيوعية الملحدة الشيء الذى جعل الفساد يتغلغل في جميع أجهزة الدولة بما فيها جهاز رئيس الوزراء الذى ثبتت إدانته فيما بعد وفي نهاية تفسيره هذا أكد أن هناك العديد من التحفظات في هذه المقارنة التقريبية حيث يختلف الأمر بالنسبة لروسيا الضخمة المترمية الحدود والتى صارت مفتوحة من جميع جوانبها لدرجة لا يمكن معها الفصل بين المافيا والحكومة

المدهش حاليا أن التركيبات الإجرامية الأجنبيه كانت قد اختفت أو توارت خلال الأعوام الماضية ولكنها في الفترة الأخيرة ظهرت بشراسه ووضوح على الساحه. وبدأت صراعا حادا مع المافيا الروسية من ناحية. ومع بعضها البعض من ناحية أخرى ناهيك عن الجرائم الفردية للرعايا الأجانب والتى يتم الإعلان عنها في وسائل الإعلام بشكل مبالغ فيه، واتخاذها بين الحين والآخر كستار لحجب الوضع الحقيقى في روسيا. ومع ذلك فأبشع الجرائم لازالت ترتكبها المافيا الروسية، وبالطبع لا يمكن إخفاء ممارسات التركيبات الإجرامية المنظمة للأوكرانيين والهنود والأتراك واليوغسلاف والنيجيريين والأذربيجان

وإذا ما سلطنا الضوء على الوضع الحالى نرى عجلة البيع والشراء والتجارة بمفهومها البدائي جداً لا تزال تدور بشكل مثير وغريب. في الوقت الذى نرى فيه تصريحات الحكومة تسير في وادى، والروس من ركاب المواصلات العامة والبائعين البسطاء والعمال

والمدرسين والموظفين يسيرون فى واد آخر تماماً. فالبنوك تتفتح كل يوم من أجل أن تشهر إفلاسها فى اليوم الثانى، والمحلات التجارية تفتح يومياً لتغلق بعدها بعدة أيام، ومسلسلات القتل والاغتيال تجرى فى حرية تامة. وهناك أصابع تشير إلى رجال الأمن أنفسهم ومشاركتهم فى هذه الجرائم.

ومن أبرز الأحداث فى الفترة الأخيرة إفلاس العديد من المحلات والمخازن العربية التى يديرها سوريون ولبنانيون وأكراد ومصريون، ولا يزال بالبعض الآخر يفكر فى إنهاء أعماله والعودة إلى بلاده سليماً. الغريب أن أغلب الذين أفلسوا أو أغلقوا محلاتهم لا يتحدثون كثيراً فى هذا الشأن، وإذا تحدثوا فهم يدورون حول الموضوع بحذر شديد، ثم يتشكون من الضرائب الباهظة التى تفرضها الحكومة، وبعد ذلك يشيرون بخوف إلى إتاوات المافيا. وفى لقاء بأحد الطلاب العرب الدارس بالدكتوراه والذى طالبنا بشدة بعدم ذكر اسمه وبلده وموقع دكان الجزارة الذى افتتحه مؤخراً، قال: لقد جاءوا قبل أن يبدأ المحل فى العمل، وعرض مندوب المافيا مشروعاً لحمايتنا. وعن تفاصيل المشروع قال: فى البداية وعلى حد علمى أنهم كانوا يطلبون مبلغاً معيناً أول كل شهر فى نظير إتاحة الفرصة للعمل من ناحية، وحمايتنا من المجموعات الأخرى التى يحلو لها القفز خارج نطاق حدودها من ناحية أخرى، ولكنهم فى هذه المرة اقترحوا أن يشاركونا بنسبة ٢٠٪ من رأس المال، علماً بأنهم لن يدفعوا شيئاً، وإنما سوف يشاركون بهذه النسبة على أن يتابعوا معنا أولاً بأول جميع الحسابات حتى يتمكنوا من الحصول على أرباحهم الناتجة عن النسقب التى يشاركون بها.

وأكد: إننى مقتنع تماماً بحجة المندوب الذى جاء إلى بأدب شديد ومعه أربعة أفراد آخرين مسلحين. وعندما سألناه عن حجة المندوب، قال بجدية: إن الرجل أثبت أن الحكومة لا تستطيع لأسباب ما ولكثرة مشاغلها حماية حياة رجال الأعمال وممتلكاتهم، وبالتالى فهم ـ المافيا ـ يسهرون على ذلك ويحرصون على أن تسير الأمور على خير وجه. وفى النهاية وجه المندوب إلى الطالب سؤالاً وضعه فى موقف حرج ـ على حد تعبير الطالب نفسه ـ: هل تتصور أن هذا العمل يمكن أن يكون مجاناً؟

وفى نهاية اللقاء بالطالب سألناه عن نيته فى الاستمرار، فقال: إن الأعمار بيد الله،

وعموماً فهناك الكثيرون غيرى مقتنعون جداً بوجهة نظر المافيا هذه، وهى بالفعل وجهة نظر مقنعة للغاية. وأكد: هناك مافيا محترمة تأخذ حقها وتعطيك حقك، أما هؤلاء السفاحين الذين يتطلقون عليك ليلك نهار ويسلبونك كل شيء فأنا ضدهم.

المأساوى فى الموضوع أن أحد الطلاب السودانيين - الله يرحمه - كان يردد هذه الكلمات بالحرف الواحد منذ عدة سنوات. وقبل أربعة أشهر ألقوه من نافذة بالطابق الأعلى فى إحدى البنايات، وبعدها بوقت قصير تعرفوا بصعوبة شديدة على جثة سودانى آخر فى أحد المستشفيات.

(٤) عبدة الشيطان

بلغ عدد حالات الانتحار فى صفوف المراهقين والشباب من الجنسين (١٢ - ٢٢ سنة) أكثر من ٣٦ حالة فى إقليم تيومين الواقع غرب سيبريا فى روسيا الاتحادية. وقد بدأت هذه السلسلة المبرمجة من عمليات الانتحار فى صيف ١٩٩٦ الأمر الذى أثار ضجة عنيفة ليس فى إقليم تيومين وحده، وإنما هز سيبريا كلها، وتردد صداه بقوة فى العاصمة موسكو.

فى بداية الأمر أخذ المراهقون يتساقطون واحداً تلو الآخر، وواحدة تلو الأخرى، دون ظهور أية دلائل تفيد عن وجود ملامح جريمة. ودلت تحريات رجال الأمن على عدم وجود أى إشارات تدل على ارتكاب جرائم فردية أو منظمة، أو أى صور من الاعتداء أو الاغتصاب. كما أكدت الأجهزة الأمنية فى هذا الإقليم بأن ما يحدث مجرد عمليات انتحارية عادية. إلا أن الواقع سار فى اتجاه آخر تماماً ليكشف عن عمليات الانتحار نفسها. وثبت أن جميع المنتحرين لهم علاقة بإحدى جماعات «عبدة الشيطان»، وأن انتحارهم جاء أثناء أو على إثر ممارسة طقوس دينية وشعائر معينة تم فيها تناول المخدرات. فى نفس الوقت الذى أصرت فيه أجهزة الأمن على عدم أخذ الأمر بجدية، وصممت على رأيها بأنها مجرد حوادث انتحار ليس إلا.

فماذا يحدث بهذا الشأن فى روسيا؟ وكيف جرت كل تلك الأمور تحت سمع وبصر الأجهزة الأمنية؟ وما علاقة الديانات والمذاهب الجديدة التى زحفت إلى روسيا بما يحدث من إصلاحات اقتصادية عشوائية انعكست فى مجملها على الحياة الاجتماعية والروحية والنفسية للمجتمع الروسى؟ وما علاقة كل ذلك بدور الكنيسة الأرثوذكسية الروسية التى نالت حريتها الكاملة فى العمل منذ عام ١٩٩٢؟ وما علاقة منظمات «عبدة الشيطان» بالمنظمات الفاشية الجديدة، وبالمنظمات الصهيونية التى نشطت فى الآونة الأخيرة بروسيا الاتحادية؟ ومن يقف وراء هذه المنظمات فكرياً ومادياً وعقائدياً؟!

أسئلة كثيرة تطرح نفسها وتفجر العديد من القضايا التى لا تخص روسيا وحدها،

وإنما تخص دول كثيرة ولدت فيها مؤخراً مثل هذه الظواهر بدرجات متفاوتة، ولها ارتباط عضوى بالأوضاع الاقتصادية والفكرية ـ الثقافية التى تؤثر بشكل غير مباشر على الجانب الروحى فى المجتمع، وخاصة عند المراهقين والشباب.

(١)

على الرغم من حصول الكنسية الأرثوذكسية الروسية على قسط لا بأس به من حرية التعبير والعمل فى بداية البيريسترويكا فى أواسط الثمانينيات، إلا أن باحثى علم النفس وعلماء الاجتماع الروس أشاروا فى العديد من أبحاثهم ودراساتهم إلى توقع ولادة ظاهرة «الخواء الروحى» التى يمكن أن تنقلب إلى حالة مرضية مدمرة، وخاصة فى أوساط المراهقين والشباب نتيجة للحملات غير المبرمجة فى هدم وتكسير مجمل رموز التاريخ والثقافة وعدم تقديم البديل العملى المقنع والمواكب للتطورات العلمية والفكرية والثقافية في نهاية القرن العشرين.

ومن المعروف أن أحد أهم الدعائم الأيديولوجية السوفييتية السابقة كان الاعتماد وبشكل أساسى على ملء الجانب الروحى للمجتمع، وعلى الأخص الشباب.. وبالتالى كان تدريس مناهج علم الإلحاد إجبارياً فى المدارس والجامعات الأمر الذى لعب دوراً لا يستهان به فى الحياة الروحية للمجتمع السوفييتى آنذاك على الرغم من كونه مضاداً للدين (حيث تتطلب دراسة هذه المناهج دراية واسعة وعميقة بالأديان وبالعلوم الإنسانية الأخرى مثل الفلسفة والتاريخ... إلخ وكذلك بعض العلوم الأساسية مثل الفيزياء والكيمياء والبيولوجى، ومن ثم فهى تتطلب قراءة جادة متواصلة، ولعل مثل هذه الأسباب قد جعلت علم الإلحاد ـ إذا نظرنا بعمق ـ أحد العلوم الروحية، هذا إلى جانب إرساء العديد من المفاهيم الإنسانية العامة وغرس قيمة العمل والواجب... إلخ). ومع ذلك فقد عملت السلطة السوفييتية على تدشين هذا الجانب، وكانت حريصة على ربطه بمجمل الظروف الأخرى كالحالة الاقتصادية والثقافية والنفسية، ومن ثم فقد فصلت الدين عن الدولة، وتركت الكنيسة تمارس دورها فى حدود الأعمال الدينية الطقوسية.

ومع انهيار أحلام البيريسترويكا التى اعتمدت فى جانب كبير منها على القاعدة

الثقافية ـ الفكرية ـ الروحية التى تم بناؤها فى الاتحاد السوفييتى، ومع طرح شعار الإصلاح عام ١٩٩٢ تم العصف نهائياً بكل جوانب التركة السوفييتية السابقة. ورغم انتباه منظرى السلطة الروسية الجديدة إلى الجانب الروحى فى المجتمع الروسى الجديد، وحصول الكنيسة على الحرية المطلقة فى ممارسة أعمالها باعتبارها حليفاً قوياً للسلطة الجديدة ولرجال الأعمال الجدد بوقوفها ضد كل ما كان فى زمن الاتحاد السوفييتى، واستعانتها بالدين المسيحى كبديل لمجمل المنظومة الفكرية ـ الثقافية ـ العقائدية المعقدة التى دشنها الاتحاد السوفييتى طوال ٧٠ عاماً. إلا أن وثائق الأرشيف ومستندات الأرشيف الروسى، وأبحاث علماء التاريخ والسياسة كشفت عن الكثير من الفضائح المدوية لرجال الكنيسة الروسية فى الفترة السوفييتية، وعن تعاملات العديد من رءوسها مع جهاز المخابرات السوفييتى الأمر الذى أثار العديد من الشكوك بين المراهقين والشباب والمثقفين بشكل عام، وألقى الضوء على دور الكنيسة الحالى الذى لا يختلف كثيراً عن دورها أثناء الحكم القيصرى، أو السوفييتى، وتحالفها مع مهندسى السياسات الجديدة. الأخطر من ذلك أن الكنيسة الروسية قد أصبحت الركيزة الأساسية للروس الجدد ورجال الأعمال وتم السماح لها ـ قانوناً ـ بتجارة الخمور وممارسة «البيزنس» بكل أنواعه مما جعل الشباب يعرضون عنها ويبحثون عن البديل الروحى بأنفسهم.

(٢)

من هنا بدأ الشباب الروسى فى ظل الانعطافات الفجائية غير المبرمجة بالبحث لنفسه عن بديل روحى ـ عقائدى خاصة وأن التقلبات السياسية الاقتصادية العشوائية اتخذت منحى فى غاية الخطورة لتتحول إلى أزمات حقيقية انعكست مباشرة على مجمل العلاقات الاجتماعية والنفسية والروحية للمجتمع كله، وخاصة على الشباب (١٢ ـ ٢٥ سنة) من الجنسين. وعليه فقد زحفت على روسيا فى ظل هذه الأوضاع العديد من الديانات والأفكار والعقائد والمذاهب الغريبة المختلفة من كل أنحاء العالم مثل أتباع «كريشنا»، وأنصار جماعة «أوم شنركيو» اليابانية الشهيرة، إضافة إلى تجمعات الخنافس والهيبز وظواهر أخرى مرتبطة فى مجملها بتعاطى المخدرات وتجارة الرقيق الأبيض. وفى إطار هذه الموجات الجديدة على المجتمع الروسى كان للشيطان النصيب الأوفر من الزبائن حيث ظهرت فى

موسكو وفى العديد من أقاليم ومناطق روسيا، جماعات تطلق على نفسها «ساتانستى»، أو أتباع أو عبدة الشيطان الذى يسمى فى الإنجيل «ساتانا»، والتى ما لبثت أن تحولت إلى منظمات ضخمة قوية تمتلك إمكانيات مادية وأسلحة وتطالب الحكومة الروسية (الديموقراطية) بتسجيلها رسمياً تحت اسم «كنيسة الشيطان».

على الرغم من أن أعضاء هذه المنظمات نجحوا نسبياً فى إخفاء تفاصيل عقيدتهم وطوقسهم السرية، إلا أنهم لم يجدوا أى حرج أو رادع فى إخفاء انتمائهم لعبادة الشيطان حيث انتشروا فى الشوارع والميادين والأزقة بملابس سوداء ومعاطف جلدية قصيرة - سوداء أيضاً - ورءوسهم ملفوفة فى مناديل سوداء وزرقاء قاتمة مرسوم عليها جماجم، وعلى صدورهم وحول معاصمهم وقابهم قلادات وأساور حديدية ذات أشكال غريبة مثل الجماجم والعظام والنجمة السداسية والصليب المعقوف، إضافة إلى قيامهم بطبع الأوشام على أجسادهم ووجوههم بأشكال مخيفة وغير مفهومة. وقد اختاروا أماكن التجمع والعبادة وممارسة الطقوس خارج المدن فى الغابات والمناطق غير المأهولة والبدرومات وطرق الصرف الصحى الموجودة تحت الأرض، وانتشرت فى صفوفهم ظاهرة تعاطى وإدمان المخدرات التى تعتبر طقساً أساسياً فى عبادتهم.

(٣)

فى شهر مارس ١٩٩٧ تفجرت قضية «عبدة الشيطان» فى روسيا بعد أن قامت صحيفة «إزفستيا» الروسية واسعة الانتشار بإجراء تحقيق عن سلسلة من حالات الانتحار بين المراهقين والشباب من الجنسين بمقاطعة تيومين الواقعة غرب سيبيريا. وأشارت الصحيفة إلى أن حالات الانتحار بدأت فى صيف ١٩٩٦ بشاب يدعى «ستاس بوسلوف» يبلغ من العمر ١٧ سنة حيث تم العثور على جثته معلقة بحزام جلدى أسود مربوط فى فرع بإحدى الأشجار بالغابة القريبة من المدينة. الملفت للنظر - حسب قول الصحيفة - أن جهاز الأمن فى المنطقة لم يبذل أى جهد أثناء التحقيقات وتم تقييد الحادث على أنه انتحار تحت تأثير جرعة من المخدرات. فيما بعد روى أحد أعضاء المنظمة أنه بعد شنق «ستاس» قال الرئيس: «كفى! إنه الآن هناك!». ومن الواضح أن هذه الجملة كانت الخاتمة والتصديق على إرسال الزبائن إلى العالم الآخر. وبعد ثلاثة أيام من انتحار «ستاس» وجدوا

جثة ثانية بنفس الطريقة لشاب يبلغ من العمر ٢٢ سنة اسمه «سيرجى سيدروف». الغريب أنهم عثروا على قائمة تضم أربعة أسماء فى أوراق أحد المنتحرين.، ولحسن الحظ هرب الشخص الثالث الذى كان بالترتيب الثالث، ثم عاد بعد ذلك ليروى كيف انتحر الشابان السابقان (انظر تفاصيل هذه القضية بمجلة «سطور» العدد ٩ لشهر أغسطس ١٩٩٧).

رغم انفجار القضية فى وسائل الإعلام واستمرار البحث والتحقيق فيه استمرت عمليات الانتحار حتى وصل عددها إلى ٣٦ حالة. فى ذلك الحين قامت القناة الرابعة بالتليفزيون الروسى بإذاعة خبر سريع يفيد بأنه تم القبض على زوجة أحد الضباط فى مقاطعة ريزان على إثر قيامها بذبح ابنها الصغير وفصل رأسه عن جسده. ومن خلال التحقيقات تبين أنها إحدى عضوات منظمة «عبدة الشيطان» وقد قامت بفعلتها الشنعاء تنفيذاً لتعاليم الجماعة من أجل تحرير روح ا لصبى الصغير من الملكوت الأرضى وإرسالها إلى عالم أكثر رحابة وحرية.

كان هذا الخبر مقدمة لخبر آخر آأكثر خطورة حيث أعلنت المذيعة بشكل عابر تماماً إنه سيتم قريباً تسجيل منظمة جديدة فى موسكو تحت اسم «كنيسة الشيطان». وأضافت: ربما لا تكون هناك واحدة من المنظمات أو المؤسسات الدينية قد حظيت بمثل هذا المجد والشهرة كمنظمة «عبدة الشيطان» التى ارتبط اسمها مؤخراً بالحوادث الرهيبة التى جرت فى مقاطعة تيومين غرب سيبيريا وراح ضحيتها أكثر من ٣٦ شخصاً من المراهقين والشباب.

(٤)

بذلك تحولت القضية إلى قضية رأى عام فى الوقت الذى كان يحاول فيه مجلس الدوما (البرلمان) استصدار قانون لمكافحة الفاشية الجديدة فى روسيا الغارقة فى بحر من الأزمات الاقتصادية والسياسية.

الجدير بالذكر أن القناة الرابعة بالتليفزيون الروسى (المملوكة للملياردير اليهودى فلاديمير جوسينسكى رئيس المؤتمر اليهودى الروسى) قد ألمحت من بعيد إلى ارتباط منظمة

«عبدة الشيطان» بكنيسة «السحر الأسود» التي تصدر وتوزع مجلة غريبة وخطيرة باسم «النظام الشعبي». وألمحت أيضاً إلى وجود علاقة وثيقة بين «عبدة الشيطان» و«الفاشيين الجدد» الذين ظهروا في روسيا بأعداد ضخمة، واستندت في ذلك إلى وجود الصليب المعقوف كأحد رموز جماعة عبدة الشيطان متناسية في الوقت نفسه وجود النجمة السداسية التي تم العثور عليها في جميع أوراق وصور المنتحرين، وذلك في محاولة لطمس العلاقة بين كنيسة «السحر الأسود» ومنظمة «عبدة الشيطان» وبين المنظمات الصهيونية العتيقة المدعومة من قبل اللوبي الصهيوني في روسيا، ومن ناحية أخرى محاولة التركيز فقط على الفاشية الجديدة لإثبات تفشي معاداة السامية لدى الروس وابتزاز الرأي العام من أجل مزيد من السيطرة الإعلامية والمالية للطغمة اليهودية الحاكمة.

(٥)

هنا نتوقف لطرح بعض الأسئلة التي نتوقع ألا تكون هناك إجابة جاهزة عليها. علماً بأن عدداً كبيراً أعضاء منظمة «عبدة الشيطان» على مستوى عال من الذكاء والموهبة والجدية رغم إدمان بعضهم للمخدرات. وهذا ليس دفاعاً عنهم أو حتى إدانة لهم، ولكن الأمر في حاجة إلى رصد موضوعي دقيق للظاهرة حتى نتمكن على الأقل من توصيفها توصيفاً علمياً.

ما الجهات التي تقف وراء هذه المنظمات؟ وهذه المنظمة تحديداً؟ من يُنظر لها، ومن يمولها؟ وما علاقتها بالنجمة السداسية والصليب المعقوف؟ وما البعد الدولي لهذه المنظمة - الظاهرة التي تطالب بتسجيلها والاعتراف بكنيستها.. كنيسة الشيطان؟

ليست هناك إجابات جاهزة. ولكن مثل هذه المنظمة تم اكتشافها في مصر (المجاورة لإسرائيل) في نفس التوقيت تقريباً، ثم بعد ذلك بأشهر قليلة في الأردن (المجاورة لإسرائيل) أيضاً. وليس هناك شك - على الأقل حتى الآن - عن ارتباط اللوبي الصهيوني في روسيا بعلاقات وثيقة مع دولة إسرائيل. والأكثر إثارة للانتباه أن أهم الوسائل التي يمارسها اللوبي الصهيوني في روسيا تحديداً هي الهجوم خير من الدفاع خاصة وأن المؤشرات كلها تشير بشكل أو بآخر إلى تصميم هذا اللوبي على الانتقام التام والنهائي

من الشبع الروسى. ولعلنا لا نبالغ إذا أكدنا أن غالبية المنظمات المتطرفة (بما فيها المنظمات الصهيونية والمؤتمر اليهودى) تمول كلها من اللوبى الصهيونى الذى يعمل فى إصرار على خلط الأوراق ببعضها البعض من أجل الإمساك التام بمقاليد الأمور فى روسيا.

وبإلقاء نظرة موضوعية على الأمور نجد أن تدهور الحالة الاقتصادية والاجتماعية فى روسيا يتيح الفرصة لمثل هذه الجرائم التى يرتكبها اللوبى الصهيونى، وأيضاً لظهور العديد من المنظمات المتطرفة التى يستفيد منها هذا اللوبى. الجدير بالانتباه أن غالبية - إن لم يكن كل - أعضاء منظمة «عبدة الشيطان»، والمنظمات الأخرى فاشية كانت أو صهيونية أو حتى ماسونية، ينتمون إلى أسر ميسورة الحال إن لم تكن غنية أو أرستقراطية، ومعظمهم إن يكن كلهم على مستوى تعليمى راق، وبالأحرى فهم ليسوا فى حاجة إلى عون مادى ولا تنقصهم المكانة - الوجاهة - الاجتماعية. إذن فما هى القضية؟ هل نعتبر الفنان مايكل أنجلو كان على حق عندما قال إن الغنى يُولد أيضاً الشذوذ؟ والمقصود بالشذوذ هنا ليس فقط الجنسى وإنما أيضاً الشذوذ الروحى والنفسى والأخلاقى أم من الممكن ربط هذه الظاهرة بشكل وليكن مبدئى على الأقل بأزمات اقتصادية فى القاع بدأت تعكس آثارها على القمة؟ وربطها أيضاً بالمقولة الفارغة «الثقافة الكونية» التى تتردد حالياً ببساطة شديدة وهى فى الأساس مرتبطة بقمع اقتصادى سياسى كونى يروح ضحيته ليس فقط الفقراء وإنما أيضاً الذين يساهمون فيه بشكل أو بآخر؟ أم ربطها باستخدام الدين - أى دين - فى أغراض هو برئ منها وجعله الثقافة الروحية الوحيدة والتى من شأنها حتماً أن تنتج ثقافة روحية جديدة وحيدة مضادة لهذا الدين أيا كان؟

أسئلة كثيرة، وإجابات أكثر، ولكن القضية أن هناك من يترصد لسقطات الشعوب والمجتمعات من أجل الاستفادة القصوى منها، واستثمارها بكل السبل والوسائل!!

خـــاتمـــة

بتأمل الوضع الروسى فى ظل الهيمنة الصهيونية يمكن الخروج ببعض وجهات النظر التى لا ندعى بأنها نتائج بقدر ما هى ملاحظات شديدة الأهمية. وأهمها على الإطلاق أن غالبية المنظمات الفاشية والقومية المتطرفة، بما فى ذلك الجمعيات والمؤتمرات والمنظمات اليهودية ـ الصهيونية شديدة التطرف والعداء للروس والقوميات الأخرى، نمت وتزايدت فى روسيا بعد انحلال الاتحاد السوفييتى وكان اللوبى الصهيونى فى روسيا هو المستفيد الأول إن لم يكن الوحيد من وجود هذه المنظمات.

أما تصريحات الجنرال الروسى ألبرت ميخائيلوفيتش ماكاشوف عضو مجلس الدوما عن الحزب الشيوعى الروسى، التى أثارت النعرة الصهيونية ـ النازية فقد بدأت قبل أزمة ١٧ أغسطس ولكن اللوبى الصهيونى لم يولها أى انتباه لعدم لفت الأنظار إلى كوادره المسيطرة على السلطة بداية من رئيس الوزراء كريينكو ونوابه الأوائل والوزراء ومديرى المؤسسات الضخمة ورءوسا الأجهزة الأمنية الاستراتيجية الذين يتولون ليس فقط الإشراف على أمن روسيا، وإنما على أمن دول الاتحاد السوفييتى السابق. ولم يكن الأمر يخلو بين الحين والآخر من بعض التحرشات، ولكنها كانت فى مجملها تحرشات صبيانية من الجانبين نتيجة لضغط اللوبى الصهيونى بشدة على مقدرات الروس البسطاء. وبمجرد حدوث الأزمة الاقتصادية التى أطاحت ببعض الرموز الصهيونية وأبقت على الكثير منها داخل دهاليز السلطة، بدأت مخاوف اليهود الروس بشكل عام الأمر الذى دفع اللوبى الصهيونى إلى تصعيد حملة ضارية عبر وسائل إعلامه ـ بفتح الدفاتر القديمة ـ متهماً البرلمان الروسى بمعاداة السامية وبمساندة النواب الذين يدلون بتصريحات ضد اليهود. وكانت مقالة / رسالة إدوارد توبول على وجه التحديد هى أهم وثيقة تتضمن العديد من الإهانات التى تم تدبيجها جيداً من أجل إثارة الوطنيين الروس من ناحية، ومحاولة تضليل الرأى العام بأنه ضد الطغمة المالية اليهودية الحاكمة فى روسيا من ناحية أخرى. وبتأمل رسالة توبول يمكن العثور على العديد من النقاط التى تنطوى على معانى فى غاية الأهمية والخطورة منها:

١ ـ الرعب من شبح مجزرة يقوم بها الروس ضد اليهود بشكل عام، وهو إيحاء خبيث لتأكيد تصاعد المشاعر المعادية للسامية، وتحذير بل وتحريض لليهود بالتصرف أو الهجرة أكثر منه تحذيراً لأفراد الطغمة المالية اليهودية.

٢ ـ التعالى الشديد الذى يتميز به المثقف اليهودى ـ الصهيونى بتأكيده فى كل لحظة على مبدأ «اختيار الشعب اليهودى». حيث يؤكد «نحن فى واقع الأمر شعبه المختار، ولكننا مختارون ليس من أجل الإثراء الشخصى، وإنما ـ فقط ـ من أجل إخراج شعوب العالم من الوثنية والهمجية إلى حضارة الوصايا العشر». أى إنه مازال يؤكد شعورهم بالتفوق ويعطى الحق لنفسه ولشعبه لقيادة العالم والحكم على الشعوب الأخرى بل

وقيادتها استناداً إلى خرافات التوراة والتلمود وبروتوكولات حكماء صهيون.

٣ - تركيزه الدائم على كلمة «شعبنا» التي تثير أكثر من تساؤل لدى الإنسان الروسي البسيط الذى لا فرق عنده بين اليهودى الأرمنى والتتارى على اعتبار أنهم جميعاً مواطنون لدولة فيدرالية واحدة: إلى أى شعب ينتمي توبول، وإلى من بالضبط يوجه حديثه؟ هل ينتمي توبول إلى روسيا الفيدرالية، أم إلى شعب يهودى ما؟ وأين هذا الشعب، فى إسرائيل أم هو شعب عالمى متفوق يمتلك أسباب القيادة ومحاكمة الآخر؟

٤ - تركيز توبول على استخدام الورقة الأرمينية الأذربيجانية (كمثال إنسانى!) وهو على دراية شديدة بحساسية هذه العلاقة. إنه هنا يؤكد بالذات ما يشاع عن دور اليهود فى استثمار العقدة الأرمينية بشكل عام، وتغذية الأقلية الأرمينية الروسية والشعب الأرمينى فى أرمينيا والأقليات الأرمينية فى مختلف بلدان العالم بالتعصب القومي والدينى فى مواجهة الروس من ناحية، والعداء العرقى والدينى للقوميات والأعراق والديانات الأخرى والاستعلاء عليها كما يفعل اليهود من ناحية أخرى. وتقوم وسائل إعلام اللوبى الصهيونى بشكل متواصل فى روسيا بإذكاء وتبرير - فى آن واحد - التعصب العرقى والدينى الأرمينى مدعية تشابه تاريخ ومصير الشعبين (اليهودى والأرمينى) وتعرضهما للمذابح والنفى والتشريد، بل وبتصعيد الأنانية والفردية والتمايز على اعتبار أن كل من الأرمن هم خاتشاتوريان ووليم سارويان، وتوجه هذه النعرة بشكل دائم على المستوى الدينى تجاه الشعوب المسلمة المجاورة لأرمينيا مثل إيران وأذربيجان وتركيا، ومن ناحية أخرى على المستوى العرقى حيث تغذى فيهم التفوق باعتبارهم من أبناء الجنس الآرى تارة!! وتارة أخرى هم من أحفاد اليونان!! وأصحاب إحدى أهم الحضارات القديمة (حضارات أورارتو التى كانت موجودة فى عصر السومريين!!). ولعلنا هنا ندرك أحد أهم محاور التقارب التركى - الإسرائيلى، وهو خوف الأولى من قدرة الثانية على الدعاية بين الأرمن (سواء فى أرمينيا أو خارجها) والضغط عليهم بتاريخ المذابح التركية التى ماتزال تشكل لدى جميع الأرمن فى العالم ما يسمى بـ«العقدة التركية».

رغم كل ذلك لم يحرك المثقفون والوطنيون الروس ساكناً واعتبروا أن مقالة/رسالة توبول مجرد بداية لمؤامرة مدروسة من أجل امتصاص غضب الشعب الروسى الذى «بدأ

يغضب»! من ناحية، ومن ناحية أخرى إثارة قلق المليون يهودى الباقين فى روسيا لكى يرحلوا بسرعة إلى «أرض الميعاد»! ولكن وسائل الإعلام واصلت بتعنت غريب إثارة موضوع «معاداة السامية» بين الشعب الروسى، وتناثرت تصريحات بريزوفكسى وجوسينسكى، اللذين يملكان - كل على حدة - أهم وأكبر وأضخم محطتى تليفزيون فى روسيا (القناة الأولى والرابعة على التوالى)، متهمة توبول بأنه «مجرد يهودى - جيد!!» يحاول إشعال الفتنة، واستمروا فى الوقت نفسه بتصعيد موضوع معاداة السامية. ونظراً لأن غالبية وسائل الإعلام فى أيدى اللوبى الصهيونى، فقد دأبت بطبيعة الحال على: تصوير اليهود كأبطال - وحيدين - للحرب العالمية الثانية حيث حرروا جميع بلدان العالم من الطغيان النازى، وكضحايا للمحارق الهتلرية (مع التركيز على رقم الستة ملايين!)، وأيضاً كضحايا للمعتقلات الستالينية، والحروب العربية التى خرجوا منها منتصرين على الدوام. وهم يعلمون جيداً - اللوبى الصهيونى ووسائل إعلامه - أن الحرب العالمية الثانية بالنسبة للروس والشعوب السوفييتية السابقة كلها مازالت تسمى«الحرب الوطنية العظمى» على اعتبار أنها حرب مقدسة كلفت الشعب السوفييتى أكثر من عشرين مليوناً من أبنائه الذين حرروا أوربا وطاردوا فلول النازية حتى دخلوا برلين عام ١٩٤٥.

كل هذه الأمور دفعت بعض المثقفين والسياسيين الروس للإدلاء بتصريحات حادة مرت جميعها بشكل طبيعى إلا تصريحات الجنرال ألبرت ماكاشوف (والأسباب معروفة: هو أحد العسكريين الروس الموهوبين، وعضو الحزب الشيوعى الروسى الذى بدأ اللوبى الصهيونى حملته ضده - ضد الحرب - لإضعاف موقفه فى انتخابات عام ٢٠٠٠، إلا أن النتائج جاءت على عكس التوقعات حيث زادت شعبية الحزب ليس لأنه شيوعياً فحسب ولكن لأنه حزب وطنى يطالب باحترام الأقليات العرقية والدينية وبنسبية التمثيل فى السلطة الفيدرالية الروسية).

ورغم أن تصريح ماكاشوف، الذى ركزت عليه وسائل الإعلام الصهيونية، كان قصيراً وعابراً، إلا أنه قد تم تضخيم نقطتين اعتبرهما اللوبى الصهيونى إهانة لمقدساته ومعاداة للسامية، وهما:

١ - وصف الأغنياء والروس الجدد وأفراد الطغمة المالية اليهودية الحاكمة بكلمة

«جيد»[1] باعتبارهم مصاصوا دماء.

٢ - المطالبة باحترام الأغلبية الروسية والأقليات في روسيا، وتمثيل جميع شعوب روسيا الفيدرالية في السلطة. وأشار إلى وضع الشعب الفلسطيني في إسرائيل التي تدعى الديموقراطية والحرية ومراعاة حقوق الإنسان في الوقت الذى لا تسمح فيه بتمثيل عادل في السلطة لأبناء الشعب الفلسطيني الذين يفوقون في عددهم عن اليهود الموجودين - على الأقل - في روسيا.

على أثر ذلك قامت قيامة اللوبي الصهيوني، وحشدت وسائل الإعلام جميع طاقاتها من أجل إبراز الإهانة الشنيعة التي ألحقها ماكاشوف بالشعب اليهودي حين وصف الطغمة المالية اليهودية الحاكمة في روسيا بكلمة «جيد»، على الرغم من أنه وصف جميع مصاصي الدماء من كل الشعوب المكونة لروسيا الفيدرالية بهذه الكلمة، ولكن اللوبي الصهيوني اعتبرها إهانة خاصة له ولمقدساته. وعلى الفور عقد بريزوفسكي مؤتمراً صحفياً غطته جميع وسائل الرعلام وطالب فيه بحل الحزب الشيوعي الروسي، وقام المؤتمر اليهودي بقيادة جوسينسكي بتوجيه رسالة يطالب فيها الاتحاد الأوربي بمقاطعة الحزب الشيوعي الروسي (وهو يعلم جيداً أن النائبين الأولين لرئيس الوزراء بريماكوف من أعضاء الحزب، بل وتؤكد الدعاية الصهيونية في روسيا أن بريماكوف أيضاً ينتمي إلى الحزب الشيوعي وذلك من أجل إسقاط حكومة بريماكوف وإثارة الشكوك حول نواياه تجاه الغرب ومؤسساته المالية، أو على الأقل إفساد مستقبل أية حكومة وطنية في روسيا)، بل ووصل الأمر إلى مطالبة اللوبي الصهيوني بسن قانون مماثل لقانون جيسو - فابيو في فرنسا!! في حين قامت سفيرة إسرائيل في موسكو بتقديم عريضة احتجاج رسمية إلى

---

(١) «جيد» بتعطيش الجيم وكسرها وكسر الياء أيضاً. وهي كلمة قديمة في الثقافة الروسية استخدمها بطرس الأول كثيراً، واستخدمها بوشكين حوالي ٨٠ مرة في أعماله، كما استخدمها تشيخوف في أعماله ورسائله، وكذلك ديستويفسكي وجوجول ونيكولاي ليسكوف وسريجي يسن وكوبرين وألكسندر بلوك وفلاديمير دال وميخائيل بولجاكوف وميخائيل شولوخوف، ناهيك عن وليم شكسبير الذي جسّد نموذج الـ «جيد» في شخصية «شايلوك» بمسرحية «تاجر البندقية»، وتورجينيف في شخصية «جيرشيل» بقصة «جيد»، وبلزاك... وآخرون.

الحكومة الروسية على تصاعد الحملة المعادية للسامية فى روسيا الأمر الذى دفع السكرتير العام للحزب الشيوعى الروسى جينادى زيوجانوف إلى تقديم اعتذار رسمى أمام رئيس المجمع اليهودى الألمانى أثناء زيارة الأخير لألمانيا فى غضون تلك الأحداث.

على الرغم من وجود شبه المؤامرة فى مقالة / رسالة إدوارد توبول وتضمنها العديد من الإهانات والمغالطات والتلويح بالعقيدة الأرمينية، إلا أنها من ناحية أخرى تضع أمامنا تصوراً كاملاً لسيطرة اللوبى الصهيونى على السلطة فى روسيا وهى الفرصة التى لا تأتى إلا كل ألف عام على حد قول توبول نفسه. أما الحوار (النموذج ٢) الذى أجرته معه الجريدة الأدبية الروسية فهو الوجه الآخر لمصداقيته فيما ادعاه فى الرسالة. ولعلنا لسنا فى حاجة إلى تعليق بخصوص هذه المقابلة الصحفية مع توبول أو حتى المقابلة (النموذج ٣) التى جرت مع ألفريد كوخ، لأن كل منهما تكشف جيداً الوجه القبيح والعقلية التآمرية التى يفكر بها اللوبى الصهيونى ليس فقط فى روسيا.

الملاحق

١ - أهم المصطلحات/الشخصيات
٢ - نداء نابليون إلى يهود العالم
٣ - كمان روتشيلد (قصة تشيخوف)

(١) ملحق تفسيرى(*)

المسألة اليهودية:

مصطلح يفترض أن ثمة مشاكل محددة ثابتة لا تختلف تقريباً باختلاف الزمان والمكان، يواجهها اليهود وحدهم دون غيرهم... وحل هذه المسألة يكون عن طريق التخلص من اليهود، بتهجيرهم إلى وطنهم القومى (وهذا هو الحل الصهيونى)، أو بطردهم (الحل المعادى لليهود، أو بإبادتهم (الحل النازى)... (موسوعة اليهود واليهودية - الصهيونية، دار الشروق - القاهرة - الطبعة الأولى، ص ٣ ص ٥٩). وهو مصطلح يفترض أن هناك مسألة يهودية واحدة، عالمية وعامة، وهذ امناف للحقائق التاريخية.... (الموسوعة ص ٦٠).

(*) إعداد: أحمد عزت سليم.

وقد اشتد ظهور هذه المسألة فى روسيا عندما ضمت أجزاء من بولندا فقد وجدت نفسها وهى تحظر دخول اليهود أمام أكبر تجمع يهودى فى العالم كانت الجماهير اليهودية تشعر بأن عملية التحديث ستفقدها مهاراتها وقناعتها التقليدية.. وقد ساهم ذلك في تصعيد حدة الصراع الطبقي وإلى الثورات الاجتماعية الحادة وصدور قوانين مايو ١٨٨١ التى حرمت على أعضاء الجماعة اليهودية الانتقال إلى خارج منطقة الاستيطان اليهودية فى روسيا، وفى المذابح المتكررة التى وقعت فى ذلك الوقت، ويمكن التأريخ لظهور الحركة الصهيونية بين اليهود بهذا التاريخ، ففى هذه الفترة طرح بين أعضاء الجماعات اليهودية بشلك جدى الحل الصهيونى للمسألة اليهودية وهو الحل الذى يرى ضرورة إقامة الدولة الصهيونية ليهاجر إليها اليهود... وكان هذا هو الحل الاستعمارى لهذه المسألة (الموسوعة ص ٦٨).

اللوبى الصهيونى:

تشير كلمة لوبى بالمعنى العام إلى مجموعة من المنظمات والهيئات وجماعا المصالح والاتجاهات السياسية التى قد لا تكون مسجلة بشكل رسمى ولكنها تمارس الضغط على الحكام وصناع القرار (الموسوعة جـ ٦ ص ٣٤٣)، واللوبى الصهيونى بالمعنى العام الشائع للكلمة هو إطار تنظيمى عام يعمل داخله عدد من الجمعيات والتنظيمات والهيئات اليهودية والصهيونية تنسق فيها بينها، ومن أهمها: موتمر رؤساء المنظمات اليهودية الكبرى، والمؤتمر اليهودى العالمى... (الموسوعة جـ ٧ ص ٣٤٤) وكانت تشير فيما سبق كلمة اللوبى إلى ما يجرى من تأشير على الحكومات وأعضائها من وراء الستار (معجم العبارات السياسية الحديثة، د. مجدى وهبة) وفى الحالة الصهيونية الآن تمارس فى السر والعلانية.

الصهيونية:

فى ١٤ مايو ١٩٤٨ أعلن بن جوريون فور قيام الدولة الصهيونية: إن الصهيونية قد حققت هدفها فى ١٤ مايو ١٩٤٨ ببناء دولة يهودية أكبر مما هو متفق عليه وبفضل قوات الهاجاناه، وليست هذه نهاية كفاحنا بل إننا اليوم قد بدأنا وعليان أن نمضى

لتحقيق قيام الدولة التى جاهدنا فى سبيلها من النيل إلى الفرات» (د. عبد السميع الهراوى، الصهيونية بين الدين والسياسة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٧٧، ص ١٧)، هكذا تحقق تعريفها الشائع فى الغرب بأنها الحركة الرامية إلى عودة اليهود إلى وطن أجدادهم أرتس إسرائيل حسبما جاء فى الوعد الإلهى، (فى ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقاً قائلاً لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات. سفر التكوين من رقم ١٨، ثم امشى فى الأرض طولها وعرضها لأنى لك أعطيها.. سفر التكوين من رقم ١٤ ـ ١٧)، والآمال المشياحينية لليهود! وهى مخطط استعمارى، وتعنى أيضاً تهجير بعض أعضاء الجماعات اليهودية إلى فلسطين وتوطينهم فيها. وهى بالمعنى الدينى تعنى العودة إلى صهيون (الأرض العاصمة) التى سيعود إليها المشيح المخلص ويحكم العالم ويسود الرخاء (الموسوعة جـ ٦ ص ١٣ ـ ١٤)، وهى ترجمة الفكر العصرى الدينى الراسخ فى نفوس الشعب اليهودى بأنهم شعب الله المختار الذى يجب أن يتسيد العالم بأثره، انطلاقاً من مملكته الموعودة فيما بين النيل والفرات، إلى منهج سياسى يتضمن خطوات عملية تنشط فى تنفيذها جماعات يهودية فى شتى أنحاء العالم لتحقيق الأهداف المخططة بالتتالى خلال فترات زمنية محددة (نشأة وتطور الصهيونية ـ وزارة الدفاع المصرية). وقد دعاهم نابليون صاحب أول مشروع صهيونى إلى الاستيطان فى بلاد أجدادهم... ثم لخص شافتسيرى التعريف الغربى للصهيونية فى عبارة أرض بلا شعب لشعب بلا أرض... وأصبحت الصهيونية بعد المؤتمر الصهيونى عام ١٨٩٧ الدعوة القومية التى جعلت السمات العرقية اليهودية قيمة نهائية مطلقة وتحاول أن تصل إلى أهدافها من خلال العمل السياسى المنظم، وأصبح المصطلح يشير إلى الدعوة التى تبشر بها المنظمة الصهيونية وأصبح الصهيونى هو من يؤمن ببرنامج بازل، ويعتقد الكاتب الإسرائيلى أبراهام يهوشاط أنها حركة إنقاذ ظهرت حلاً للمأزق اليهودى منذ قرن (أى المسألة اليهودية فى شرق أوربا) وهو يعتقد أنها وصلت إلى نهايتها أى أن الصهيونية كانت ولم تعد فى العالم العربى تعنى الاستعمار الاستيطانى الإحلالى فى فلسطين الذى ترسخ فى الغرب (الموسوعة جـ ٦، ص ١٥ ـ ١٦).

ويرى الدكتور عبد الوهاب المسيرى بأن الصهيونية هى مجموعة من الأقوال أفرزتها

الظروف المؤقتة الخاصة بالتحديث المتعثر / المتوقف فى شرق أوربا من ١٨٨٢ ـ ١٩١٧ . وهى أقول تبناها التشكيل الاستعمارى الغربى وجندها لصالحه. (قضايا فكرية الكتاب السابع، القاهرة ١٩٨٨، ص ٢٠).

الهسكلاه HASKALAH:

وتعنى الاستنارة اليهودية وهى ا لحركة التى انتشرت بين أعضاء الجماعات اليهودية فى أوربا فى منتصف القرن الـ ١٨، وتعنى أيضاً التنوير اليهودى باعتبار أن هذه الحركة أتت بمثل وقيم من خارج الموروث الدينى والفكرى اليهودى.. وفرضت على الجماعات اليهودية إما من خلال الدولة أو من خلال طليعة ثقافية يهودية تشربت أفكار حركة الاستنارة الغربية ثم حاولت تنوير اليهود، وظهر المصطلح عام ١٨٣٢ مع حركة التجديد فى الأدب العبرى واستعارة أشكال الأدب العلمانى الغربى... وبدأت فى صورة تيار منذ منتصف القرن الـ ١٨ واستمرت حتى عام ١٨٨٠، وهى تنطلق من الأفكار الأساسية من حركة الاستنارة الغربية مثل الإيمان بالعقل كمصدر أساسى ووحيد للمعرفة، ونسبية المعرفة والقيم وإمكانية إصلاح الإنسان عن طريق تغيير بيئته وخلق المواطن الذى يدين بالولاء للدولة، وطالب دعاة التنوير أن يمنح اليهود الحقوق السياسية والمدنية وأن يندمجوا فى المجتمع وأن يكون ولاءهم الأول والأخير للبلاد التى ينتمون إليها لا لقوميتهم الدينية، وكان يهود البلاد من المارانو والإشكيناز حملة الحضارة الغربية داخل الجماعة اليهودية لخبرتهم بالتجارة والاقتصاد والعالم المسيحى، وقد بدأت حركة التنوير بالمعنى المحدد فى برلين تحت حكم فريدريك الثانى الذى خلق مناخاً شجع اليهود على الاستيطان فى بروسيا والاشتغال بالتجارة ومنح بعض قطاعاتهم حقوقهم كاملة فنشأت طبقة رأسمالية تجارية وجدت أن مصلحتها الاندماج فى المجتمع وأصبحت بمثابة القدوة أو النموذج لبقية اليهود. ويعد موسى مندلسون الذى كان يعمل محاسباً وتاجراً، كما كان متزوجاً من حفيدة أحد يهود البلاط، أهم مفكرى حركة التنوير وأصدر عام ١٧٥٠ مجلة أسبوعية تسمى كوهيليت موسار وهى أول منبر للتعبير عن أفكار حركة التنوير، ونشر ترجمة ألمانية لأشعار موسى الخمسة مع تعليق ذات طابع علمانى وأجرت تحولاً عميقاً وربما ثورياً فى مجرى تاريخ الجماعات اليهودية بتحرير المرأة ودمجها فى المجتمع..

وانتقلت الحركة إلى روسيا في الثلاثينيات من القرن الـ ١٩ وأصبح مركزها هناك في منتصف الأربعينيات ويعد إسحق دوف لفنسون أهم دعاة الاستنارة في روسيا ويطلق عليه مندلسون روسيا وأشهر جمعياتها جمعية نشر الثقافة بين يهود روسيا التي تأسست عام ١٨٦٣ وأنشأت عدة مدارس لتعليم الحرف الجديدة... ورأى بعض دعاتهم ضرورة الاستجابة إلى حركة الحكومة الروسية لترويس رعاياها... ولم تنجح مثل الحركة في روسيا، وكان يهود الشرق يشعرون بأن يهود الغرب فقدوا هويتهم وأنهم يتشبثون بالأغيار وارتبط أعضاء الجماعة في روسيا بالتجارة البدائية والربا والخمور.

واليهودية المحافظة وليدة حركة التنوير ودعوا إلى إحياء اللغة العبرية باعتبارها لغة التراث اليهودى الأصلى، واليديشية اللغة القومية ليهود شرق أوربا، وطالبوا بأن تكون المدارس التلمودية العليا لإعداد الحاخامات وحدهم. وبدأت المدارس العلمانية فى الظهور وافتتحت أول مدرسة يهودية لتعليم المرأة عام ١٨٣٦ . وظهر علم اليهودية على أيدى دعاتهم وأحيوا كتابات موسى بن ميمون ذات النزعة العقلانية، والمطالبة بإدخال التعليم غير الدينى على الدراسات الدينية اليهودية.

وتعد حركة التنوير سبباً مباشراً فى ظهور الصهيونية لرفضهم فكرة انتظار الماشيح الذى يأتى بالخلاص.. ونادوا بأن على اليهود الحصول على الخلاص بأنفسهم.. وأصبحت العودة إلى فلسطين ممكنة دون انتظار مقدم المسيح، وتطور مفهومهم فى أن تكون الشخصية اليهودية شخصية طبيعية ويصبح اليهود أمة مثل كل الأمم إلى تأسيس الدولة الصهيونية، حتى يكون للشعب اليهودى دولته المستقلة شأنه فى ذلك مثل كل الشعوب (الموسوعة جـ ٣، ص ٧٥ - ٨٢).

القومية اليهودية المجردة:

عبارة مرادفة لمصطلح الصهيونية وهى تفترض أن اليهود يشكلون جماعة قومية أو شعباً يهودياً، فالنسق الدينى اليهودى، من حيث هو تركيب جيولوجى، يحوى داخله تياراً قومياً قوياً جداً يرتبط ارتباطاً بالبنية الحلولية، إذ يرى اليهود أنفسهم كياناً دينياً متماسكاً يسمى «بنو إسرائيل». يتمتع بعلاقة خاصة مع الإله الذى يحل فيهم ويمنحهم

درجة عالية من القداسة ويتولى قيادتهم وتوجيه تاريخهم القومى المقدس الفريد الذى بدأ بخروجهم من مصر وقد أرسل الإله التوراة باعتبارهم شعبه المختار. ولذا فإن اليهودية، من هذا المنظور، قومية دينية، وهي بذلك لا تختلف كثيراً عن الأديان الوثنية الحلولية حيث يقتصر الدين والإله علي شعب واحد دون غيره من الشعوب... وهي دين قومي عرقي أو قومية دينية مقدسة تمزج الوجود التاريخي المتعين والتصور الديني المثالي... ودعاة الصهيونية الإثنية الدينية يرون أن اليهودية دين قومي أو قومية دينية وأن ما يربط اليهود كشعب هو دينهم القومي أو قوميتهم اليهودية، وقد انطلق المشروع الصهيوني من هذا الافتراض وأسست الدولة الصهيونية تحقيقات لفكرة القومية اليهودية.

والصهيونية تستخدم التشابه بين المصطلح الديني والمصطلح القومي الشائع كدليل على أن اليهود أول شعب ظهر على الأرض وأول قومية في التاريخ. وفي بطاقة تحقيق الشخصية عند الإسرائيليين توجد ثلاثة بنود المواطنة والدين والقومية فجميع المواطنين إسرائيليون ومن ذلك العرب، ويختلف الدين أو القومية بالنسبة إلى الإسرائيليين اليهود فهي اليهودية إذ لابد أن يتفق بندا الدين والقومية حسب الرؤية الصهيونية (الموسوعة جـ ٦، ص ٢١ - ٢٣).

الجيتو:

هو الحي المقصور على إحدى الأقليات الدينية وارتبطت أساساً بأحياء اليهود في أوربا وللكلمة معنيان عام وخاص، الجيتو بالمعنى العام أى مكان يعيش فيه فقراء اليهود دون قسر من جانب الدولة، أو حي اليهود بشكل عام، ويعود تاريخ هذه الجيتوات إلى الإمبراطورية اليونانية والرومانية.

أما الجيتو بالمعنى الخاص الذى أصبح شائعاً فيعنى المكان الذى يُفرض على اليهود أن يعيشوا فيه، ويقال إن الكلمة من الكلمة العبرية «جت» أو «جيط» بمعنى الانفصال أو الطلاق الواردة في التلمود، أو من لفظة بورجيتو الإيطالية التى تعنى القسم الصغير من المدينة، والشتتل أى المدن اليهودية الصغيرة في أوكرانيا وغيرها من بلاد شرق أوربا، هو أحد أشكال الوجود الجيتوى وأهمها على الإطلاق من منظور وتاريخ الصهيونية، والمسألة

اليهودية فى أوربا الشرقية... والجيتو أيضاص تعبير عن صراع بنيوى يدور فى المجتمع الإقطاعى الغربى، وهو الصراع بين البرجوازية المحلية وحماة اليهود من ملوك وأساقفة ونبلاد... ودعم الحاجة إلى الجيتو مجموعة الشعائر اليهودية الخالصة مثل قوانين الطعام وتحريم الزواج المختلط وعدم شرب خمر صنعها واحد من الأغيار، والختان والنصاب اللازم لصلاة الجماعة وعادات الدفن وشعائر السبت (الموسوعة جـ ٤ ص ٢٨٨) ومازال اليهود فى روسيا يزاولون نفس الشعائر التى تؤدى إلى الجيتو، ونشرت جريدة الأهرام المصرية فى عددها الصادر بتاريخ ٤ / ١٠ / ٢٠٠٠، أن اليهود فى مقاطعة بيروبيجان وهى المقاطعة التى خصصت لليهود الروس منذ عهد ستالين، قد افتتحوا محلاً لبيع الفودكا اليهودية «الكوشير» الفودكا الحلال بينما اعتبرت الفودكا العادية الروسية هى فودكا عاصور أى فودكا حرام» وكان اليهود يسعون إلى الجيتو ويشترونه ويحتلفون بإنشائه، إلا أنه ساهم فى عزلهم وتجريدهم وتحويلهم إلى عصر مجرد غير إنسانى.. وشكل أول جيوب العلمانية والنفعية والتعاقدية الحقة فى أوربا... وأخذت أسوار الجيتوات فى السقوط مع بداية الثورة الفرنسية وظهور المجتمع الغربى الحديث تحت ضغط الشعوب والحكومات الأوربية التى كانت تحاول توحيد السوق القومية. (الموسوعة جـ ٤، ص ٢٨٩) والجيتو مكان داخل المدينة أو خارجها محاط بسور عال له بوابة أو أكثر تغلق عادة فى المساء وكان من غير المصرح به لأعضاء الجماعات اليهودية فى بعض المراحل التاريخية ببعض الدول أن يظهروا خارج الجيتو فى يوم الأحد أو فى أيام أعياد المسيحيين، وكانت عمارته متلاصقة... تحجب الشمس، فأصبحت رطبة وغير صحية وأماكن شديدة القذارة تنتعش فيها الأمراض وتتراكم القاذورات، وقد ترك الانحطاط الاقتصادى والمعمارى للجيتو أثراً عميقاً فى وجدان يهود شرق أوربا ووسطها القاطنين فيه، وعمق انفصالهم عن العالم الخارجى، وقدم عصر النهضة وعصر الإصلاح الدينى ثم عصر الاستنارة فى أوربا واليهود داخل أسوار الجيتو الاقتصادية والوجدانية فكان معظم أعضاء الجماعة اليهودية من يهود شرق أوربا معزولين عن الثقافة العامة لا يدرسون إلا التوراة والتلمود والمدراش، ولا يقتربون البتة من تاريخ الأغيار... وكانت الجيتوات هى التى أفرزت الصهيونية موجودة أساساً فى شرق أوربا (الموسوعة جـ ٤، ص ٥٤).

إصلاحات عام ١٨٦٣:

صدرت هذه الإصلاحات فى عهد ألكسندر الثانى (١٨٥٥ - ١٨٨١) حيث تميز حكمه بأنه حركة التحديث فى روسيا خطت خطوات واسعة واتخذت شكلاً ليبرالياً بعد هزيمة روسيا فى حرب القرم، فعلى سبيل المثال تم تحديث النظام القضائى عام ١٨٦٤ ، ونظام البلديان عام ١٨٧٠ ، وكذلك نظام التجنيد، ولعل أهم القرارات قرار إلغاء نظام الأقفان عام ١٨٦١ الذى صدر نزولاً على إرادة النبلاء الإقطاعيين الذين ظهرت بينهم تطلعات نحو الانتقال إلى صفوف البرجوازية الكبيرة سواء من خلال إقامة المزارع الحديثة ورسملة الزراعة أو من خلال التوجه للعمل فى المجالات التجارية والصناعية.. ولكن بدأت أزمة النظام القيصرى فى الظهور. لقد حررت الدولة الروسية الأقفان ولكنها لم توفر لهم أرضاً وفتحت أبواب الحراك الاجتماعى أمام أعضاء الجماعة اليهودية. وقامت الحكومة بتوسيع نطاق حقوق اليهود النابغين وخصوصاً حق السكنى فى روسيا بأكملها.. وكنت أعقاب تولى ألكسندر الثانى قد ألغت القوانين الخاصة بتجنيد أعضاء الجماعة اليهودية وتمت مساواتهم ببقية الشعب الروسى، وأسس التجار الأثرياء والمثقفين الداعين إلى الدمج والترويس جمعية نشر الثقافة الروسية بين يهود روسيا عام ١٨٦٣ ، (الموسوعة جـ ٤ ، ص ٣٧٣).

أحداث عام ١٨٨٢:

بعد اغتيال ألكسندر الثانى على يد مجموعة من الشباب الثورى بينهم فتاة يهودية (الموسوعة جـ ٤ ، ص ٣٧٣). واعتلاء ألكسندر الثالث الحكم فى روسيا القيصرية (١٨٨١) ازداد التشدد والأوتوقراطية... وألغى الفصل بين السلطتين التنفيذية والقضائية فعين بدلاً من القضاة فى الريف رؤساء قرويون من طبقة النبلاء يقومون بإصدار الأحكام وتنفيذها، وطورد أعضاء الجماعات المسيحية التى لا تدين بالأرثوذكسية... ووقعت الجماعة اليهودية مع بقية قطاعات الشعب الروسى ضحية عملية القمع الرجعية هذه... وخاص بعد أن قامت الصحف الروسية الرسمية بشحن الجو ضدهم باعتبارهم مستغلى الفلاحين وتشكلت لجنة للتحقيق فى الحوادث توصلت إلى أن نشاط اليهود الاقتصادى هو السبب فى هذه الهجمات... ثم شكلت لجنة أخرى لإعادة النظر فى

المسألة اليهودية، طرحت اقتراحات لا تختلف عن اقتراحات وتوصيات اللجنة السابقة، بناءً عليه أصدر وزير الداخلية الكونت إجناتيف قوانين مايو المؤقتة عام ١٨٨٢ باعتبارها إجراءات استثنائية تطبق على منطقة الاستيطان وتهدف إلى حماية المواطنين الروس من اليهود باعتبارهم عنصراً أجنبياً غريباً... وأصبح محظوراً عليهم ألا يمتلكوا أى عقار إلا فى المدن الموجودة داخل منطقة الاستيطان اليهودى، وأصبح من حق السكان الروس طرد اليهود، والذى يغادر قريته لا يعود إليها، ولا يسمح بتشغيلهم فى المناطق الريفية، والذى يوسع نشاطه خارج منطقة الاستيطان يعاد فوراً إليها، ولا يسمح باستجلاب أقارب لهم، وحددت عدد الطلاب فى المدارس. والذى يغير وضعه المهنى إلى تاجر يسقط حقه فى الإقامة فى روسيا ويعاد إلى منطقة الاستيطان وإغلاق معبدهم فى موسكو وتحريم الإقامة فيها... (الموسوعة جـ ٤، ص ٣٧٦) وقد تدفق فى هذا العام يهود شرق أوربا (اليهود اليديشية) إلى كل أنحاء العالم، وبدأ تأسيس جماعات إحياء صهيون فى روسيا، ومعه بدأ الاستعمار الاستيطانى الإحلالى الصهيونى بهجرة جماعية من المستوطنين الصالحين إلى فلسطين على يد جماعة بيلو. ويؤرخ بداية الحركة الصهيونية بهذه الفترة.

الفكرة الصهيونية:

ظهرت الصيغة الصهيونية الأساسية فى أواخر القرن السادس عشر على شكل الأحلام الاسترجاعية فى الأوساط البروتستانتية الاستعمارية وخصوصاً فى إنجلترا، وقد ولدت كفكرة وحسب، كإمكانية تبغى التحقق لا فى أوربا وإنما خارجها، وليس من خلال الإنسان الأوربى ككل، وإنما من خلال الجماعات الوظيفية اليهودية وكانت هذه الصهيونية ترى اليهود باعتبارهم مادة بشرية يمكن حوسلتها.. ومع تصاعد المشروع انزوى دعاة الديباجات الدينية وتدثرت الصياغة الصهيونية الأساسية بالديباجات العلمانية الرومانسية والعضوية والنفعية والعقلانية ودعا نابليون إلى إقامة دولة يهودية فى فلسطين مستخدماً خليطاً من الديباجات الرومانسية والدينية (الموسوعة جـ ٦، ص ٩٢ - ٩٣)، وقد قلب ظهور محمد على المفاجئ وقيامه بتكوين إمبراطوريته الصغيرة موازيين القوى وهدد المشروع الاستعمارى الغربى الذى كان يفترض أن العالم كله إن هو إلا مساحة لنشاطه وسوق لسلعه ووضع حدد لآمال الدول الغربية التى كانت تترقب

اللحظة المواتية لاقتسام تركة الرجل المريض المحتضر... فأجهزت عليه واضطرته إلى التوقيع على معاهدة لندن ١٨٤٠ وعند هذه النقطة تبلورت الفكرة الصهيونية بين غير اليهود وتحولت من مجرد فكرة إلى مشروع استعمارى محدد إذ بدأت تطرح فكرة تقسيم الدولة العثمانية ومن ثم اكتسبت الصيغة الصهيونية الأساسية مضموناً تاريخياً وبعداً سياسياً وأصبح بالإمكان دمج المسألة اليهودية (مسألة الشعب العضوى المنبوذ) مع المسألة الشرقية (تقسيم الدولة العثمانية) وطرحت إمكانية توظيف الشعب المنبوذ وبدأ التفكير فى حل المسألة اليهودية عن طريق نقل اليهود إلى فلسطين وإيجاد قاعدة الاستعمار الغربى (أى أن تتم حوسلة اليهود باسم الحضارة الغربية ومصالحها التى هى مركز الحلول) الوجدان السياسى الغربى. وهى صهيونية توطينية وظهر أهم مفكر صهيونى (إيرل أوف شافتسيرى السابع)، كما ظهر لورانس أوليفانت.

تهمة الدم:

هى اتهام اليهود بأنهم يقتلون صبياً مسيحياً فى عيد الفصح سخرية واستهزاءً من صلب المسيح... وتطورت التهمة وأصبح الاعتقاد أن اليهود يستعملون دماء ضحيتهم فى شعائرهم الدينية وفى أعيادهم وبخاصة فى عيد الفصح اليهودى، حيث أشيع أن خبز الفطير غير المخمر (ماتزوت) الذى يؤكل فيه، يعجن بهذه الدماء... ويقال إن اليهود يصفون دم ضحاياهم لزسباب طبية أو لاستخدامه فى علاج الجروح الناجمة عن عملية الختان، بل واستخدامه كمنشط جنسى(الموسوعة جـ٢، ص ٣٥٩). ومن كتاب «سر الدم» للحاخام نافيطوس اليهودى المستنصر، قرر الحاخام أن كل يهودى عليه واجب قتل مسيحى بالطريقة التى يقدر علهيا والأجر الأخر لطريقة استصفاء الدم، وفى يوم اليوريم يأكل الحاخامات أرغفة معجونة مثلثة الزوايا ممزوج عجينها بالدم المسيحى ويوزع عدداً منها على اليهود المتعلق هو بخدمتهم وكل واحد منهم يوزع على أصدقائه وعن هذا اليوم يكون النبى أرميا قد تنبأ قائلاً: «وفى يدك وجد دم نفوس الأنبياء (عدد ٣٤)، وكذلك حزقيال: «لأجل هذا قل لهم هكذا يقولون تأكلون الدم» (عدد ٢٥)، واستعمال الدم إما صرفاً بذاته أو ممزوجاً بالعجين أو من رماد كتان مشرب بالدم قبل يبوسته ويرسل هذا فى حقاق إلى كل البلاد أو مخلوطاً بدم الختان أو رش رماد الكتان على البيض المسلوق وفى

كتابة التعاويذ والرقى السحرية أو إضافته إلى زلال البيض للدهان (القرابين البشرية والذبائح التلمودية د. فتحى محمد الزغبى، ١٩٩٠ طنطا).

تهمة الدم فى دمشق عام ١٨٤٠:

وتعرف بجريمة دمشق الكبرى ووقعت فى مساء يوم الأربعاء ٥ فبراير ١٨٤٠ حيث تم قتل الأب فرانسوا أنطوان توما بعد عودته من زيارة طفل مريض بالجدرى مر على صديقه داود هرارى اليهودى الذى استدعاه إلى داره فلبى الدعوة، وفى الدار وجد شقيقى داود هرارى وعمه واثنين من حاخامات اليهود، فلما صار فى إحدى الغرف انقض عليه الجميع وقيدوه من قدميه ويديه ووضعوا منديلاً على فمه وبعد غروب الشمس استدعوا حلاقاً يهودياً اسمه سليمان وأمروه بذبح القسيس فتردد فقام داود هرارى بنفسه وتناول السكين ونحر الضحية ثم جاء أخوه هارون هرارى وأكمل عملية الذبح وجمعوا الدماء فى وعاء ونقلوه إلى قارورة كبيرة وسلم إلى الحاخام باشا يعقوب الغتابى، الذى تمت العملية بناء على أوامره لاستعماله فى عيد البوريم. وحينما طالت غيبة الأب توجه خادمه المسلم إبراهيم عمار للبحث عنه وسأل صديق الأب توما فادخلوه إلى منزل اليهودى ماهر فارحى وذبحوه وأخذوا دمه إلى الحاخام باشا وتثبت سجلات المحكمة الطريقة الدموية البشعة التى بها الذبح ودق العظام بيد الهاون، وأثارت هذه الجريمة الشرق والغرب، وقد تدخل عظماء اليهود فى فرنسا كراميو، وموليز مونتيفيورى لدى محمد على ومعهم القنصل الفرنسى واستطاعوا أن يقنعوا محمد على بالإفراج عن المسجونين فى هذه القضية وبالأمان للهاربين. (معين أحمد : الصهيونية والنازية، بيروت الطبعة الأولى ١٩٧١ ص ١٣٣، القرابين البشرية ص ٢٣٠)، وتدخل بالمرستون لدى محمد على، وتباينت هذه القضية وردود فعلها فرغم تسجيلات التحقيقات والاعترافات والأحكام أفرج عنهم، ولم يصدر محمد على عفواً صريحاً، ويراها البعض فى إطار الصراع الاستعمارى التبشيرى بين الدول الكبرى آنذاك وتوزعه بين حماية المسيحيين واليهود (الموسوعة جـ ٢، ص ٣٦١).

بوجروم (هجوم أو مذبحة) Pogromor Massocr:

وبوجروم كلمة روسية معناها تدمير أو هجوم أو فتك أو مذبحة، وعادة ما تكون هذه المذبحة منظمة لتدمير جماعة أو طبقة معينة. وقد دخلت الكلمة اللغات الأوربية بمنطوقها الروسى وضاق مجالها الدلالى بحيث أصبحت تشير أساساً إلى الهجوم على أعضاء الجماعة اليهودية. وتتجه الجماعات اليهودية باعتبار أنها أمر فريد لهم وحدهم وأنها تعبر عن كره أزلى لليهود ونتيجة حتمية لوضع أعضاء الجماعات اليهودية خارج فلسطين... وتحول الصهيونية هذه الهجمات إلى مصدر أساس للهوية اليهودية والوعى اليهودى (الموسوعة جـ٢، ص ٣٦٢).

أوديسا:

تعتبر أوديسا مركزاً لأكبر تجمع يهودى فى الإمبراطورية الروسية بعد وارسو عاصمة بولندا التابعة لروسيا آنذاك وقد أسست مكان مدينة تركية قديمة عام ١٧٨٩ ولم يكن بها آنذاك سوى ستة من اليهود وفى عام ١٨٤٠ بلغوا حوالى ٣٤,٤٪ من سكانها، وأصبحت المدينة مركزاً لدعاة حركة التنوير اليهودية وأسست فيها أول مدرسة عبرية على النمط الغربى وكذلك جمعية نشر الثقافة بين يهود روسيا، وصدرت نداءات ليلينبولم وينسكر فيها وأصبحت مركز لإحياء صهيون وجمعية بنى موسى التيأنشأها أداو هعام وارتبطت بأسماء كثير من الزعامات الصهيونية مثل أوسيشلكين وديزنجوف وبيالك وجايوتنسكى.

وكان التحديث قد تعثر بها بعد وقوع هجوم (بوجروم) على اليهود بسبب صراعهم مع جماعة وظيفية أخرى وهى الجماعة اليونانية، (الموسوعة جـ٤، ص ٣٦٩).

حادثة دريفوس:

تعرف بواقعة دريفوس Dreyfus Affairs زيادة على ماورد في الأصل فبعد إدانته من محكمة النقض فى صيف ١٨٩٩ حكم عليه بالحبس عشر سنوات وذلك تحت ضغط بعض الشخصيات من ذوى النفوذ فى الجيش، وكان قد قضى خمساً من السنوات منها في المنفى وبعد عدة أيام أمر الرئيس الفرنسى إميل موليه بالعفو عنه وقبل دريفوس قرار

العفو. وبضغط من القوى العلمانية والثورية أعيدت محاكمته وصدر الحكم بتبرئته عام ١٩٠٣ وأعيدت له حقوقه السابقة وعين في هيئة الأركان بوظيفة ميجور ومنح نوط الشرف، وعين أثناء الحرب العالمية الأولى قائداً لإحدى قطاعات باريس برتبة كولونيل ثم اعتزل الحياة وعاش في منزله بقية حياته... (الموسوعة جـ ٦، ص ٣٦٨).

معاداة السامية:

أول من استخدمه الصحفي الألماني اليهودي الأصل ولهام مار (١٨١٨ - ١٩٠٤) عام ١٨٧٩ في كتابه «انتصار اليهودية على الألمانية من منظور غير ديني» والعبارة بالمعنى الحرفي تعني العداء للساميين.. وفي اللغات الأوبية يقرن بين الساميين واليهود ويوحد بينهم، وقد استخدم الدكتور عبد الوهاب المسيري مصطلح معاداة اليهود للتعبير عنه، لأنه أكثر دقة ودلالة. ومعاداة السامية هي العداء لليهود بوصفهم عرقاً، وبالتالي فهو عداء علماني لا ديني، ظهر بعد اعتاق اليهود وتزايد معدلات اندماجهم، وهذا النوع من العداء يستند إلى نظريات ذات ديباجات ومسوغات علمية من الأعراق عامة، وعما يُقال له «العرق اليهودي» وعن السلبيات الافتراضية (الاقتصادية والثقافية) الثابتة والحتمية لليهود اللصيقة بعرقهم، وتصحب مثل هذه الدراسات إحصاءات عن دور اليهود في التجارة والربا مثلاً، وفي تجارة الرقيق عامة والرقيق الأبيض على وجه الخصوص (الموسوعة جـ ٢، ص ٣٣٣) وبعد سيطرة الخطاب الصهيوني على النشاط الإعلامي الغربي... لم يعد هناك تمييز بين معاداة اليهود على أساس عرقي وبين معاداة اليهود على أساس ديني، وأصبحت معاداة الصهيونية بل والدولة الصهيونية هي الأخرى تصنف باعتبارها من ضروب معاداة اليهود (الموسوعة جـ ٢، ص ٣٣٤) وأصبحت معاداة اليهود أداة للإرهاب والقمع الفكريين كما حدث مع جارودي مثلاً.

وقد ظهر مصطلح معاداة السامية الجديدة في المعجم الصهيوني ويشير إلى عدة مدلولات من أهمها ما يلي:

١ - يزعم الصهاينة أن أشكال جديدة من معاداة السامية، هي في حقيقة الأمر إعادة إنتاج للأشكال القديمة، ويضربون مثلاً لهذا بالعداء للدولة الصهيونية، فحينما ترتكب

الدولة الصهيونية مذبحة مثل قانا فتدفعها معظم دول العالم. وحينما تبنى مستوطنة جديدة فى القدس أو على حدودها وتصدر هيئة الأمم المتحدة قراراً بإدانتها، فإن هذا يكون تعبيراً عن النمط القديم، عداء الأغيار الأزلى لليهود.

٢ - يستخدم المصطلح أيضاً للإشارة إلى ما يسميه الصهيانة، «معاداة السامية الإسلامية، أى عداء المسلمين لليهود، وهم يرون أن هذا النوع من العنصرية أخذ فى التزايد حيث ينظر المسلمون إلى اليهود باعتبارهم أعداء الله وأن إسرائيل تعبير عن المؤامرة اليهودية الأزلية. (الموسوعة جـ ٢، ص ٣٥٥).

الشخصية اليهودية:

مصطلح يفترض أن ثمة شخصية قومية يهودية ذات سمات مميزة.. وهو مالا يتفق كثيراً مع الحقيقة التاريخية المتعينة واستخدامه يشكل تبنياً غير واع للنماذج التفسيرية الاختزالية.. التى تفترض وجود طبيعة يهودية ثابتة وعبقرية يهودية.. فالصهاينة ينسبون إلى الشخصية اليهودية المستقلة سمات إيجابية، فاليهودى يتسم بالإبداع والمقدرة على الانسلاخ من مجتمع الأغيار... ويؤسسون نظريتهم فى القومية اليهودية والشعب اليهودى انطلاقاً من تأكيدهذه الهوية (الموسوعة جـ، ص ١٦٥).

نطاق الإقامة/منطقة الاستيطان اليهودية فى روسيا القيصرية:

لم يكن يسمح لمعظم أعضاء الجماعة اليهودية بالسكنى أو الاستقرار خارج المدن الواقعة فيها منطقة الاستيطان.. وكان أعضاء الجماعة اليهودية يشكلون ١١,٦٪ من سكان منطقة الاستيطان عام ١٨٩٧ وقد ضمت منطقة الاستيطان منطقة كبيرة امتدت من ليتوانيا وبحر البلطيق فى الشمال إلى البحر الأسود فى الجنوب وبولندا وبيساربيا فيا لغرب إلى روسيا البيضاء وأوكرانيا فى الشرق وفى عام ١٨٨١ صدرت قوانين مايو - المشار إليها سابقاً - والتى منعت إنشاء أى مستوطنات خارج مدن الاستيطان، والغيت المنطقة نهائياً مع الثورة البلشفية، (الموسوعة جـ ٤، ص ٣٦٦-٣٦٨).

تيودور هرتزل

قائد ومؤسس أهم الحركات الصهيونية وأخطرها ووضع نهاية للصهيونية التسللية وجهودها الطفولية وقد خرجت كل الاتجاهات الصهيونية من تحت عباءته، ولعل أهم تصريحاته ما ورد في مذكراته: لو أردت أن ألخص أعمال مؤتمر بازل في كلمة واحدة - وهذا لن أقدم الجهر به - لقلت في مدينة بادل أوجدت الدولة اليهودية، ولو جهرت بذلك اليوم، لقابلني العالم بالسخرية، وفي غضون خمس سنوات، ربما، وفي غضون خمسين عاماً، بالتأكيد سيراها المع إن الدولة قد تجسدت في إرادة الشعب لإقامتها. ولعل تصريحه هذا هو الذي أشعل ارتباط البروتوكولات بحركته الصهيونية.

وقد ولد عام ١٨٦٠ لأب تاجر ثرى وكان يحمل ثلاثة أسماء أهمها اسمه الألماني «تيودور» وثانيها اسمه العبرى «بنيامين زئيف، وثالثها اسمه المجرى «تيفا دار» فهو من أسرة مجرية النسب، احتفظت بولائها لألمانيا ولذا نزحت الأسرة إلى فيينا عام ١٨٧٨ وحصل على دكتوراه في القانون الروماني عام ١٨٨٤ وعمل بالمحاماة لمدة عام وفضل أن يكرس حياته للأدب.. ونشر مسرحيته «الجيتو الجديد»عام ١٨٨٥ ولم تلق نجاحاً كبيراً وتزوج من أسرة ثرية ثم عمل بالصحافة عام ١٨٩١ وتأثر بتعاليم شبتاى تسفى الماشيح الدجال، وكان لا يجيد العبرية وتأثر بتعاليم الماشيح المخلص واستخدم كلمة الخروج التوراتية ليشير إلى مشروعه الاستيطاني واختمرت أفكار الدولة اليهودية في عام ١٨٩٥ فيه ونشرها عام ١٨٩٦ بعنوان «دولة اليهود محاولة لحل عصرى للمسألة اليهودية». وصف كتابه هذا بأنه هو الحل الوحيد الممكن، وانقطع نسله بالخلل النفسى والإدمان والانتحار.

ويمكن القول بأن الصياغة الهرتزلية المراوغة هى محاولة أولية لتهويد الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة حتى تستطيع المادة البشرية المستهدفة استيعابها، أو هى على الأقل محاولة لفتح الصيغة الأساسية الشاملة المصمتة حتى يمكن استيعاب الديباجات اليهودية ومن ثم يمكن تهويدها. وقد ساعدته الصياغة المراوغة على وضع إطار تعاقدى بين يهود الغرب والعالم الغربى... وإذا كان اليهود شعباً عضوياً منبوذاً، فإن أوربا منذ عصر النهضة اكتشفت نفع اليهود وإمكانية حوسلتهم لصالح الحضارة الغربية، وهذا ما يفعله

هرتزل فى دولة اليهود، وقدأكد هرتزل للدول الغربية أن نقل الشعب العضوى المنبوذ هو الحل المطروح، وأن الغرب سيجنى من وراء ذلك فوائد كثيرة منها تخفيف حدة السكان، وتخليص الغرب من أحد العناصر الثورية، وستتحول المادة البشرية إلى عملاء للدول الغربية ويمكن حل المسألة الشرقية والمسألة اليهودية فى آن واحد ويكون الحل بإقامة دولة وظيفية فى فلسطين وكان منطقه فى كتابه المشار إليه: أن اليهود لن يندمجوا فى المجتمعات الأوربية والذى سوف يندمج هم الأغنياء وهؤلاء الأغنياء يدفعون تكلفة هجرة الفقراء إلى الشرق فى فلسطين، وتوجه إلى السلطان العثمانى بمحاولة عودة اليهود إلى أرض الأجداد بدعوة تكون لها قوة القانون وأغراه بالذهب فاليهود هم نهر من الذهب والتقدم والحيوية جاهز لخدمة تركيا ولم يكن السلطان مستعداً لذلك مطلقاً وشهد مؤتمر بازل ١٨٩٧ أربع مقررات رئيسية:

١ - العمل وفق خطة محددة على استعمار فلسطين.

٢ - إنشاء مؤسسات يهودية تمثل وتربط وتجمع جهود الشعب اليهودى من أجل إنشاء دولته.

٣ - تحريك الروح اليهودية وإيقاظ العاطفة الوطنية اليهودية.

٤ - العمل على تحقيق أهداف الصهيونية بما فى ذلك إحياء اللغة العبرية والآداب العبرية والثقافة العبرية.

وكان هرتزل مؤمناً بالمقولة الشهيرة: أرضاً بلا شعب لشعب بلا أرض ومردداً لها. وكان ميزة هيرتزل على كل الآخرين فى زمانه أنه استطاع استيعاب مجمل الظروف الاستراتيجية، ورأى أن اللحظة مناسبة لكى يتخلى العمل اليهودى عن سواتره بما فى ذلك التبشير والهجرة الخيرية وأن يدخل بقوة إلى عالم الحقائق السياسية. وتوفى عام ١٩٠٤ وقد قرر المؤتمر الصهيونى السادس إنشاء الشركة البريطانية الفلسطينية فى يافا كفرع عملى لصندوق الائتمان اليهودى للاستعمار. وبدأ الحلم يتحقق (محمد حسنين هكيل، المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، القاهرة، الطبعة السادسة جـ ١ ص ٦٧، الموسوعة جـ ٦، ص ٩٩، ص ٢٢٧ - ٢٤١، الصهيونية والنازية ص ٧٥ - ٧٨).

الروح العدائية فى كتاب التوراة والتلمود:

لعل هذه الروح تتولد من بعض النصوص الدينية التوراتية تجاه الأغيار ومنها: فليمت كل بكر من بكر الجالس على كرسيه إلى بكر الجارية خلف الرحى، ويكون صراخ عظيم، ومنها فاعلم اليوم أن الرب إلهك هو العابر أمامك ناراً آكله هو يبيدهم ويذلهم أمامك فتطردهم وتهلكهم، ومنها: هى ذبيحة فصح للرب ويكون صراخ عظيم لم يكن مثله ولا يكون مثله أيضاً، ها أنا أضرب بالعصا التى فى يدى على الماء الذى فى النهر فيتحول دماء، ويموت السمك الذى فى النهر وينتن.. إلى آخره، وتزداد الروح العدائية فى التلمود وخاصة أنه يدعو إلى الاحتكام إلى البشر دون الإله، إلى الحاخامات، ومن احتقر أقوال الحاخامات استحق الموت أكثر ممن احتقر أقوال التوراة لأن الرب يستشير الحاخامات على الأرض عندما توجد مسألة معضلة. وقد جاء فيه أن من يجادل حاخامه فقد أخطأ وكأنه يجادل العزة الإلهية. فالتلمود يقول اقتل الصالح من غير الإسرائيليين ومحرم على اليهودى أن ينجى أحداً من باقى الأمم من هلاك، أو يخرجه من حفرة يقع فيها لأنه بذلك يكون قد حفظ حياة أحد الوثنيين وأنه يلزم قتل الأجنبى لأنه من المحتمل أن يكون من نسل السبعة شعوب، وعلى اليهودى أن يقتل كل من تمكن من قتله فإذا لم يفعل ذلك يخالف الشرع. والخارجون عن دين اليهود خنازير بخسة، وكالكلاب، بل الكلب أفضل، وليس من الشريعة أن يشفق اليهودى على أعدائه ويرحمهم، ويحق لليهودى أن يغش اكفار، والنفاق جائز، والسرقة من غير اليهودى لا تعتبر سرقة وإنما استرداد للمال اليهودى ولأن اليهود يساوون أنفسهم مع العزة الإلهية فالدنيا وما فيها ملك لهم ويحق لهم التسلط على كل شيء فيها، ويحق له اغتصاب النساء غير المؤمنات، وعليه أن يؤدى عشرين يميناً كاذبة ولا يعرض إخوانه اليهود لضرر ما وعليه أن يعامل الأغيار كحيوانات دنيئة (التوراة، وإسرائيل والتلمود دراسة تحليلية، إبراهيم خليل أحمد، عمان ١٩٦٧، ص ٥٦ - ٧٧).

الصندوق القومى اليهودى:

ترجع فكرة إنشائه إلى المؤتمر الصهيونى الأول عام ١٨٩٧ حين اقترح عالم الرياضيات الحاخام اليهودى الليتوانى هيرمان شابيرا إنشاء صندوق قومى يهودى قائم

على التبرع الطوعى بهدف شراء الأرض فى فلسطين (الموسوعة جـ ٦، ص ٣٨٠)، وقد وافق المؤتمر الصهيونى الخامس المنعقد فى ديسمبر ١٩٠١ فى بازل على الاقتراح الذى تقدم به جوهان كريمنكس لتأسيس الصندوق القومى اليهودى بوصفه مصرفاً للشعب اليهوى (وديعة له وللأبد) يمكن استخدامه على نطاق واسع لشراء الأراضى فى فلسطين وسوريا، وكان قد تم وضع مخططه فى المؤتمر الرابع المنعقد عام ١٩٠٠ بلندن (الموسوعة جـ ٦، ص ٩٩). وقام ا لصندوق بشراء أول مساحة من الأراضى له فى فلسطين عام ١٩٠٥ وبدأ أولى تجاربه فى التشجير عام ١٩٠٨ بزراعة ما سمى «غابة هرتزل» وتم تسجيله فى لندن كشركة بريطانية باسم «الصندوق القومى اليهودى المحدود» عام ١٩٠٧. وقرر مؤتمر لندن الاستثنائى عام ١٩٢٠ أن يتفرع الصندوق لشراء الأراضى وأن تخصص له نسبة ٢٠٪ من حصيلة الصندوق التأسيسى لهذا الغرض والذى تقرر إنشائه فى ذات المؤتمر تحت اسم الصندوق التأسيسى اليهودى ليكون أداة لتحويل عمليات الاستيطان فى فلسطين، وانتقل إلى القدس عام ١٩٢٢. وفى عام ١٩٣٨ أنشأ شركة هيمنوتاه لزيادة شراء الأراضى. وقرر المؤتمر التاسع عشر المنعقد فى سويسرا عام ١٩٣٥ تنمية نشاطاته وامتلك الصندوق ٣,٥٥٪ من إجمالى مساحة فلسطين فى مايو ١٩٤٨ وانتقلت ملكية أغلب الأراضى الفلسطينية التى تم إفراغها من سكانها ومالكيها العرب بعد إقامة الدولة الصهيونية، وفى عام ١٩٥٢ أصبح يمتلك ١٧٪ من إجمالى مساحة فلسطين، ووافق الكنيست عام ١٩٥٣ على تسجيله كشركة مساهمة وقدرت ميزانيته عام ١٩٨٠ - ١٩٨١ بمبلغ ٤٧٤ مليون دولار. وتوسع نشاطه إلى مجال الاستصلاح ومساعدة المستوطنات وبنائها وبناء السدود والتشجير.

مكتب فلسطين:

قرر المؤتمر الصهيونى الثامن المنعقد فى لاهاى عام ١٩٠٧ تأسيس مكتب فلسطين ليتولى شراء الأراضى ومساعدة المهاجرين اليهود ودعم الاستيطان الزراعى (الموسوعة جـ ٦، ص ١٠٠) وفى مؤتمر فيينا عام ١٩١٣ أشار قرار المؤتمر الصهيونى إلى أن كل يهودى يجب عليه أن يضع مسألة الاستيطان فى فلسطين كجزء من برنامج حياته وسعيه لتحقيق مثاليته وكماله الأخلاقى. تدعيماً لكل المؤسسات الصهيونية الاستيطانية.

الموسوعة اليهودية:

يعد تاريخ أول موسوعة يهودية متخصصة فى تراث أعضاء الجماعات اليهودية والعقيدة اليهودية إلى منتصف القرن الـ ١٨ بإيطاليا، فى مدينة فيرارا عام ١٧٥٠ حيث صدر أول جزء من موسوعة يهودية لطبيب يهودى يدعى إسحق بن صموئيل لامبرونتى وانتهى نشرها عام ١٨٨٨ فى ثلاثة عشر جزءاً وهى تعالج تراث اليهود وتاريخهم ثم ظهرت موسوعة ألمانية فى أواخر القرن الـ ١٩ لكبير حاخامات ألمانيا جيكوب هامبرجر ثم ظهرت موسوعات باللغة الإنجليزية فى أوائل القرن الحالى (١٩٠١ - ١٩٠٦) وظهرت الموسوعة العالمية اليهودية وحررها إسحق لاندمان ونشرت فى نيويورك بين عامى ١٩٣٩ - ١٩٤٣ . وأول موسوعة فى الصهيونية وإسرائيل عام ١٩٧١ بعنوان موسوعة الصهيونية وإسرائيل. وأخيراً ظهرت الموسوعة اليهودية (اسيكلوبيديا جودابكا) وهى أكبر عمل موسوعى حتى الآن وتعنى بتراث الجماعة اليهودية فى العالم والصهيونية وإسرائيل وتقع فى ١٦ جزء. وتصدر سنوياً كتاباً يعمل على تزويد القارئ بالمعلومات الحديثة. (الموسوعة جـ ١، ص ٣١).

الماسونية الفرنسية:

الماسونية من الكلمة الإنجليزية «ميسون» التى تكتب خطأ فى العربية «ماسون» وتاريخها ينبىء عن أصالتها اليهودية فهم يزعمون أن الملك سليمان كان الأستاذ الأعظم فى محفل القدس، وهى تعنى البناء وأضيف إليها كلمة «حر» لتعنى البناء الحر، وتعرف بأنها مجموعة من التعاليم الأخلاقية والمنظمات الأخوية السرية التى تمارس هذه التعاليم ومن رموزها، الفرجار والزاوية وهى الرمز العام، وعلامة الأستاذ الفرجار والقوس وصورة العين المشعة داخل مثلث، وعلامة المنبه الأول ميزان البناء وعلامة المنبه الأعظم خيط الشاغول، وعلامة المهندس الأعظم الفرجار، والمقص والرافعة والنجمة الخماسية والأرقام ٣، ٥، ٧، وهى رموز تساعد على اكتشاف النور، ولها نفوذ سياسى واقتصادى وتنظيمات مترابطان تمام الارتباط، وهى تتركز فى بلاد غربية تحكمها حكومات مركزية قوية. ومحافلها تمارس ضغوطاً فى العالم الثالث نظراً لضعف جهاز الدولة المركزى. وهناك تحالفات بين عصابات المافيا والمحافل الماسونية. وقد حلت المحافل الماسونية مشكلة

اليهود الذين اغتربوا عن يهوديتهم وكان ظهور الحركة الماسونية علامة على أن مجتمع الأغيار قد بدأ يفتح ذراعيه لليهود، وأصبحت المحافل الماسونية الأرضية الروحية والفعلية التي يمكن أن يلتقي أعضاء الجماعات اليهودية فيها مع قطاعات مجتمع الأغلبية وقد برز اليهود في المحافل الماسونية.

وفي فرنسا أصبح السياسي الفرنسي اليهودي أدولف كريميه (١٨٦٩) البناء الأعظم للمحفل الأكبر على الطريقة الاسكتلندية وانتشرت المحافل الماسونية الفرنسية على أيدي اليهود الألمان، ألمانيا ذاتها وقد انضم أعضاء الارستقراطية إلى المحافل الماسونية مثل نابليون وأفراد عائلته، وأعضاء الطبقة الوسطى الذين يطمحون في الحراك الاجتماعي ومن أعضائها فولتير ومونتسيكو وعشية الثورة الفرنسية كان يوجد في فرنسا نحو ٥٠٠ محفل ماسوني.

ولعل أهم النقاط التي أدت إلى انخراط اليهود في الحركة الماسونية بأعداد كبيرة واشتركوا في محافلها بشكل فعال، تتمثل في الارتباط الاقتصادي المالي المادي الذي يربط أعضاء المحافل الماسونية في أنظمة التجارة والمال والبنوك وهذا هو المجال الذي تنتظم فيه التركيبة اليهودية كتركيبة ربوية مالية تجعل الولاء للمصالح المالية دون الولاء للوطن الذين يعيشون على أرضه، وتلك نقطة التقاء أخرى مع الماسونية التي تتجاوز الولاءات القومية والدينية وقد ازدادت المحافل الماسونية بعد قيام الدولة الصهيونية ووصل عددها إلى ٦٤ محفل ماسوني عام ١٩٧٠ بداخلها وتستهدف تطبيع العلاقات وتصنيع السمات المميزة لسكان الأرض الأصليين.

فيدور ميخائيلوفيتش ديستويفسكي (١٨٢١ ـ ١٨٨١):

روائي روسي وهو من أهم الروائيين العالميين على الإطلاق، وهناك إشارات عديدة لأعضاء الجماعات اليهودية في كتابات ديستويفسكي غير الروائية. كما أن هناك إشارات هنا وهناك في أدبه الروائي، حيث توجد شخصيات يهودية في بعض رواياته، وخصوصاً في بيت الموتى (١٨٦١) وهي رواية عن تجربة سجين (غير سياسي) في معتقل في سيبريا، ورد فيها وصف لسجين يهودي يقيم كل شعائر دينه بحرص شديد... ولا

يختلف التناول الروائي لديستويفسكي لليهود عما جاء في يومياته ـ المشار إليها في هذا الكتاب ـ (الموسوعة جـ ٢، ص ٣٨٢).

تورجنيف:

كتب تورجنيف قصة قصيرة بعنوان اليهودي (١٨٤٧) تعبر بشكل مباشر عن هذا الاشمئزاز من اليهود فبطل القصة يعدم بعد اتهامه بالجاسوسية. وهذا الموقف لا يختلف كثيراً عن موقف جوجول (١٨٠٩ ـ ١٨٥٢) في تراس بولبا التي تقع أحداثها إبان حرب البولنديين والقوازق وتشمل الرواية على وصف اليهودي صاحب حانة يتسم سلوكه بأنه مرتزق خائن يُشك في أنه جاسوس للبولنديين (وقد ظهر الموضوع نفسه، أي اليهودي كجاسوس، في إحدى قصص الكاتب اليهودي الروسي السوفييتي إيزاك بابل بعنوان بريستشكو في مجموعة الفرسان الحمر، (الموسوعة جـ ٢، ص ٣٨٤). والجاسوسية مسألة طبيعية ملازمة للحركة الصهيونية إذ يعتبرون يهود العالم أعضاء في الشعب اليهودي الذي يجب أن يكون له خصوصية عن الآخرين، ولذا يجب أن يعمل كل يهودي في العالم كمواطنين للدولة الصهيونية، ولذا يشترك معظم الصهاينة في أنشطة مخابراتية من أجل الحفاظ على الدولة الصهيونية. ومن الأمثلة الشهيرة على ذلك استخدام نابليون بونابرت أعضاء الجماعات في روسيا كطابور خامس خلال حربه مع الروس.

بنيامين دزرائيلي (١٨٠٤ ـ ١٨٨١):

رئيس وزراء بريطانيا، لعب دوراً هاماً في رسم سياستها الخارجية والاستعمارية وترسيخ مصالحها في الشرق الأوسط، وهو الدور الذي تحدد على أساسه فيما بعد مصير مصر وفلسطين ولد لعائلة يهودية ذات أصول إيطالية سفاردية (مارانية) عمد ونشىء تنشئة مسيحية ودخل مجال السياسة عضواً في البرلمان عن حزب المحافظين ١٨٣٧، وفي عام ١٨٥٢، أصبح رئيساً لمجلس العموم، وفي عام ١٨٦٨ أصبح رئيساً للوزراء وهو منصب تقلده مرة أخرى في الفترة ما بين ١٨٧٤، ١٨٨٠. واستعان بالبارون روتشيلد لشراء الحصة المصرية في شركة قناة السويس بمبلغ أربعة ملايين ذهباً ونقداً وعداً، وقال روتشيلد لدرزرائيلي في صباح اليوم التالي مباشرة لطلب دزرائيلي توفير المال اللازم

للشـراء: الذهب جاهز لإتمام الصـفـقـة بأسـرع ما يمكن. وقـد غـيـرت هذه الصـفـقـة تاريخ المنطقة وتلاحق الاستيطان والاحتلال بعدها.

وحصل للجماعات اليهودية في دول البلقان على بعض الحقوق والامتيازات في مؤتمر برلين عام ١٨٧٨، وكان يتباهى بأصله اليهودي، ودفاعه عن اعتاق اليهود أمام البرلمان البريطاني كان ينبع من اعتقاده بأن اليهود يمثلون جنساً أكثر سمواً من الأجناس الأخرى في كثير من الصفات، وكان يرى اليهود شعباً عضوياً متماسكاً، له شخصيته المستقلة وتفوقه (التجاري في العادة) وارتباطه الأزلي بفلسطين. (المفاوضات السرية ص ٦١، الموسوعة جـ ٢، ص ٢٨).

عائلة روتشيلد

عائلة من رجال المال ويهود البلاط ويعود أصلها إلى فرانكفورت في القرن الـ ١٦ والاسم روتشيلد منقول عن عبارة ألمانية تعني الدرع الأحمر. والدرع هنا يشير إلى الدرع الذي كان على واجهة منزل مؤسس العائلة إسحق أكانان، وحققت العائلة مكانة بارزة في عالم المال والبنوك في أوربا وتاريخ تطور العائلة هو تاريخ تطور يهود البلاط وتحولهم إلى مجرد أعضاء في الرأسمالية الغربية ثم التشكيل الإمبريالي الغربي ودعم الأسرة للمشروع الصهيوني.

واستطاعت عائلة روتشيلد تدبير ما يقرب من ١٠٠ مليون جنيه استرليني للحكومات الأوربية في الحرب النابليونية لبريطانيا وحلفائها. وأكسبهم ذلك مكانة مالية بارزة وكان ليونيل نيثان روتشيلد أول عضو يهودي في البرلمان الإنجليزي ومول عمليات مالية ضخمة منها حرب القرم ١٦ مليون جنيه وشرا دزرائيلي نصيب مصر في قناة السويس وساهم بيت روتشيلد في تضخيم المديونية المالية لمصر مما جر عليها الامتيازات وبالتالي الاحتلال. وكان ليونيل روتشيلد دوراً هاماً ومؤثراً وبارزاً في إصدار وعد بلفور وتنفيذه. وفي الأدبيات الصهيونية يعد اسم روتشيلد رمزاً للثرى اليهودي الذي يجزل العطاء لإخوانه في الدين أما في أدبيات العداء لليهود فهو مثل للجشع والطمع وامتصاص الدماء والتآمر العالمي من جانب الصيارفة اليهود (الموسوعة حـ ٣،

١٢٥-١٢٨).

عبادة الشيطان:

اتبعت القوى الصهيونية الدعوة إلى مجموعة من النزعات التدميرية داخل أوساط الدول المختلفة لتدميرها والسيطرة عليها وروجت لها بحجة نزعة الإنسان إلى التحرر - وهو هدف بروتوكولاتي - وروجت لها التنظيمات السرية التي تتبنى هذه السلوكيات لتدمير المجتمعات، ولعل أبرزها الآن جماعات عبادة الشيطان، التي يتجلى فيها الشيطان على حد زعمهم بعد ممارسة طقوس الفجور وسفك دماء الضحية من قلب النجمة السداسية وهي تشتعل بنور مقدس بأضواء المينوراة (الشمعدانات) المقدسة، ولهذه العبادة طقوس في الديانة اليهودية تتجلى في قرابين إرضاء الشيطان عزازيل في الهيكل حتى يظل مشغولاً عن اليهود، وقرابينه مساوية لقرابين الرب «لاويين ١٦ / ٨» وطبقاً لذلك يقدم كبير الكهنة في يوم الغفران كبشين أحدهما ليهوه والآخر لعزازيل والأخير يطلق حاملاً لذنوب جماعة يسرائيل، ثم يذبح حتى لا يعود حاملاً لها، وتتناول جماعات عبادة الشيطان هذه الطقوس وتمارسها على ضحايا بشرية وهي تحقق الانتقام من الأغيار، وفي نفس الوقت شغل الشباب عن القضايا الوطنية والمقاومة والتفكير العلمي. ويمارس أعضاء هذه الجماعات طقوسهم تحت الدعوة لحرية الإنسان والتحرر من القيود.

ثورة ١٩١٧ واليهود:

كان اليهود متواجدين في صفوف كل أوساط المجتمع الروسي، ففي صفوف الثوريين كان يوجد ترونسكي، وفي صفوف الرأسماليين وجد جوتزبرج، وفي الرجعيين وجد ستاهل، وفي المسيحيين وجد شتسوف، بالإضافة إلى وجود ملحوظ في كل قطاعات المجتمع العلماني، وقد شكلت لهم هذا التواجد المرونة الكافية في التعامل مع مجريات ثورة ١٩١٧ البلشفية وعندما مال الميزان ناحية الثورة تطور التشابك معها والتحم واستطاعت الجماعات اليهودية بعد الثورة أن تجعل الحكومة السوفييتية تتبنى وجهات نظر الصهيونية في فلسطين. وتقلد اليهود في عهد الثورة البلشفية أرفع مناصب الدولة فكان ياكوف سوفورديلوف صديق لينين الحميم أول رئيس للجمهوريةالروسية كما تبوأ

ديمشفي منصب رئيس الوزراء في الاتحاد السوفييتي ونشرت مجلة جويش ابنيبون الأمريكية مقالاً في ديسمبر ١٩٣٣ نوهت فيه بما حصل عليه اليهود في روسيا بعد قيام ثورة ١٩١٧ وكانت في أيديهم ٦١٪ من المناصب الرفيعة، ونوهت مجلة جويش كرونيكل في أبريل ١٩١٩ باعتماد الثورة على المبادئ الصهيونية العليا وجهود طائفة غير يسيرة من قادتها الصهيونيين، وكذلك مجلة هيرو الأمريكية في ١٠ ديسمبر ١٩٢٠ حيث صرحت أن الثورة البلشفية وليدة الفكر اليهودي. ولعل ذلك يرجع إلى التواجد الملحوظ لليهود في رأس البلاط الروسي مثل زينوفييف وكامينيف وليتفيتوف وعلى رأسهم تروتسكي مهندس الثورة وقائد جيشها الأحمر، وقد لعبت هذه القيادات دوراً في حسم الصراع على السلطة بداخل الثورة فتحالف كامينيف وزينوفييف اليهودي مع ستالين ضد اليهودي تروتسكي ونفيه ثم تحالفا معاً ضد ستالين فقبض عليهما وأعدمهما بتهمة التآمر ضد الثورة. ومن الجدير بالذكر أنه بعد اندلاع الثورة في ١٩١٧ عقد أكبر المؤتمرات الصهيونية آنذاك ووعى فيها إلى إنشاء جيش من اليهود الروس لاحتلال فلسطين عن طريق القوقاز وأعلن اليهود فيه تأييد أفكار جابوتنسكي حول التعاون مع بريطانيا من أجل تشكيل الفيلق اليهودي ثم أقاموا في ربيع ١٩١٨ أسبوعاً لفلسطين لترغيب الاستيلاء عليها. ولقد حاولت الحكومة البلشفية في روسيا أن توفر موطناً لهم وأصدرت قراراً في ٢٨ مايو ١٩٢٣ لإنشاء دولة مستقلة على الحدود المنغولية داخل اتحاد الجمهوريات السوفييتية أطلق عليها بيروبيجان لكنهم لم يرحبوا بهذا القرار وتزعم مقاطعته لفيف من أقطاب اليهود أمثال وايزمان وبن جوروين وموشى شاريت وجولدا مائير من زعماء رابطة بوند للعمال اليهود الروس والمناهضة للحركة العمالية الروسية وكان الممولون للثورة البلشفية من اليهود أمثال ماكس راوبرج وشقيقه بول وكراشن وفيرزنبرج. وكتب الإسرائيلي كوهين أنه يمكن القول بلا مبالغة أن الثورة الروسية الكبرى كانت من عمل اليهود.

وعلى الرغم من الحقوق والحريات التي ظهر بها اليهود في الدولة البلشفية والحماية القانونية الصارمة التي أضفتها عليهم واعتبار معاداة السامية جريمة ضد الثورة ذاتها وتوليهم المناصب الرفيعة. فإنه لوحظ بعد استتباب الدولة أن ٥٠٪ من الجرائم المالية

ارتكبها أعضاء الجماعة اليهودية فى حين أن نسبتهم من عدد السكا لا تزيد عن ٢٪ وفي الحرب العالمية الثانية كان القادة الصهاينة يقومون جيداً بدور الوسيط ودعم بن جوريون وشاريت عرض إيخمان النازى بمبادلة مليون يهودى بعشرة آلاف قافلة «كميون» ستخدم حصراً فى الجبهة الوسية وأرسلا نداءً شخصياً لروزفلت حتى لا يسمح بإهمال هذه الفرصة لإنقاذ يهود أوربا ويتسائل جارودى فى هذ ا الموضوع ـ ما الذى عسانا أن نقوله فى هؤلاء الذين عرضوا على هتلر بحكم أنانيتهم الجماعية معدات استراتيجية مزينة بالوعد إنها لن تستخدم إلا على الجبهة الروسية!!

الهلوكوست Extermination Holocaust:

كلمة يونانية تعنى «حرق القربان بالكامل» وهى بالعبرية «شواه» وتترجم إلى العربية أحياناً بكلمة المحرقة وتستخدم هلوكوست فى العصر الحديث عادة بالإشارة إلى إبادة اليهود، بمعنى تصفيتهم جسدياً، على يد النازيين.. وقد استفادت آلة الدعاية النازية من اشتراك الزعماء والكُتاب اليهود فى حملة الإبادة ضد ألمانيا، وصرح فلاديمير جابوتنسكى عام ١٩٣٤ بأن مصلحة اليهود تتطلب الإبادة النهائية لألمانيا، فالشعب الألماني بأسره يشكل تهديداً لنا، وكتب الكاتب الأمريكى اليهودى تيودور كاوفمان كتاباً بعنوان «لابد من إبادة ألمانيا» وردد فى هذا الكتاب: «أن كل الألمان مهما كان توجههم السياسى (حتى ولو كانوا معادين للنازية) أو شيوعيين، أو حتى محبين لليهود) لا يستحقون الحياة (الموسوعة جـ ٢، ص ٣٩٧، ٤٠٦).

وتحدث ناحوم جولدمان عن اليهود كعنصر هدام فى كل المجتمعات لأنهم غرباء وتحدث جيكوب كلاتسكين عن ازدواج الولاء عند اليهود، وتحدث حاييم وايزمان عن اليهود باعتبارهم عنصراً فائضاً يقف فى حق الأمة الألمانية، وأشاعت هذه الدعاية صورة سلبية للغاية عن أعضاء الجماعة اليهودية وعن عدم إمكان دمجهم فى الشعب العضوى الألمانى، وفى هذا المناخ ظهر هتلر وظهرت النازية، وأثناء محاكمات نورمبرج، أصر الزعماء النازيون، الواحد تلو الآخر، على أنهم تعلموا ما تعلموه عن المسألة اليهودية من أدبيات الصهاينة.. وأكد الإعلام الغربى والصهيونى بعد الحرب العالمية الثانية وانتصار الحلفاء فى الأذهان أن النازيين لم يبيدوا سوى اليهود، وإذا أراد باحث أن يبين أن الإبادة النازية لم

تكن مقصورة على اليهود، إنما هي ظاهرة شاملة ممتدة تشمل الغجر والسلاف والبولنديين وغيرهم، فإنه يصبح هدفاً لهجوم مباشر (الموسوعة جـ ٢، ص ٤٢٠). وتبدأ عملية توظيف الإبادة على يد الصهاينة بمحاولتهم فرض معنى صهيوني ضيق عليها باعتبارها جريمة العصر التي ارتكبها الألمان والأغيار ضد اليهود فحسب ثم تعطى واقعة الإبادة مكانة محورية في تاريخ أوربا وتاريخ العالم. ولذلك صدرت عشرات الأفلام والدراسات والأعمال الفنية لحفر الإبادة في الذاكرة باعتبارها واقعة حدثت لليهود وحدهم، لا باعتبارها جريمة ارتكبتها ا لحضارة الغربية ضد قطاعات كبيرة من سكانها. وتنهض الإبادة بعض فرص المعنى الصهيوني عليها دليلاً على رفض العالم لليهود، وعلى أن الأغيار يتربصون دائماً بالضحية اليهود ويقدمون قرباناً على المذبحة، وتثبت الدراسات أن الإبادة النازية لم تكن موجهة ضد اليهود فحسب فعدد ضحايا الحرب العالمية الثانية من جميع الشعوب الأوربية يبلغ ما بين خمسة وثلاثين وخمسين مليوناً، وأظهر معرض لحكومة بولندا، كان يطوف أمريكا عام ١٩٨٦ أن أكبر معسكرات الاعتقال هو أوشفيتس وأن التركيز النازى كان أساساً على البولنديين والاشتراكيين واليهود والغجر (بهذا الترتيب) لتفريغ بولندا جزئياً وتوطين الألمان فيها.. ويقبل الغرب أنهم ينتجون أفلاماً تعرض بالسيد المسيح عليه السلام مثل فيلم سكورسيزى «الإغواء الأخير للمسيح»، وأعمالاً فنية مثل لوحة الفنان أندريه سيرانوا الشهيرة بعنوان: «فلتتبول على المسيح» حيث وضع الفنان صورة المسيح على الصليب في البول وعرضها في معرض قامت الدولة بتمويله.. ولا يقبلون فتح ملفات الإبادة.. فلم يعد السيد المسيح ضمن المقدسات، أما الإبادة فقد أصبحت كذلك (الموسوعة جـ ٢، ص ٤٤٠).

وقد أقيمت معسكرات الاعتقال (السخرة والإبادة) في ألمانيا عام ١٩٣٣ بعد استيلاء النازيين على الحكم.. وكان يعتقل كل من يشكل خطراً على الدولة الجديدة بغض النظر عن دينه أو جنسيته (الموسوعة جـ ٢، ص ٤٤٤). ويثير كثير من الباحثين الشكوك حول وجود أفران الغاز أصلاً، وقد صدرت عدة دراسات في هذا الشأن.. لأن احتياطات استخدامها كلم تكن متوفرة للألمان تحت ظروف الحرب، وأن الإبادة لم تكن عملية مقصودة تمت دفعة واحدة، وإنما نتيجة لعناصر مختلفة فرضت نفسها بظروف الحرب

مثل سوء التغذية والأوبئة وغيرها. وكان العدد الأكبر يستخدم في معسكرات السخرة وقد أسس بجوار أوشفيتس على سبيل المثال ثلاثة مصانع كبرى لإنتاج بعض المواد اللازمة للعمليات العسكرية، وكانت الشركات الألمانية تستأجر المعتقلين عشر ساعات يومياً من العمل الشاق مقابل دولار واحد فقط ونظراً لحرصها الشديد على الأيدى الرخيصة كانت توفر لهم بعض الأنشطة الترفيهية (ضمنها بيت دعارة) كما أختير عدد من نزلاء المعسكرات لإجراء التجارب الطبية والعلمية عليهم.

وكانت المعسكرات تدار بطريقة تتسم بنوع من الإدارة الذاتية، فكان يتم اختيار بعض العناصر من بين المساجين يشكلون نخبة داخل هذه المعسكرات. وتكون بمنزلة حلقة وصل بين المساجين والألمان. ويطلق عليهم اسم كابو (الموسوعة جـ٢، ص ٤٤٥).

وعرف قاموس لاروس الإبادة الجماعية بأنها التدمير المنهجي لمجموعة عرقية بإبادة أفرادها، ويعلق جارودى على هذا التعريف بأنه لا يمكن أن ينطبق حرفياً إلا في حالة غزو يشوع لكنعان حيث قيل لنا، بصدد كل مدينة مفتوحة: «لم يبق فيها أحد على قيد الحياة» (في الأعداد: ٢١، ٣٥ مثلاً)!! ولذا يقول توم سيغف إن الإبادة الجماعية هي، على غرار الوعد الإلهي في التوراة، عنصر تبرير أيديولوجي لخلق دولة إسرائيل، (روجيه جارودى الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ص ١٦٥).

(٢) نداء نابليون إلى يهود العالم(*)

«من نابليون بونابرت القائد الأعلى للقوات المسلحة للجمهورية الفرنسية في إفريقيا وآسيا إلى ورثة فلسطين الشرعيين.

أيها الإسرائيليون، أيها الشعب الفريد، الذى لم تستطع قوى الفتح والطغيان أن تسلبه نسبه ووجوده القومى، وإن كانت قد سلبته أرض الأجداد فقط.

إن مراقبى مصائر الشعوب الواعين المحايدين ـ وإن لم تكن لهم مقدرة الأنبياء مثل اشعياء ويؤئيل ـ قد أدركوا ما تنبأ به هؤلاء بإيمانهم الرفيع أن عبيد الله (كلمة إسرائيل في اللغة العبرية تعنى أسير الله أو عبد الله) سيعودون إلى صهيون وهم ينشدون، وسوف تعمهم السعادة حين يستعيدون مملكتهم دون خوف.

(*) محمد حسنين هيكل: المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، ج١ دار الشروق ١٩٩٨.

انهضوا بقوة أيها المشردون فى التيه. إن أمامكم حرباً مهولة يخوضها شعبكم بعد أن اعتبر أعداؤه أن أرضه التى ورثها عن الأجداد غنيمة تقسم بينهم حسب أهوائهم.. لابد من نسيان ذلك العار الذى أوقعكم تحت نير العبودية، وذلك الخزى الذى شل إرادتكم لألفى سنة. إن الظروف لم تكن تسمح بإعلان مطالبكم أو التعبير عنها، بل إن هذه الظروف أرغمتكم بالقسر على التخلى عن حقكم، ولهذا فإن فرنسا تقدم لكم يدها الآن حاملة إرث إسرائيل، وهى تفعل ذلك فى هذا الوقت بالذات، وبالرغم من شواهد اليأس والعجز.

إن الجيش الذى أرسلتنى العناية الإلهية به، ويمشى بالنصر أمامه وبالعدل وراءه، قد اختار القدس مقراً لقيادته، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق المجاورة التى استهانت طويلاً بمدينة داود وأذلتها.

ياورثة فلسطين الشرعيين..

إن الأمة الفرنسية التى لا تتاجر بالرجال والأوطان كما فعل غيرها، تدعوكم إلى إرثكم بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء.

انهضوا واظهروا أن قوة الطغاة القاهرة لم تخمد شجاعة أحفاد هؤلاء الأبطال الذين كان تحالفهم الأخرى شرفاً لأسبرطة وروما، وأن معاملة العبيد التى طالت ألفى سنة لم تفلح فى قتل هذه الشجاعة.

سارعوا! إن هذه هى اللحظة المناسبة - التى قد لا تتكرر لآلاف السنين - للمطالبة باستعادة حقوقكم ومكانتكم بين شعوب العالم، تلك الحقوق التى سلبت منكم لآلاف السنين وهى وجودكم السياسى كأمة بين الأمم، وحقكم الطبيعى المطلق فى عبادة إلهكم يهوه، طبقاً لعقيدتكم، وافعلوا ذلك فى العلن وافعلوه إلى الأبد.

بونابرت»

(٣) كمان روتشيلد(*)

كانت البلدة الصغيرة، أسوأ من قرية، لا يكاد يعيش فيها سوى العجائز الذين كانوا يموتون بشكل نادر إلى حد مقلق ومثير للحيرة. وكانت الحاجة إلى التوابيت ضئيلة جداً في المستشفى، وحتى في السجن. وباختصار، فقد كانت الأمور في غاية الإزعاج. ولو كان ياكوف إيفانوف حانوتياً في مركز المحافظة، لامتلك على الأرجح منزله الخاص، ونادوه بلقب ياكوف ماتفييتش. ولكنهم كانوا ينادونه، هنا في البلدة الصغيرة ببساطة ياكوف. ولسبب ما كان لقبه في الشارع برونزا برغم حياة الفقر والكفاف كفلاح بسيط في بيت من بيوت الفلاحين الصغيرة الحقيرة حيث يقتصر على غرفة وحيدة يعيش فيها هو ومارفا، والمدفأة، وسرير يتسع لشخصين، والتوابيت، ومنضدة نجارة، وباقي أدوات المعيشة.

(*) قصة قصيرة بقلم: أنطون تشيخوف

كان ياكوف يصنع توابيت جيدة ومتينة. ومن أجل الرجال وصغار الملاك كان يصنعها على مقاسه، ولم يخطئ في ذلك مرة واحدة إذ لم يكن هناك إنسان أطول وأقوى منه حتى في السجن، برغم أنه كان قد تجاوز السبعين عاماً. ومن أجل النبلاء والنساء فقد كان يصنعها بالقياس مستخدماً في من أجل ذلك مقياس الأرشين[1] بينما كان يقبل طلبيات توابيت الأطفال على مضض، ويصنعها مباشرة دون قياس وباستخفاف شديد. وفي كل مرة عندما يتقاضى فيها نقوداً عن عمله، كان يقول: ـ أعترف.. فأنا لا أحب العمل في هذه التفاهات.

باستثناء الحرفة، كان عزفه على الكمان أيضاً يجلب له دخلاً غير كبير. ففي حفلات الزفاف بالبلدة كان يعزف في العادة الأوركسترا (اليهودي)[2] الذي كان يقوده السمكري موسى أليتش شخكيس الذي يأخذ لنفسه أكثر من نصف الإيراد. وبما أن ياكوف كان يجيد العزف على الكمان.. وخصوصاً بمصاحبة الأغنيات الشعبية الروسية، فقد كان شخكيس يدعوه أحياناً للعزف في الأوكسترا مقابل خمسين كوبيكا في اليوم بغض النظر عن هدايا الضيوف وتبرعاتهم. وعندما كان برونزا يجلس بين العازفين في الأوكسترا، فإن أول ما كان يظهر عليه هو إحمرار وجهه وتصبب العرق منه، إذ كان الجو حاراً، ورائحة الثوم تخنق الأنفاس، والكمان يُزيّق، والكونترباص يشخر بجوار أذنه اليمنى، وبجوار اليسرى ينشج الناي الذي يعزف عليه (اليهودي) الأصهب الهزيل، بوجهه الذي تظلله شبكة واسعة من العروق الحمراء والزرقاء، والذي كان يحمل لقب الثرى الشهير روتشيلد. وكان هذا (اليهودي) اللعين يحول حتى أكثر الألحان مرحاً إلى إلى كآبة وأنين، وبدون أسباب واضحة كان ياكوف متشبعاً بكره واحتقار شديدين لهؤلاء (اليهود)، وخاصة لروتشيلد. وقد بدأ ذلك بالمحاكاة، ثم التجريح بالشتائم البذيئة، لدرجة أنه أراد ذات مرة أن يضربه، بينما تأذى روتشيلد من ذلك، وقال من بين أسنانه

---

(١) مقياس طول روسي قديم يساوي ٧١ سم.. (المترجم).

(٢) لم يكتب تشيخوف كلمة «يهودي» بالروسية، ولكنه استخدم الصفة الشائعة التي كانت تستخدم لتحقير اليهود في روسيا القيصرية (جيد) المأخوذة من الكلمة الإنجليزية (Judas). وسوف نضعها لاحقاً بين قوسين، للتمييز بينها وبين صفة يهودي بالمعنى الروسي.. (المترجم).

ناظراً فى حنق:

ـ لو لم أكن أحترمكم لموهبتكم، لطرتم من النافذة منذ زمن بعيد.

ثم بكى. ولذا فقلما كانوا يستعينون ببرونزا فى الأوكسترا، وكان ذلك يحدث فقط فى حالات الضرورة القصوى عنما يتغيب أحد من اليهود.

كان ياكوف فى مزاج سيىء باستمرار لأنه كان يتعين عليها دائماً أن يصبر على الخسائر الفادحة. وعلى سبيل المثال، ففى أيام الآحاد وفى الأعياد كان من الإثم أن يعمل، ويوم الاثنين يوم صعب.. وبهذا الشكل يكون المجموع حوالى مائتى يوم يتعين عليه فيها أن يجلس، خلافاً لإرادته، عاطلاً عن العمل، بينما فى ذلك خسارة، وأية خسارة؛ إذا قام أحد ما فى البلدة عرساً بدون موسيقى، وكانت خسارة أيضاً إذا لم يُدع شخكيس ياكوف. ولقد ظل رجل البوليس المراقب بالسجن مريضاً يعطس طوال عامين كاملين. وانتظر ياكوف بفارغ الصبر حتى يموت. ولكن المراقب سافر إلى المركز للعلاج، ومات هناك. وكم كانت الخسارة إذا ضاعت على الأقل عشر روبلات، لأن الأمر اقتضى أن يصنع التابوت على نحو آخر مستخدماً نوعاً خاصاً من القماش لتزيينه. وراحت الأفكار حول الخسائر والانتكاسات تضنى ياكوف وتعذبه، خاصة فى الليل. ولذا فقد وضع الكمان إلى جوار الفراش، وكلما وردت على ذهنه تُرهة ما، كان يمس الأوتار فيصدر الكمان فى الظلام صوتاً يهدئ من روعه.

فى السادس من مايو فى العام الماضى توعكت مارفا فجأة. فراحت تتنفس بصعوبة شديدة، وشربت ماء كثيراً ثم ترنحت. وعلى الرغم من كل ذلك نهضت فى الصباح أشعلت المدفأة بنفسها، حتى ذهبت لتملأ الماء. وقرب حلول المساء ترنحت مرة أخرى، فى حين ظل ياكوف طوال النهار يعزف الكمان. وعندما حل الظلام تماماً، تناول الدفتر الذى يسجل فيه خسائره كل يوم. ومن جراء الملل قام بعمل إجمالى سنوى لهذه الخسائر. وكانت النتيجة أكثر من ألف روبل مما زلزل كيانه لدرجة أنه ألقى بالأوراق على الأرض وأخذ يدوسها بقدميه، ثم رفعها مرة ثانية ومزقها متنفساً بعمق وتوتر، وكان وجهه محمراً ومبللاً من أثر العرق. راح يفكر فيما إذا كان قد وضع هذه الألف روبل الضائعة فى

البنك، لتراكمت الأرباح السنوية على الأقل بمقدار أربعين روبلاً. مما يعنى أن الأربعين روبلاً هذه تعتبر أيضاً خسارة. وباختصار فحيثما اتجهت، وأينما كنت فليس هناك سوى الخسارة ولا شيء سواها.

- ياكوف - نادته مارفا بغتة - إننى أموت!

تطلع إلى زوجته، كان وجهها وردياً فى ارتفاع درجة حرارتها، وصافياً وسعيداً بشكل غير عادى. أما برونزا المعتاد دائماً على رؤية وجه زوجته ممتقعاً شاحباً وتعيساً، فقد اعتوره الآن الحزن والارتباك. كان الأمر أشبه ما يكون بأنها ماتت بالفعل، وكانت هى راضة بذلك وسعيدة لأنها أخيراً تخرج إلى الأبد من هذا البيت القروى، ومن التوابيت، ومن ياكوف نفسه.. نظرت إلى السقف وتمتمت شفتاها بشيء ما، وكان التعبير المرسوم على ملامحها ينم عن سعادة عميقة وكأنها بالفعل قد رأت ملاك الموت وتهامست معه.

كان النهار قد تشقشق، وبان من النافذة كيف تلألأت شمس الصباح. عندما نظر ياكوف إلى العجوز، تذكر لسبب ما أنه طوال حياته لم يلاطفها أو يشفق عليها، ولم يفكر مرة واحدة أن يشترى لها منديلاً أو يحضر لها شيئاً ما حلواً من عرس، فقط كان يصرخ فيها، ويكيل لها الشتائم بسبب الخسائر والانتكاسات، وينقض عليها مهدداً بقبضته. وفى الحقيقة فهو لم يضربها أبداً، وبالرغم من ذلك فقد كان يفزعها ويخيفها، وكانت هى فى كل مرة تتجمد من الرعب. وأيضاً لم يكن يسمح لها بشرب الشاى لأنه بذلك تكون المصاريف أقل. أما هى فقد كانت تشرب فقط الماء الساخن. ولقد فهم لماذا يبدو وجهها غريباً وسعيداً، الشيء الذى أصبح بالنسبة له مرعباً.

جاء الصباح بعد طول انتظار، فاستعار حصان جاره ونقل مارفا إلى المستشفى. كان المرضى هناك قليلين، وما كان عليه الانتظار إلا قليلاً، حوالى ثلاث ساعات. ولحسن حظه لم يستقبل المرضى فى هذه المرة الدكتور الذى كان هو نفسه مريضاً، وإنما التمرجى مكسيم نيكولايتش العجوز الذى كان الجميع يتحدثون عنه فى البلدة إنه على الرغم من كونه سكيراً وصاحب مشاكل إلا أنه يفهم أكثر من الدكتور. وبعد أن أدخل ياكوف العجوز إلى حجرة الاستقبال، قال:

ـ السلام عليكم، سامحونى فنحن دائماً نزعجكم يا مسكيم نيكولايتش بأمورنا التافهة. اسمحوا لى أن ألفت انتباهكم.. لقد أصاب المرض أهالى[1]، رفيقة حياتى كما يقال، اعذرونى على التعبير..

قطب التمرجى حاجبيه الأشيبين، ومسد فوديه، وراح يفحص العجوز وقد تقوست على مقعد بدون مسند، هزيلة ومدببة الأنف بفم مفتوح، تشبه من جانب وجها طائراً يهم بشرب الماء.

قال التمرجى ببطء بعد أن أخذ نفساً عميقاً:

ـ آ.. نعم.. هكذا.. أنفلونزا، وربما حمى. فالتيفوس منتشر الآن فى البلدة.. ماذا نفعل؟ لقد عاشت العجوز طويلاً.. الحمد لله.. كم عمرها؟

سبعون إلا سنة واحدة يا مكسيم نيكولايتش.

ماذا نفعل؟ عاشت العجوز طويلاً، وآن الأوان لرحيلها.

ـ هذا الكلام بالطبع معقول إذا سمحتم يا مكسيم نيكولايتش (قال ياكوف هذا وهو يبتسم من باب التأدب) ونحن شاكرون وممتنون على تفضلكم. ولكن اسمحوا لى أن أذكركم بأن الحشرة أيضاً تريد أن تعيش أطول.

ـ كل شىء جائز!

ثم قال التمرجى بنبرة كما لو كان موت العجوز أو حياتها متوقفين عليه:

إذن.. هكذا.. ياولد.. سوف تضع على رأسها «كمادة» باردة.. واعطها من المسحوق هذا مرتين كل يوم، ثم مع السلامة. بانچور.

لمح ياكوف، من تعبيرات وجهه، أن الحالة سيئة ولن تساعدها أية مساحيق.. وكان من الواضح له أن مارفا على وشك الموت، إن لم يكن اليوم فغداً، عندئذ دفع التمرجى من

---

(١) المقصود (أهلى)، ولكن ياكوف نطقها بشكل غير صحيح لغوياً، واضعاً علامة النبر على حرف آخر، (المترجم).

مرفقه برفق، وغمز له بعينيه، ثم قال بصوت خافت:

ـ ماذا لو حجماناها يا مكسيم نيكولايتش.

ـ إطلاقاً.. إطلاقاً يا ولد. خذ عجوزك واذهب فى أمان الله، مع السلامة.

قال ياكوف بتضرع:

ـ اعملوا معروفاً.. اسمحوا لى أن أعرف لو افترضنا أن بطنها آلمها أو أى داخلى، فعندئذ نعطيها مساحيق وقطرات. ولكن من الواضح أن عندها نزلة برد وأول شيء فى حالة النزلة هو طرد الدم يامكسيم نيكولايتش.

ولكن التمرجى كان قد استدعى المريض التالى. ودخل فعلاً إلى حجرة الاستقبال أب مع والده، فى حين قال ياكوف عابساً:

ـ اذهب.. اذهب الحالة غير واضحة.

ـ فى هذه الحالة علقوا لها ولو حتى ألقة[1]! لتجعلوها تصلى لله إلى الأبد!

فصاح التمرجى فى ثورة:

ـ علمنى أيضاً! يابليد..

اغتاظ ياكوف وتضرج كلياً، لكنه لم يتفوه بكلمة واحدة، وتأبط ذراع مارفا وأخرجها من حجرة الاستقبال. ولما جلسا فى العربة، طالع المستشفى بنظرة قاسية ساخرة قائلاً:

ـ أجلسوكم هنا.. ممثلين! لو كان غنياً لحجمه، ولكنه يستكثر على الفقير حتى ألقة واحدة.. معاتيه مشوهون!

عندما وصلا إلى البيت، ظلت مارفا واقفة لعشر دقائق بعد دخولها ويدها على كليتها. وبدا لها أن ياكوف لو رآها مضطجعة فسوف يبدأ حديثه عن الخسائر

---

(١) المقصود (علقة)، ولكن ياكوف نطقها بشكل غير صحيح إملائياً مبدلاً حرف بحرف آخر، والعلقة هى نوع من الديدان كان الروس يستخدمونه للعلاج بوضعه على الجسم لامتصاص الدم كوسيلة لعملية الحجم... (المترجم).

والانتكاسات، وسينال عليها بالشتائم متهماً إياها بالنوم وعدم الرغبة فى العمل. وتطلع ياكوف إليها فى تذمر وملل، وتذكر أن عيد الناسك يوحنا غداً، وعيد نيكولاى صاحب المعجزات بعد غد، وبعد ذلك يوم الأحد، ثم يوم الاثنين الصعب. أربعة أيام لا يجوز العمل فيها، وربما تموت مارفا فى أى منها، إذن ينبغى أن يصنع لها اليوم تابوتاً. وأخذ أرشينه الحديدى ودنا من العجوز فأخذ مقاسها، ثم استقلت هى على الفراش بينما رسم علامة الصليب، وبدأ فى عمل التابوت.

حين أصبح التابوت جاهزاً، لبس برونزا عويناته وسجل فى دفتره:

تابوت مارفا إفانوفنا ٢ روبل و ٤٠ كوبيك.

وتنفس الصعداء فى حين كانت العجوز مستلقية طوال الوقت وهى مغمضة العينين. وفى المساء عندما حل الظلام، نادت عليه العجوز فجأة، وسألته متفرسة فيه بسعادة:

ـ أتتذكر يا ياكوف؟ أتتذكر.. كيف رزقنا الله قبل خمسين عاماً بطفل أشقر الشعر؟ آنذاك كنا نجلس طوال الوقت على ضفة النهر نغنى.. تحت شجرة الصفصاف.

وبعد أن تبسمت بمرارة، أضافت:

ماتت البنت.

أجهد ياكوف ذاكرته، ولكنه لم يستطع أبداً تذكر الطفل ولا الصفصافة. فقال:

هذا يخيل لك.

جاء القس وأجرى مراسيم الاعتراف. بعدها راحت مارفا تمتم بأشياء غير مفهومة. وفى الصباح ماتت. قامت الجارات العجائز بغسلها وإلباسها ووضعها فى التابوت. ولكى لا يدفع ياكوف مبلغاً إضافياً للشماس تلا هو بنفس القداس على روحها، فيما لو يأخذوا منه شيئاً عن حفر القبر لأن حارس المقابر هو الذى كان قد عمد ابنته فى الكنيسة بعد ولادتها. وحمل النعش إلى المقبرة أربعة رجال من قبيل الاحترام والتوقير، وليس من أجل النقود. وسار خلفه النسوة العجائز، والمتسولون، واثنان من المجاذيب. بينما كان المارة يرسمون علامة الصليب بورع وتقوى.. وكان ياكوف مسروراً للغاية إذ كان كل شىء

محترماً ولائقاً ورخيصاً، وليس هناك ما يمكن أن يكون فيه إهانة لأحد. وفيما كان يلقى النظرة الأخيرة على جثمان مارفا المسجى في النعش، لمس بأصابعه حافة التابوت، وفكر في نفسه: صنعة ماهرة!.

بعدما عاد من المقبرة، انتابه حزن شديد واستحوذ عليه الملل، وشعر بتوعك: كان تنفسه حاراً وثقيلاً، وقدماه ضعيفتين، وانتابته رغبة شديدة لشرب الماء. راحت الأفكار أيضاً تتصارع في رأسه، وطاف بذاكرته من جديد أنه لم يشفق عليها مرة واحدة في حياته كلها، ولم يلاطفها. وقد عاشا في بيت واحد اثنين وخمسين عاماً مرت بطيئة ولكن حدث على نحو ما أنه طوال هذا الوقت لم يفكر فيها، ولم يلاحظ وجودها أو يهتم بها كما لو كانت قطة أو كلباً، بينما كانت كل يوم تشعل المدفأة، تطبخ وتخبز تذهب لملء المياه، تقطع الأخشاب، وترقد إلى جواره في فراش واحد. وعندما كان يعود ثملاً من الأعراس، كانت في كل مرة تعلق كمانه على الحائط باحترام وتبجيل، وترقده في فراشه، وكل ذلك بصمت وعلى وجهها أمارات الهيبة والاحترام.

التقى روتشيلد بياكوف في الطريق، فابتسم له محيياً إياه بانحناءة، وقال:

ـ أنا أبحث عنكم ياجدى! موسى أليتش يسلمون عليكم ويدعونكم لزيارتهم حيالاً[1].

كان ياكوف فيشغل شاغل عن ذلك، وكانت لديه رغبة شديدة في البكاء.

ـ دعني! قال ذلك وتابع سيره. بينما انزعج روتشيلد واندفع مهرولاً إلى الأمام:

ـ كيف يمكن ذلك؟ موسى أليتش سيغضبون! إنهم طلبوك حيالاً!

أدى إلى امتعاض ياكوف أن هذا (اليهودى) كان يلهث ويتلعثم في كلامه، ويطرف بعينيه، ولديه نمش أحمر كثير على نحو ما، وكان من المقرف لياكوف النظر إلى سترته الخضراء المرقعة بقطع قماش قاتمة، وإلى قامته الهشة الهزيلة بكاملها.

(١) المقصود (حالا)، ولكن روتشيلد نطقها بشكل غير صحيح مبدلاً علامة النبر.. (المترجم).

صرخ ياكوف :

ـ مالك تتدخل فى شئونى يا آكل الثوم؟ دعنى وشأنى!

غضب (اليهودى) وصرخ بدوره:

ـ ولكن الزموا حدودكم من فضلكم، وإلا ستطيرون من فوق السياج!

زعق ياكوف واندفع نحوه مهدداً بقبضتيه :

ـ أغرب عن وجهى.. ألا يمكن العيش بعيداً عن الوسخ!

مات روتشيلد فى جده من الرعب، فقرفص مذهولاً وأخذ يطوح بيديه فوق رأسه كمن يحميه من اللطمات، ثم نهض وفر هارباً، وأثناء جريه كان يقفز ويضرب كفاً بكف بينما ظهره الطويل الهزيل يرتعد بوضوح. وفرح الأولاد لما حدث واندفعوا يركضون وراءه صائحين: «يهودى! يهودى!»، وجرت الكلاب أيضاً خلف الجميع وهى تنبح. انطلق أحد المارة فى قهقهة عالية ثم أطلق صفارة فعلا نباح الكلاب وازداد. ويبدو بعد ذلك أن أحد الكلاب قد عض روتشيلد، فقد سُمعت صرخته المرعوبة من اليأس والفزع.

راح ياكوف يتمشى فى المراعى، ثم اقترب من أطراف البلدة وأخذ يسير على غير هدى. فيما كان الأولاد يتصايحون: «برونزا قادم! برونزا قادم»!. وهاهو النهر حيث طائر الشنقب يتراكض مسرعاً فوق الرمال، والبط يزعق، والشمس تلفح الوجوه، وصفحة المياه تتلألأ بلمعان آخاذ يؤذى العين. سار ياكوف فى الطريق الضيق بمحاذاة ضفة النهر، ولمح كيف خرجت سيدة ممتلئة حمراء الوجنتين من حوض الاستحمام. فراح يفكر فيها :«ياه يالك من كلب بحر!». وبعيد عن حوض الاستحمام كان الأولاد يصطادون السمك بلحم السرطان. ولما نحوه راحوا يصرخون بحنق «برونزا! برونزا!». وهاهى الصفصافة العريضة القديمة ذات التجويف الضخم وفوقها أعشاش الغربان.. وفجأة نما فى ذاكرة ياكوف طفل صغير بشعر أشقر كأنه حى يرزق، بينما كانت الصفصافة التى تحدثت عنها مارفا تقف خضراء ساكنة، وحزينة.. فكم شاخت، مسكينة! جلس تحتها وراح يتذكر.. على هذه الضفة، حيث المرج الذى تغمره الآن مياه الفيضان، كانت هناك آنئذ غابة من أشجار البتولا، وعلى الجبال الجرداء كان يتراءى على خط الأفق حرش

الصنوبر العتيق الذى كان يلوح وقتذاك بزرقته بينما تسير فى النهر قوارب التنزه. أما الآن فالأمر سيان، وعلى الضفة الأخرى تبدو الأرض جرداء إلا من شجرة بتولا واحدة فقط، شابة وممشوقة كفتاة بكر. وفى النهر لا يوجد إلا البط والوز، وليس فى الأمر ما يشير إلى أنه فى وقت من الأوقات كانت تسير القوارب للتنزه. ويبدو أن الوز قد صار قليلاً على عكس ما كان فى الماضى. أغلق ياكوف عينيه، فراحت تركض فى مخيلته أسراب ضخمة هائلة متقابلة من الوز الأبيض.

لم يكن يدرى كيف حدث أنه خلال الأربعين أو الخمسين سنة الأخيرة من حياته لم يذهب مرة واحدة إلى النهر. ولو كان قد حدث وذهب، فهو لم يلق بالاً إليه أبداً؟ إلا أن النهر مخلص وأمين، وليس شحيحاً ووضيعاً. وكان من الممكن ممارسة صيد السمك فيه ،وبيعه للتجار والموظفين وصاحب البوفيه على المحطة، وبعد ذلك يمكن وضع النقود فى البنك. وكان من الممكن السباحة فى قارب من ضيعة إلى ضيعة، والعزف على الكمان ولدفع الناس، حينها، من مختلف الطبقات نقوداً من أجل ذلك. وكان من الممكن تجريب قيادة قوارب التنزه، وهذا أفضل من صناعة التوابيت. وفى النهاية كان من الممكن تربية الوز واصطياده ثم بيعه شتاءً فى موسكو، وعندئذ كان من الجائز تحصيل ما يقرب من عشر روبلات فى السنة من بيع الريش وحده. ولكنه غفل عن كل هذا ولم يفعل أى شىء منه فى حينه، يالها من خسارة! ياه، يالها من خسارة! ولو كانت كل هذه الأشياء معاً: صيد السمك والعزف على الكمان وقيادة القوارب واصطياد الوز، فأى رأسمال كان من الممكن تحقيقه! ولكن لم يكن هناك أى شىء من ذلك حتى فى المنام. ومرت الحياة دون جدوى، بدون أية لذة، ضاعت هباء وهدراً، ولم يتبق أى شىء فى المستقبل، وإذا نظرت للوراء فهناك أيضاً لا يوجد شىء سوى الانتكاسات والخسائر، وتلك الفظائع التى تقشعر منها الأبدان. لماذا لا يستطيع الإنسان أن يعيش بحيث لا توجد هذه الخسائر؟ يا ترى من أجل ماذا قطعوا شجرة البتولا وحرش الصنوبر؟ ولماذا كف الكلأ عن العطاء؟ ومن أجل أى شىء يفعل الناس دائماً كل ما هو غير ضرورى لهم؟ من أجل ماذا أمضى ياكوف حياته كلها يتشاجر ويتخاصم، يزعق ويصرخ، يهدد بقبضتيه، ويسىء إلى زوجته. وياترى ما لاداعى لكى يفزع (اليهودى) ويهينه الآن؟ لماذا يعرقل الناس، بشكل عام بعضهم

البعض عن الحياة؟ فما أكثر الخسائر الفادحة! وما أكثر الانتكاسات البشعة من جراء ذلك! ولو لم يكن الحقد والضغينة لكان للناس من بعضهم البعض منافع عظيمة. في المساء وبالليل كان يتراءى له الطفل الصغير، والصفصافة، والسمك، والصيد، والوز، ومارفا تشبه من جانب وجهها طائراً يهم بشرب الماء، ووجه روتشيلد الممتقع المسكين، وسحنات ما أخرى تميل عليه من جميع الاتجاهات مدمدمة بخسائره. وراح يتقلب من جنب إلى جنب، ونهض من فراشه ما يقرب من الخمس مرات لكي يعزف على الكمان. في الصباح رفع جسده من الفراش بصعوبة بالغة. وذهب إلى المستشفى، أمر له مكسيم نيكولايتش نفسه بوضع «كمادة» باردة على رأسه، وأعطاه مسحوقاً، ولكن ياكوف أدرك من ملامحه ونبرة صوته أن الحالة سيئة، ولن تنفع أية مساحيق. وبعد عودته إلى البيت أدرك أن هناك منفعة واحدة من الموت. فليست هناك ضرورة للأكل، ولا للشرب، ولا لتسديد الصدقات والإتاوات للكنيسة. ولا الإساءة للناس، وبما أن الإنسان سيرقد في القبر ليس عاماً واحداً، وإنما مئات وآلاف السنين، فلو حسبنا المنفعة لبدت عظيمة. ومن حياة الإنسان لا يتأتى أي شيء سوى الخسارة، أما من موته فتأتي الفائدة، وهذه الفكرة بالطبع بديهية، ورغم ذلك فكان هذا مؤلم ومرير: فلماذا يوجد في العالم ذلك النظام الغريب، حيث الحياة لا توهب للإنسان مرة واحدة فقط تمر هكذا دون جدوى؟

لم يكن مؤسفاً له أن يموت، ولكن ما إن وقعت عيناه في البيت على الكمان حتى انقبض قلبه، وشعر بالأسى والأسف لكونه لن يستطيع أخذ الكمان معه إلى القبر، وسيبقى الآن يتيماً، وسوف يحدث معه نفس ما حدث مع غابة البتولا وحرش الصنوبر، كل شيء في هذا العالم قد ضاع، وسوف يضيع على الدوام! خرج ياكوف من البيت وجلس قرب العتبة وهو يضم الكمان إلى صدره بقوة. وبينما راح يفكر في حياته وفي حياتهم الخاسرة التي ضاعت هدراً، عزف على الكمان دون أن يدري هو ذاته ماذا يعزف. فخرج العزف حزيناً مؤثراً وانهمرت الدموع على خديه، وكلما استغرق في التفكير، غنى الكمان بشكل أكثر حزناً.

أصدر مزلاج الباب الخارجي صريراً، مرة ومرتين، وظهر روتشيلد في الباحة الخارجية أمام البيت. قطع نصف المسافة بشجاعة، وما إن رأى ياكوف حتى توقف فجأة وانكمش

تماماً. وراح من رعبه يصنع بيديه تلك الإشارات التى كما لو كان يود بها أن يبين على أصابعه كم الساعة الآن.

قال ياكوف بحنان داعياً إياه:

ـ تعال.. لا تخف.. تعال!

تطلع روتشيلد بارتياب، وبخوف أخذ يقترب، ثم توقف على بعد ساجين(١) منه. وقال مقرفصاً:

ـ أنتم.. اعملوا معروف لا تضربونى! لقد أرسلونى موسى أليتش من جديد. قالوا لا تخف، اذهب ثانية إلى ياكوف وقل له إن الأمر بدونهم غير ممكن إطلاقاً فيوم الأربعاء عرش(٢).. نعم.. نعم..! لسيد شابوفالوف سيزوج ابنته لإنشان(٣) جيد. وأضاف (اليهودى) مضيقاً عيناً واحدة:

ـ والعرش سيكون رغيداً.. أو.. أوو..!

قال ياكوف متنفساً بصعوبة:

ـ لا أستطيع.. لقد مرضت يا أخى.

وراح يعزف من جديد والدموع تطفر من عينيه وتتساقط على الكمان. وأخذ روتشيلد ينصت باهتمام مائلاً نحوه بجانبه وعاقداً ذراعيه على صدره، بينما التعبير المذعور على وجهه يتحول شيئاً فشيئاً إلى شعور حزين مشفق، وجحظت عيناه كأنما يعانى من إحساس بالإعجاب المضنى. ثم تمتم «واه ه!» وسحت دموعه ببطء على خديه وراحت تقطر على سترته الخضراء.

ظل ياكوف طوال النهار راقداً مغموماً. وبينما كان القس يحصل منه على الاعتراف فى المساء، سأله عما إذا كان قد نسى الاعتراف بذنب ما مهم. وفيما راح ينشط ذاكرته

---

(١) ساجين يساوى متراً و١٣ سم... (المترجم).
(٢) المقصود (عرس) ولكنه نطقها بلكنة غير روسية.. (المترجم).
(٣) المقصود (إنسان)، ولكنه نطقها أيضاً بلهجة غير روسية. (المترجم).

الضعيفة، تذكر من جديد وجه مارفا الناضج بالشقاء، والصرخة المؤلمة (لليهودى) الذى عضه الكلب، ثم قال بصوت لا يكاد يسمع:

سلموا الكمان لروتشيلد.

فأجاب القس:

ـ حسناً.

والآن يتساءل الجميع فى البلدة: من أين لروتشيلد بهذا الكمان الجيد؟ اشتراه أم سرقه، أو من الممكن أن يكون قد حصل عليه كرهن؟ أما هو فقد ترك الناى منذ زمن بعيد، ويعزف حالياً على الكمان فقط. ومن تحت قوسه تنساب أيضاً تلك الأنغام الحزينة كما كانت تنساب آنذاك من الناى. ولكنه عندما يحاول إعادة ما عزفه ياكوف وقتما كان جالساً على العتبة. كان يخرج منه شىء يوحى بالحزن والأسى بحيث ينخرط السامعون فى البكاء رغماً عنهم، فبينما كان هو فى نهاية اللحن يجحظ بعينيه متمتماً: «واااه ه ه!» وإذ أثارت هذه الأغنية الجديدة الإعجاب فى البلدة، فقد راح التجار والموظفون يدعون روتشيلد أثناء فترات الراحة ويرغمونه على عزفها عشرات المرات.

إصدارات جماعة حور:

١ ـ عوالم فى تصادم ـ تأليف إيمانويل فلايكوفسكى، ترجمة د. رفعت السعيد (الطبعة العربية الأولى ١٩٩٨)

٢ ـ عصور فى فوضى ـ تأليف إيمانويل فلايكوفسكى، ترجمة د. رفعت السعيد (الطبعة العربية الأولى ١٩٩٩).

٣ ـ الجنس والشباب الذكى ـ تأليف كولن ولسون، ترجمة أحمد عمر شاهين (الطبعة العربية الأولى ١٩٩٩).

٤ ـ التحنيط، تأليف أحمد صالح عبد الله (الطبعة الأولى ـ ٢٠٠٠).

٥ ـ غواية إسرائيل (الصهيونية وانهيار الاتحاد السوفييتى)، د. أشرف الصباغ، (الطبعة الأولى ـ ٢٠٠٠).

تحت الطبع:

التاريخ الإجرامى للجنس البشرى، تأليف: كولن ولسن، ترجمة رفعت السيد.

غواية إسرائيل

الصهيونية وانهيار الاتحاد السوفيتي

د. أشرف الصباغ

الكاتب: قاص وناقد ومترجم مصرى يعمل بموسكو (مؤقتاً)، صدر له «قصص سرمدية» (قصص ٩٦)، و«خرابيش» (قصص ٩٧)، «نتاشا العجوز» قصص لفالنتين راسبوتين (ترجمة وتقديم ٩٨)، «المسرح الروسى بعد الإنهيار» (٩٩)، «جوانب أخرى من حياتهم» (٢٠٠٠).

الكتاب: بانوراما تاريخية على امتداد حوالى قرن ونصف، يسرد فيها الكاتب ويحلل موقف اليهود من الدولة الروسية، وعلاقتهم بالمجتمع، وموقف المفكرين الروس من اليهود. وقد تساءل دستوفسكى يوماً: ماذا حرك اليهود طوال القرون الماضية؟، ويجيب: لقد حركهم شىء واحد فقط هو عدم الرحمة تجاهنا، والارتواء بعرقنا ودمائنا. كما حذر الكاتب العبقرى «مملكة اليهود تقترب»، وكانوا يحلمون بيوم ترتمى فيه كل الشعوب تحت أقدامهم، انتبه دستوفسكى مبكراً للمغالطة التى نمارسها اليوم بحماقة ومراهقة فكرية، بالتفرقة بين اليهود والصهاينة فقال: لا أثق حتى فى المثقفين اليهود الملحدين، إنهم ليسوا إلا جوهراً واحداً، ولا يعلم إلا الله ماذا ينتظر العالم من اليهود المثقفين.

هذا العرض التحليلى يؤكد دور الحركة الصهيونية بقيادة هرتزل فى إشعال نار العداء ضد يهود روسيا وأوروبا لإجبارهم على النزوح والهجرة إلى فلسطين. وقد كان.. إلا أن المقاومة لهذه الدولة المغتصبة. التى أسهمت بقسط وافر فى انهيار الاتحاد السوفيتى. ممكنة وبأبسط الوسائل، وأقل الإمكانات، فقط بقليل من الإيمان والثقة بالنفس، والرهان على المستقبل.

الدار: جماعة ثقافية تهدف إلى نشر الدراسات الجادة: فى التاريخ، أو علم الأديان، أو علم الاجتماع السياسى.. إلخ، وقد أصدرت إلى الآن:

١- عوالم فى تصادم. تأليف إيمانويل فلايكوفسكى، ترجمة د. رفعت السيد (الطبعة العربية الأولى ١٩٩٩)

٢- الجنس والشباب الذكى. تأليف كولن ولسون، ترجمة أحمد عمر شاهين (الطبعة العربية الثانية. الكاملة. ١٩٩٩).

٣- عصور فى فوضى. تأليف إيمانويل فلايكوفسكى، ترجمة د. رفعت السيد (الطبعة العربية الأولى ٢٠٠٠).

٤- التحنيط. تأليف أحمد صالح عبد الله (الطبعة العربية الأولى. ٢٠٠٠).

٥- غواية إسرائيل. الصهيونية وانهيار الاتحاد السوفيتى، تأليف د. أشرف الصباغ - ٢٠٠٠



تحت الطبع

التاريخ الإجرامى للجنس البشرى (٢ أجزاء) تأليف كولن ولسون، ترجمة د. رفعت السيد

